

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01025 1522



Library of
The American University
at Cairo

Bappy is the man that
findeth wisdom and
the man that getteth
understanding .+ .+ .+

PROVERBS 3-13

Ex libris datus
in memoriam
James Polk Mc Kinney
Pittsburgh, Pennsylvania

عبد المنعم محمد خليل

B

5344

K48

U4

1945

أُومِنُ بِالْإِنْسَانِ!

هَافٌ مِنْ سُبُحَاتِ الْفِكْرِ وَعَمَانِ الضَّمِيرِ
بِنَاءِ الْحَضَارَةِ وَالسَّلَامِ الْعَالَمِيِّ عَلَى عَقِيدَةٍ
يُوَعِّبُهَا التَّامِلُ فِي أَسْرَارِ الْإِنْسَانِ، تَحْتَ
ضَغْطِ مَا أَصَابَهُ مِنْ قَاتِعِ الطَّغْيَانِ وَالسَّخَمِ
وَالْإِسْكَاسِ الَّتِي جَلَبَهَا عَلَيْهِ كُفْرُهُ بِالْإِنْسَانِيَّةِ
الرَّوَاحِدَةِ إِذَا رَأَى الطَّبِيعَةَ الرَّوَاحِدَةَ

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٥

03-B 1661 Pat

الفهرس

صفحة

ه	تقديم لمعالى الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا
ز	الإهداء
ح	ابتهال ورجاء وتعريف

١ - تمهيد

٢	أطرحها قضية
---	-------------

٢ - فى موازين الحس والفكر والضمير

٢٠	عقدة الثمرة من هذا الكتاب
٢٢	نظرة المفارق لنفسه ونوعه
٣٢	استعراض وتفصيل
٤٣	فوق الموازنة
٥١	فى معتك الآراء
٦٦	مشرح هائل وممثل واحد
٧٥	الانتظار
٨٣	منابع الفكر ومصائبه
٩٤	أدركت الثمار وأن القطف
١٠٢	حيث الأنس بالإنسان
١١٥	الضمير ووصايته على الحياة
١٢٦	التحرر من التاريخ

٣ - فى أصول الاجتماع والسياسة والاقتصاد

١٤٠	عقيدة الجنس
١٤٦	النقص والتكامل
١٥٨	الواحد
١٦٦	اللؤلؤة والصدفة
١٦٤	الفكر والسلطة

201
K526

نحو أساس روعي للحضارة المادية

سلسلة ذات خمس حلقات يحاول بها المؤلف أداء واجب من واجبات الفكر الإسلامي الحديث في التمهيد الفكري والوجداني لقيام الحضارة الروحية المادية المنشودة

- ١ - أومن بالإنسان !
٢ - العقل المؤممه !
(تحت الطبع) خ ع ١٠

أو

الدين من طريق الفكر

بحوث حرة في أصول الإيمان ودعوة عصرية إلى تجديده

- ٣ - الحياة صادقة !
(تحت الطبع)

أو

نزعة التفاؤل

دعوة إلى الاستعلاء على الآلام ، وإلى تعرف وجهات الحياة والإقبال عليها ، وعلى العمل الثمر والكفاح الصابر

- ٤ - صلوات فكر في محارِب الطبيعة !
(تحت الطبع)

تأملات فلسفية وخطرات وجدانية ترجع الإنسان الشارد إلى أحضان الطبيعة وتوقظ فكره إلى أعاجيبها والتخلي من جمالها والتعبد لبارئها

- ٥ - محمد برِبع !
(تحت الطبع)

أو

نهضة الروح الإسلامي الحديث لمشاركة الروح

المسيحي والروح اليهودي إقامة الحضارة المنشودة

26442

تقديم

بقلم عمير الفلسفة الإسلامية والأدب النفسى هضرة صاحب المعالي
الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عمير الرازي باشا وزير الأوقاف

لما لقيت الأستاذ عبد المنعم خلاف أول ما لقيته كدت أعرف من
هو من قبل أن أسأله من أنت ، فقد توهمت في وجهه ملامح من سمات
أبيه رحمه الله . وكان أبوه رجلا من كبار العلماء في الأزهر ومن كبار
الصالحين ، وكنا نستفيد من علمه وكنا نلتمس من بركته . ففي جيلنا
كان الناس يؤمنون بأن في بعضهم بركة ، وأن صفاء القلب وقوة الإيمان
تجعل الأرواح فياضة بالخير ، وتجعل دعواتها مفتحة لها أبواب السماء .

واصلت معرفتي بالأستاذ عبد المنعم بعد هذا ، وقرأت كثيرا مما
يكتبه ، فازددت يقينا بأنه ورث من أبيه العلم وورث من أبيه التقى .
وقد قرأت كتابه ، فوجدت فيه عقلا ودينا . وإذا كان أبو العلاء يقول :
إثنان أهل الأرض : ذوعقل بلا دين ، وآخر دين لا عقل له
فإن في الناس على رغم أبي العلاء من لهم عقل ودين .

والأستاذ عبد المنعم خلاف يريد في كتابه أن يؤمن البشر بأن الإنسان
أكرم أنواع الكائنات الأرضية ، وأن يكون هذا الإيمان سبيلا إلى تحليهم
بأشرف الفضائل ، وإلى تسامي جماعاتهم إلى أرق السعادات الاجتماعية .

صفحة	
١٨٤	ثورة الفكر على الواقع
١٩٢	المسألة الأفغانية
١٩٧	جرائم التفاوت الفاحش
٢٠٤	هذه الحرب وعبرتها

٤ — نحو أساس روجي للحضارة المادية

٢١١	بين الوعى والذهول
٢٢٠	صوفية مادية
٢٣٠	الباقى من صانع الحضارات الفانى
٢٣٤	الى العقل الغربى من الروح الشرقى

٥ — أما بعد

٢٤٧	متى النور يا ظلمات
-----	--------------------

الإهداء

إلى الأبطال الثلاثة :

التوراة ، والإنجيل ، والقرآن !

الذين ثبتوا يكافحون في الدهر الأطول ، قوى

الظلام والطغيان والهوان ، نضالا عن كرامة

رُوح الإنسان !

يبسط الأستاذ القول في هذه المعاني ويفصله في حماسة تخيل إليك كما
خيلات إليه أنه اكتشف نظرية في الكون جديدة ، وقد لا يكون الأستاذ
اكتشف نظرية جديدة ، ولكنه أتجه بكل ما في نفسه من شباب وإيمان
وذكاء إلى تقرير معنى السمو في الطبيعة الإنسانية ، وإلى دفع الشعوب إلى
الخير من هذه الناحية ، وهذا صنع مشكور في موضوعه وفي غايته .

والمرجو أن ينتهي جد الأستاذ في تفكيره ودرسه إلى فلسفة تكون
جديدة حقا ، ويكون أثرها في إسعاد الإنسانية عظيما إن شاء الله .

مصطفى عبد الرازق

في الأمل والاتحاد ، لاني فترة الحرب المريرة نجسب ، بل في الأيام المقبلة أيضا ، وهي الأيام التي يجب أن توحّد - وسوف توحّد! - جميع أبناء هذه الأرض . فإذا ما ظلم إخوتنا فنحن كذلك مظلومون ، وإذا كانوا جوعا فنحن كذلك جوعا ، وإذا كانت الحرية قد انتزعت منهم فإنّ حريتنا غير مصونة .

« امنحننا اللهم إيمانا مشتركا بأن الإنسان سيكون له الخير والسلم ، والعدالة والبر ، والحرية والأمان ، وتساوى الفرص ، لاني ووطننا نجسب ، بل في جميع أنحاء العالم أيضا . »

* * *

ويرجو الناس من « الولايات المتحدة الأمريكية » أن تسير هكذا دائما في السياسة على عقائد روحية وأفكار مخلصّة وإدراك عميق لحقائق الحياة والعلم والإيمان ، لا على « مناورات » السياسة والأعيب الاقتصاد ، وفلسفة الطغيان والكبرياء والبطش والمفاضلة العنصرية وحب القهر والاعتصاب ؛ فهي بهذا أقرب النماذج الدولية الغربية إلى الحياة المنشودة بين الأجناس والأديان والألوان والشعوب .

ونرجو أن تدرك حق الإدراك مركزها الممتاز ورسالتها العظيمة في توطيد حياة السلام والعدالة الدولية والإنصاف للشعوب الصغرى بعد هذه الحرب ، فلا تنساها أو تتكاسل عن تحقيقها ، كما نسيت وتكاسلت بعد الحرب الماضية ، فيسكن جزاؤها أن اضطرت مرة أخرى إلى بذل هذا الجهد الجبار بالدم والمال والموارد وقوى الكفاح . . هذا الجهد الذي

ابتهال ، ورجاء ، وتعريف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبسم الله السلام المؤمن !
والحمد لله رب العالمين .

والصلاة والسلام على صفوة الإنسانية ، وأشرف الصورة الجسمانية
(محمد) وعلى جميع رسل الله وأصفيائه الذين أحيوا قلوب الناس بمعاني
الإيمان ، وهدوا عقولهم بهدى السلام ، وأقاموا حياتهم بعواطف
البر والرحمة ، وعلى من اهتدى بهداهم إلى اليوم الأخير للإنسانية على
هذه الأرض !

وأتهل إلى الله العلي الكبير بهذا الابتهاال العميق الذي ابتهل به
« فرانكلين روزفلت » رئيس « الولايات المتحدة الأمريكية » الراحل ،
وأعظم معاصر مسئول عبر عن الروح المؤمنة بالإنسان ؛ إذ لا أجد تعبيراً
أبلغ ولا أفصح منه عما أريد أن أبتهل به في صدر هذا الكتاب .
قال حين خطب في يونية سنة ١٩٤٢ في « يوم العلم » والاحتفال
« بتصريح الأمم المتحدة » :

« إلهنا ! يامنح الحرية . إننا نضع أفئدتنا وأرواحنا اليوم رهن قضية
حرية الجنس البشري كافة . امنحنا اللهم الإيمان والفهم لنحميا ونعتز
بالذين يحاربون من أجل الحرية كما لو كانوا إخوة لنا . امنحنا اللهم التآخي

ولكن ما شغل به العالم بعد الحرب من التهاوت على المتاع المادى
لتعويض ما أصابه من آلامها ، وما رأته أمريكا من عودة ذوى النزعات
المحافظة إلى أساليبهم القديمة فى السياسة الدولية ، وما قضت به مساعى
الرأسماليين والاستعماريين والأنايين ، من بقاء العالم فى أدوائه القديمة ، وما
أصاب الرجل الإنسانى العظيم (ويلسن) من ضعف الصحة و ضربات
اليأس الذى بثته فى نفسه أوكار الرجعية وبؤر الطغيان والأناية ... كل
أولئك تثبَّط من عنزيمة (أمريكا) وجعلها تنفُض يدها من العالم القديم
وتركه فى شقائه ، وترتد إلى عنزتها السعيدة .

ولكن هذه يد الأقدار تمتد لتفتزعها من هناء عنزتها ، وتحشرها مع
العالم القديم مرة أخرى ، فى هذه الحرب الطَّحُون ، وتدفعها معه بقضها
وقضيتها بعد أن صارت العزلة مستحيلة فى هذا العالم الذى ضاق وارتبط
واتصل بعضه ببعض اتصالاً وثيقاً حتى صار إلى « عالم واحد » كما عبر عنه
كتاب (ويلكى) .

وما أظنها ستنسى واجبها مرة أخرى بعد أن عاد السلام إلى أوروبا ،
وبعد أن يعود فى الشرق الأقصى ...

ومن هنا ينبعث نور الأمل ، لأن أمريكا عمل عظيم فى طريق
أمل أعظم ..!

ولقد نجى الله ديارها من أهوال التخريب والتدمير لمراكز الإنتاج
والتنموا الحضارى . ولكن الحرب التالية — لا قدرها الله — سوف تصل
إليها لا محالة بأهوالها وفظائنها .

كان يسعدها ويسعد العالم لو بذل نصفه أو أقل من نصفه في حياة السلام والاستقرار قبل هذه الحرب .

ولقد قال الراحل (وندل ويلكى) منافس (روزفلت) في انتخابات سنة ١٩٤٠ بتاريخ ١٤/١/١٩٤٢ - « إننا جميعا نلوم (هتلر) وحده ، بيد أن هذه الفكرة السطحية ليست صحيحة ؛ فاللوم لا يقع على (هتلر) وحده ، بل ينصب علينا إلى حد ما ؛ فلقد سمحنا في الماضي لإنتاجنا الصناعي العظيم أن يتحكم فينا ، وأن يتغلب على مثلنا العليا » .

أجل ، هذا هو موضع الداء وضع (ويلكى) أصبعه عليه .. فإن « الولايات المتحدة الأمريكية » كان يجب أن يكون موقفها بعد الحرب الماضية موقف « رسول » من العالم الجديد السعيد بتناسي أحقادها الجنسية وفوارقه السطحية ، إلى العالم القديم الذي لا يزال رهين هذه الأحقاد والآثام .

بل كان يجب أن يكون موقفها موقف « بوليس » العالم المدافع عن حرمان الشعوب الضعيفة ، والساعي إلى رد الحقوق المغصوبة ، بعد أن كان انضمامها للحلفاء في تلك الحرب أعظم مرجح لكفهم ، وبعد أن تلقى المعسكران المتحاربان مبادئ رئيسها العظيم (ويلسن) باللهفة والقبول والاستبشار . وكان فيها المثل المنشود . وكان شرف أمريكا يقضى عليها أن تقوم على تنفيذ تلك المبادئ التي قدمها رئيسها باسمها ، وأن تجمع حولها كل مظلوم من الدول وتعلن الحرب الدائمة على كل من ينقض عهد تلك المبادئ ، حتى يفيء إلى أمرها .

الإيمان ، والحق ، والجمال ، والقوة ، والحب ، والخير ، بعد ما أصابه من هذيان الفلسفات المادية الجامحة ، وشوشرة المذاهب الهدامة ، التي كان من نتائجها طوفان الدم والوحل الذي طمَّ على الإنسانية كلها في هذه الحرب التي وضعت نصف أوزارها وما كادت !

٥ — وبملاء قلبه بنفحات التفاؤل الرخب ، والصبر الجميل ، والاستعلاء الأبيّ على أسباب التشاؤم والألم والسخط والانتقاض .

٦ — وبحمل جهده على عزائم الكفاح والسيطرة على القوى المادية العمياء لتسخيرها وشميرها للنفع العام .

٧ — وبإنهاض أسرة الأمم الإسلامية حتى تؤدي نصيبها في إقامة الحضارة المنشودة ، على قدم المساواة مع أسرة الأمم المسيحية والأمة اليهودية .

وهذا الكتاب كذلك محاولة من « الروح الشرقي » — الذي كان ولا يزال ذخره وعماده دائماً في مراحل التاريخ ، الإيمان بالله رب الوجود ، والصلاة والبكاء له ، والاستمداد مما يلقيه في أعماق الضمير من إلهام ورحمة وسماحة وحب وطهر وصفاء وإحالة على الغيب حين العجز — لحل مشكلات الفكر ، وبناء أسس الحياة المادية والاجتماعية على عقيدة عميقة المنابع ، قريبة التناول ، كثيرة الأدلة والشواهد ، عظيمة النتائج ، لا على نظريات في السياسة والاقتصاد كما تفعل الكتب التي يؤلفها العقل الغربي ، ويتناول بها مشكلات العالم وعقده وخرُّوقه بأسلوبه المادي الواقعي المعروف ، الذي لا يصدر غالباً إلا عن المصلحة القريبة المنظورة

نعم إن ما بذلته في هذه الحرب من دماء الشباب وعتاد الحرب ،
شئ ضخم هائل ، ولكن حظها بنجاة ديارها ومراكز نموها ، أحسن
بكثير من حظ غيرها على كل حال . فعملها أن تدرك ذلك وتشكر الله
عليه بالعمل العادل المسلح على أن تقوم العدالة والمساعدة بين الأمم
مقام الظلم والأنانية والاستغلال الآثم .

وإذا كانت هي أعظم عامل من عوامل النصر في هذه الحرب لاشك ،
إنها حينئذ تملك أن تكون أعظم عامل من عوامل الاستقرار والسلام
والعدالة لاشك ...

* * *

«وبعد» فهذا الكتاب حلقة من سلسلة قصيرة ذات خمس حلقات :
هي محاولة أحاول بها أداء واجب من واجبات العقل الإسلامي الحديث في
التمهيد الفكري والوجداني لقيام الحضارة الروحية المادية التي هي أمل
الإنسانية جميعها . وذلك :

١ — برفع مكانة الإنسان في نظر نفسه ، وإيماء ثقته وإيمانه بجنسه ،
وإدراكه أسرار خلقه وفكره وجهده وتنوعه شعوبا وألوانا .

٢ — وربط روحه بمصدرها الإلهي ربطاً وثيقاً على هدى من
نور العلم والدين .

٣ — وبوصل عقله بأعماق الطبيعة وأسرار الحياة ، حتى يشعر
بالانسجام مع الكون كله ..

٤ — وبمقد صداقة وثيقة بين ضميره والمعاني العليا للحياة ، وهي :

الفرد الإنساني لن يؤمن بالكون ورب الكون إن لم يؤمن بنوعه ؛
إذ أننا لاندرک الـكون وربہ إلا بعقل النوع الإنساني ، فإذا أهدرنا
قيمة الإنسان أهدرنا عقله ، فلا يبقى لنا ما ندرک به الـكون ورب الـكون !
وحسبنا هذا من حامل على الإيمان بالإنسان لضمان وجودنا الروحي ،
ومنطقنا الفكري والعملی .

فإن لم أكن سبقت إلى الاهتداء إلى هذه القضية ، فهذا الزعم صحيح !
ونعم هو من توفيق أحمد الله عليه أجل الحمد !
ولا يخفى ما وراء الاعتقاد بصدق هذه القضية ، والعمل بمقتضاها ، من
مبادلة السلام والاحترام والإنصاف بين الناس جميعا .

وأكد أرى أن الموقف الفكري في هذه القضية يسبق موقف
(ديكارت) حين أثبت « وجود الذات المفكرة » واتخذ أساسا بني
عليه فلسفته الإثباتية ؛ إذ أنه من أين لديكارت أن يثبت أن لتلك الذات
قيمة واعتبارا ، وأن لما ينتج منها من الفكر قيمة واعتبارا ، إن لم يثبتهما
أولا للنوع الذي تنفسب إليه هذه الذات ، ليكون لما يصدر عن أفراد ذلك
النوع تلك القيمة وذلك الاعتبار ؟

فالموقف الطبيعي الأول هو أن نرصد أولا هذا النوع الإنساني كله
بعين غريبة عنه ، مفارقة لوجوده ، لنثبت له مكانته الخاصة في الـكون ،
وخصوصا بعد أن وصل فكره أخيراً إلى أن يكون عاملاً عظيماً من عوامل
الحكم والتكوين والتخريب في الطبيعة ، ثم تأتي بعد ذلك جميع مواقف
الإثبات واليقين للأفراد .

المؤقتة ، حتى ولو كانت مخالفة للحق بجانبه للصدق ، ويعالج الأمور بالذكاء وحده ، ولا يستعين معه بالإيمان والبصيرة ، ويغفل عن هذه الحقيقة التاريخية الثابتة ، وهي أن الحياة إن لم تؤسس على عقائد راسخة سمجة فهي دائماً في تقلقل واضطراب وانهميار .

ومما أنشده في هذا الكتاب ، استمرار الناس على إقرار خلاصة رأى الأديان السماوية الثلاثة الكبرى التي نمت حضارتنا في وصايتها ، ولا تزال مسيطرة على أعظم أمم العالم قديماً وحديثاً ، وهي اليهودية والمسيحية والإسلام ، في تشريف هذا الجنس البشرى ، والإيمان به وبسمو الغايات التي خلق لها ، وأولها وأعظمها الإيمان بالله باري الكون ، واستمداد الضمير منه .

ولم أهمل الاعتراف بأى جانب من جوانب الإنسان الروحية والمادية ، ولم أر أن في حذقه المادى وقدرته الابتداعية أى باعث له على الغرور والفجور وجحود الإيمان ، بل على العكس رأيت هذا الجانب منه أعظم الأسباب التي تحتم عليه أن يكون إيمانه بنفسه أعظم وسيلة لإيمانه بمن خلق في نفسه هذه القدرة الابتداعية القامية المنمّية !

ولم أخذُ حذوَّ الروحانيين المُغرِّقين في الروحية ، المهملين للجانب المادى ، ولا حذوَّ الماديين الحسّيين المستغرِّقين في حياة المادة مع عدم الاعتراف بما وراءها ، بل اتخذت الموقف المعقول بين بين .

وقد زعمت أنى اهتديت إلى القضية الفكرية والدينية الأولى حين أقرر « إن الإيمان بالإنسان سابق على غيره من قضايا الدين والفكر ، لأن

تجدید

۱
تفہیم

أطرحها قضية !

القضية وموازينها — استجابة لنداء الحياة والنفس — هذه الحرب — نتيجة الإيمان بالحق المطلق والكمال المطلق — لاخضوع للواقع — هل يسمع لنا ؟ — تأثير المغلوبين في الغالبيين — الضعف السامى والقوة السافلة — العالم الغربى بين دوى الدم والوحل وهمس الرحمة والحب — لاياس — كنا فى أحسن تقويم وسنعود — أمور ثلاثة لا بد منها — كلمة إلى محترفى السياسة وسماسرة المال — كلمة الى عشاق الحق والسلام .

أطرحها قضية !

هى قضية الإيمان والثقة بالانسانية ! لأنى وجدتها القضية الأولى التى لاصحة لقضية فكرية الا بعد ثبوتها ، ولا استقرار للسلام العالمى والأخوة البشرية إلا بعد الاعتقاد بها .

وأطرح فى موازينها موارد تلك الأرواح والعقول والقلوب التى استعملن سرها العظيم ، وتجلّى جوهرها الكريم فى آباء الانسانية الأولين والآخريين : من الأنبياء والمرسلين ، والحكماء والصدّيقين ، والعلماء المنتهين ، والأدباء الملهمين والرؤاد المقتحمين ، والشهداء المجاهدين ، والجنود المجهولين من الزارعين والعاملين الخادمين الصابرين !

وأرسلها صيحة معتقد لا مقالة كاتب يُزجى لونا من ألوان « الترف

العقلي « يقدمه على مائدة الكماليات في عالم الفكر ، ليمتفكَّه به المُتَرْفُونَ
المُتَشَهِّون كل جديد من الآراء ...

وقد تعمدت أن أقلب النظرة وألتمس نقائص الانسان وأسباب
الكفر به والتحقير من شأنه ، وأخذته بالنظرة المادية وحدها ، فما استطعت
ذلك ؛ لأنني وجدت حياته توحى إلى أن أومن به وأعتبر ذلك الإيمان
أساسا لغيره من شعب الاعتقاد .

وقد تعمدت كذلك أن أقف وقفات طويلة بين مراحل تلك
المقالات^(١) التي تضمنها هذا الكتاب لأتبيِّن : هل أنا مخدوع في الطريق
الذي سلكتُ فأعود منه وأرتد عنه ؟ ولتذهب عني فتنة ابتداء القول
والعُجْبُ به — وإن لا ابتداء القول فتنة وعجبا كما يقول (الجاحظ) —
وحاولت أن أراجع الشئون السافلة في حياة أفراد الانسان لعلها تصرِّفني
عن الاعتقاد في إمكان سموه كمجموع . . . ولكن كانت الأيام والوقائع
وطول التأمل تزيد دائما فكري وقلبي إيمانا بصحة ما ذهبت اليه .

وقد هتفت « أومنُ بالانسان ! » استجابةً لنداء الحياة ونداء النفس .
فقد نادتنى الحياة الانسانية الراهنة الزاخرة إلى الايمان به وبمستقبله ،
برغم اثمه وشره في عصره هذا ، وحملتني على ذلك بنبؤاتها ومعجزاتها .
والحياة المدنية الحالية-نبوة ! نبوة شيعوية . . . أخذت جميع أمم الأرض
بمعجزاتها وأخضعت أعناقهم بأدواتها المأخوذة من أسرار الطبيعة .
فلنعرفها على حقيقتها ، ولنعلم أنها باب الملكوت الذي وعدت به
رسالاتُ الشرق الاولى التي وجهت الانسانية .

(١) نشر كثير منها على فترات في مجلتي الرسالة والثقافة بين سنتي ١٩٤٠ و١٩٤٥

انها نبوة الطبيعة وقوانينها ، وحقائق الأشياء وبراهينها ، لا نبوة الارشاد والترديد والكلام الذي ألقاه الرجال الآباء في سمع الانسانية وهي في أدوار تكوين الضمير وتطبيع الأعصاب وتوجيه الأخلاق بالرحمة والاخلاص والايان ، وسمو النظرة إلى الانسان في حياته هنا وفي مصيره هناك . . . وهي صفات لا بد منها في المهود والمدارج .

فان أنا لم أستجب لنداء هذه الحياة بالجسم الخفيف السريع ، والفكر اللطيف اللماح الحاذق الفطن لأسرارها ، الواعي لخطرها وقيمتها ، العارف بأبجديات قافلتها . . . كنت من المتخلفين البلاء الكافرين بنعمة الله ! والله في هذه الحياة المدنية الحالية نعمٌ جميلة لا يكدرها إلا عنفٌ وحماقة وطيش من بينها . . .

وقد نادتنى النفس التي حاولتُ جهدى أن أحفظ لها حدودها وطابع عالمها الخاص ، وألاً أسمح بطغيان الجسد عليها طغياناً يجعلها تذهل عن ذاتها وتخلط بين معدنها والمعادن الأرضية ، إلى الايمان به كذلك ، وحملتني على ذلك بما كشفته لى من آفاقها الخاصة التي لا دخل للتعليل « البيولوجي »^(١) و« الفسيولوجي »^(٢) فيها .

وكنت حَرِيًّا — وأنا أطلب الحق — أن أستمع للنداءين فأوقف بينهما ، وأن أرى ضلال الذين عكفوا على الحياة المادية وحدها أو على النفس وحدها ولم يزاوجوا بينهما .

هذه الحرب : وحينما فجأتني صيحة هذه الحرب الفاجرة الجبارة ، التي تدور طواحينها الحمراء على جماجم الإنسان ، وتذرُّ وفيها رياح النار مُدَنَّة

(١) تعليل علم الحياة (٢) تعليل علم وظائف الأعضاء

وآثاره العامرة بالجمال والحرمات ، وتُحِيلُهَا خرائب وأطلالاً تعمُرُهَا
أشباح الهول ، وتتساقط عليها المصارع في صيحات وصعقات نكراء
ترسلها أفواه وحوش الحديد والفولاذ الرابضة والسائرة والسابجة والطائرة ،
زلزلت فجأتها وفجراتها وجرائمها دعائم يقيني وعقيدتي في ذلك الجنس
وأملِي في مستقبله .

ولكنني عدت وقلت لنفسى : هل يمكن أن يفعل مثل هذه الأفاعيل
لو كان يدرك نفسه ، ويؤمن بها ، ويعلم مدى ما يريد رب الحياة منه
حين أخرجه للأرض ، وجعله خليفة يخلُقه خلافة واسعة في عمارة الحياة
وكشف أسرارها ومحاكاة نماذجها وإفساح مداها ؟

هل يمكن أن يفعل هذا لو كان يدرك أنه أعظم من أن يكون كغيره
من ساكنات الأرض العاجزات القاصرات ، المحدودات القوى والإدراك ،
السائرات بالغرائر وحدها ، المحرومات مما عنده من قوى التقليد والخلق
والابتكار والتسامي ؟

هل يمكن أن يَغْفَلَ — لو أدرك الحقائق — عن أن موارد الأرزاق
والأقوات التي يصطرع عليها ، كافية لأن يسعد بها كل فرد وكل أمة
لو وزعت توزيعاً عادلاً ، ولم تَطْغَ عليها شراهة التملك وطباع الاغتصاب
والختل والأثرة والاستكثار المباهاة والمغالبة والاستعلاء ؟

وهل يمكن أن يفعل هذا لو كان يدرك أن كل فرد في الإنسانية إنما
هو ثروة لها وقوة في كيانها لو أحسن توجيهه وتربيته ، واحترم وجوده

وحقه ، ولم يُنظر إليه تلك النظرة التي تُهدِر دمه ، وتُرخص روحه ،
وتغفل عن أن يد الله لم تخرجه للحياة إلا لغاية قد تنفع الإنسانية جميعاً .
وقد تكون الغاية من خلقه أن يكون كإنساناً أو إسكافاً أو خفيراً . . .
ولسكن من ذا الذي يزعم أن الدولة ليست بحاجة إلى واحد من هؤلاء
كحاجتها إلى ملك أو رئيس ؟ ! إن الخلايا التي نصيبها أن توضع في مكان
القذارة والنجاسة من جسم الإنسان ليست أقل شأنًا في حياته من خلايا
الوجه والمنخ . . . وإنما هو قانون التوزيع بين أعضاء الجسم ، يقضى أن
يكون بعضها في الأساس الختفي و بعضها في القمّة المستعلنة ، والكل بناء
واحد ، له قيمة واحدة .

وهل يمكن أن يكون الإنسان الذي نراه بالعيون ضئيلاً مجرماً
قبيحاً في بعض الوحدات ، هو الإنسان الكلي الذي ندركه بالفكر
والبصيرة والضمير ، حين نستعرض الكائنات الأرضية ونراه فيها ذات تفرد
و ذاتية خاصة ، وقدرة على التسامى إلى الله ، والأخذ من علمه تعالى
وأسرار صنعه ؟

وهل يمكن أن يكون الإنسان المنشود هو ذلك الذاهل عن نفسه ،
وعن دخوله إلى الحياة ، وعن خروجه منها من غير اختيار ، وعن رحلته
بين الأزل والأبد على هذه الأرض تلك الرحلة الغامضة في ذلك الكون
المجهول الصامت الذي لا نعلم حدوده ، ولا ندرك أبعاده ؟

كلا ! لن يكون الإنسان المنشود المدرك لنفسه ووضعها هو هذا الذي
نراه رهين المقابيح والغفلات ، صريع الذهول والحماقات !

إن الأمر جَلَلٌ خطير ، تحتمس من الفكر فيه الأنفاس ، وتتلاحق
النبضات ، وتحترق الخطرات !
وإن الوقوف عنده ووقوف على « نقطة البدء » في الحياة ، ومن
ورائها زمام الأمر كله ومقاليدته !

الايحسان بالكمال : ولما كنت من عشاق الحق المطلق والجمال
المطلق ، وقد استحضرتُ في نفسى صوراً منهما ، ومن أحلام السعادة في
ظلالهما ، وآمنت بهما إيمان الموقن أن الإنسانية مخلوقة لتسمو إليهما مهما
كانت الطريق إليهما ذات وعورة وامتداد . . . لذلك لم ألقِ بالآ إلى
النقص والفساد والقبیح الذي يشيع في الناس الآن ، وثبتتُ على الإيمان
بالسمو الاجتماعى وإمكان الوصول إليه ، لما وجدت أن بالإنسانية حينئذ
إليه ، وقدرة على اطراد التقدم فى سبيله . ولم أبال بالمعوقات والشُرور ،
ولم أجعل لها وزناً واعترافاً إلا بمقدار الاحتراس منها ، والجهاد فيها .
وربما يكون مبعث هذا الإيمان هو السير وراء الفكر وحده لا وراء
الغرائز والواقع . . . ولكن مهما يكن من شىء فهذا الإيمان هو القوة
الدافعة الوحيدة التى يمكن استغلالها للتقدم والارتقاء .

ألا يحس كثير منا أنه يجد صور الخير والجمال كاملة فى نفسه ، ويود
لو وجدها كذلك فى خارج نفسه . . . فى أسواق الحياة ؟ ثم هو يجد
أضدادها تملك عليه طرق الحياة ، كما تتراكم الزبالات والقاذورات فى
طريق الرجل المتطهر . . . فيضطر ليمخوض فيها سعياً وراء القطيع ، وأداءً
لواجبات المعاملات والضرورات المعاشية القاسية . . . وكثيراً ما تلوّنه

أو تبتلعه أو تحوِّله إلى خادم من خدامها، لأنه عاجز ضئيل لا يستطيع أن يقاوم تيار أحوالها وينهض وحده بمصارعتها؟

لا فزع للواقع : فلا يحملنا واقع الحياة السيء على الكفر بها في نصّابها الأعلى من الجمال والصلاح والكمال الذي يوصى به الحق والفن الرفيع والمثل الأعلى الذي يملأ تخيلاتنا ، ويثير أرواحنا : ذلك الذي يدل على أنه من الممكن أن الله شغّل به أحلامنا ، وكلفنا السعى إليه . فلو لم يكن ممكناً ما كلفنا إياه ، ولا شغّل به أرواحنا ، ولا أودعه إلهامنا . نعم إننا لن نصل إلى أبواب المعاني الإنسانية إلا بعد جهاد عنيف في اختراق الحجب الكثيفة التي غشّتها التاريخ على الأفكار والنفوس ، وجعلها تفهم أن الإنسان المقصود هو ذلك الذي يرونه الآن يملأ أسواق الحياة بالجرائم والنكبات والجهالات .

وقد يكون الوصول إلى أبواب المعاني الإنسانية سهلاً ميسوراً لو أننا حافظنا على فطرة الخير في الطفولة ، من أن يتطرق إليها ما تطرق إلينا وأفسد فطرتنا . فإن أبواب المعاني الإنسانية يمكن الوصول فيه إلى المحصول الذي حصلنا على مثله في الزروع وأنسال الخيل وما إليها من أنواع الحيوان والنبات التي يُجرى العلماء في تنشيتها وتعهدها وتحسينها تجاربهم ويحصلون على نتائج قيمة .

والمشقة كلُّ المشقة هي في إقناع الناس أن ينتقلوا من المكان الذي قدقتهم فيه قوى الشر، إلى المكان الذي كان من الواجب أن يكونوا فيه ليروا مقاطع الناظر الصادق الصحيح ؛ حتى ولو لم يعلموا به في الحياة .

ولا يُؤنسنا من ذلك بُعد الشُّقَّة بين المسكانيين ، بعد أن رأينا ابن آدم استطاع أن يروض الآساد والنمور والقروذ ، ويعلم الكلاب والخيول والحمير رياضات هذبتها وأنسها كثيراً من شرور طباعها .

وباب الأمل هو أن تشرع الإنسانية في التجرد من أخطاء العصور السابقة : عصور الجهل والقصور وغلط التفسير والتأويل في وجهات الحياة ، ثم تسلم نفوسها للطبيعة الصريحة التي كشفت عن وجهها النقاب ، وعن أسرارها الحجاب ، فبان وجهها ، ووضحت دروبها .

وفي الواقع أننا نعيش بأكثر أفكار السابقين وآرائهم وعاداتهم التي أخذوها من موحيات أزمنتهم .

ونفوس الناشئة « كأفلام » التصوير الشمسى قبل أن يقع عليها الضوء . . . فلماذا نترك القبح والفوضى والشر تسبق إشعاعاتها إليها وتسقط عليها أولاً فتنتطبع فيها ، قبل أن تصل إليها أشعة الجمال والنظام والخير ؟

وأعتقد أن أسرع الوسائل لانقاذ الحياة الاجتماعية من شرورها هو استئناف تنظيم المجتمع على أيدي علماء الطبيعة والنفيس المخلصين ، الذين يجب أن تفوض اليهم الأمم رسم خطط الاجتماع على أساس ما أدركوه من الطبيعة والنفيس ؛ لاعلى أيدي محترفي السياسة وسماسرة المال والغافلين عن وجوب الانسجام بين الحياة الانسانية والحياة الطبيعية .

وقد يكون الأقرب لدى وجهة النظر الإسلامية أن ندعو إلى أن الاسلام هو الكفيل باقرار قضية الايمان والثقة بالانسانية ؛ لأن « كتابه » رفع من

شأنها ، ودان بتقديس حرمتها والثقة بمستقبلها ، ولأنه لو لم يكن ديننا
لكان مذهبا عقليا طبيعيا يسارع إليه كل من أسلم نفسه للطبيعة واسترشد
بهدى الله المبتوث في آفاقها .

ولكن هذه الدعوة منا في الوقت الحاضر الذي لا يزال أكثر الأمم
فيه متأثرا بالدعايات الكاذبة عن الاسلام ورسوله ونظمه ، ولم يقم المسلمون
فيه بأى عمل جدى يزيل آثار تلك الدعايات ، ستُحْمَل على محمل التعصب
منا والتطبع والتحيز للموروث . . . وستقابل بردود وسخریات ومناقشات
من أهل الأديان الأخرى .

ولذلك نرى مؤقتا من وجهة النظر العالمية ، أن نستعرض « المسألة
الانسانية » كما هي في الطبيعة بدون ألفاظ القرآن ، حتى يتأتى لغير المسلمين
أن يشعروا بالعقائد الانسانية منقولة عن الطبيعة مباشرة . . . وسيكون وحى
الطبيعة مع هذا هو رأى الاسلام نفسه ، ولكن بعنوان آخر أو بغير عنوان . .
وما يضيئ هذا الدين في شيء ؛ لأن القرآن وهدى رسوله وسيلة لغاية هي
إدراك الطبيعة والنفس الانسانية ومعرفتهما والتحاكم اليهما ، وإدراك
بارئهما وصفاته مستنتجةً منهما بعد ذلك .

وعلى الأخص أن لفظ « الاسلام » معناه تسليم النفس وتوجيهها للذى
فطر الطبيعة ، وليس معناه الانتساب إلى شخص أو جنس أو مكان .

هل يسمع لنا ؟ ولكن هل يملك أمثالنا أن يقدموا فكرة للعالم
تتنزل منزلة العقيدة الأولى للسلام ، نحن « الشرقيين » النكرات المعجورين
في عالم القوة والسيطرة الغربية ؟ ؟

قد يقال : يا له من غرور !

ولكن لماذا؟ ألسنا أصحاب أفكار إنسانية أودع الله إيانا سرها ،
وجعلها تملك الانبات والتفرع والتكاثر؟ بلى ! وإن لكل فكرة القوة
على أن تنمو متى هبى لها الجو الصالح والبيئة الطيبة ، كما أن لكل بذرة
ونواة قوة الانبات متى هبى لها الجو والتربة والماء .

فبذور الأفكار كبذور النبات : تُلقي إحداها في ظلام الأرض
وتتعمد ، فلا تلبث أن تتخذ طريقها إلى الحياة أو تتخذ الحياة طريقها
إليها ... فأكثر واقعيات الحياة أصلها أفكار وأحلام .

نعم إن الفرد الواحد الضئيل النكرة المغمور المحدود ، حينما يترك
فكرة ما تستبد بخواطره وتستولى على قلبه ، أملاً في حل مشكلات
العيش والفكر عن طريقها ، بعد انحسار ظلال الأفكار القائمة
والاعتقادات السيئة ، لا بد أن يشعر بدوار عنيف لبعث الشقة بين ما في
رأسه وقلبه وبين واقع الحياة السيء الذي ير فده عباب التاريخ ، وروافد
الوراثات الجاهلية في القرون والأجيال المُوغلة في القدام ، ولن ينقذه من
ذلك اليأس والدوار إلا نفحات من الايمان ، ولمعات من الآمال ، تحدث
نفسه أن كل صوت من أصوات الحق التي صاح بها ذلك الهاتف الغامض
الدائم الذي يسمونه الضمير البشري ، لا بد أن يجد صداه القريب أو البعيد ،
وأنه ليس على الفكر المخلص لأمانات الحياة ، الباحث عن سننها العليا
إلا أن يسجل ما يدركه من الحقائق ، ويضعه أمام العقول العامة ، ويعرضه
في أسواق الدعوات . . . لعل شاربياً قويا مدركا مؤمنا يشتريه وينميّه
ويذيعه في الناس عن طريق السطوة أو حذق الدعوة !

ولماذا لا نعتقد أن لنا الحق في أن نقول للعالم الكلمة التي نؤمن بها؟
الآن الدولة في العالم ليست لنا؟ قد يكون .. ولكن هذا لا يمنعنا أن
نؤثر في الغالبين ونحن مغلوبون ، كما أثر اليونان قديما في الرومان ثقافيا
وفتحوهم فكريا ، وهم الذين غلبوهم سياسيا وحربيا .. وكما أثرت المسيحية
الضعيفة المضطهدة في الرومان الغالبين القاهرين وحولتهم خدامها .. وكما
أثر الاسلام المنكوب المقهور في التتار القاهرين ، فحولهم اليه وجندهم له بعد
فترة وجيزة من سقوط بغداد في أيديهم .

إن الضعف السامى قد أثر في الحياة ويؤثر فيها ما لا تؤثر القوة
السافلة ..! وربما يكون للضعفاء وحدهم ، وهم الأكثر عددا ، حق الحديث
في الحقوق والواجبات والعدالة والإخاء والمساواة ، وحق الملاحظة والتنظيم
والتنقيح للنظم القائمة ، ولا يكون ذلك للاقوياء الذين لا يعرفون مطالب
الضعفاء ورغباتهم و« المضعف أمير الركب » كما يقول (محمد) خادم
الانسانية الأكبر .

ويخيل إلى أن العالم الغربي ، وخاصة الأوربي ، على استعداد لأن
يسمع كلاما جديدا غير ما ألفه في السياسة والحياة والاجتماع . ونحن —
سكان الشرق الأدنى والأوسط — أقرب المجموعات البشرية إلى المجموعة
الأوربية ، وأدناها منها مزاجا وروحا . ومثلنا العليا في الدين والخلق
والاجتماع قد انتقلت اليهم ودأبوا بها حقبا طويلا من الزمان . فمن غير
الصعب أن يستمعوا إلينا ، ولكن على شرط أن نكون مخلصين في
دعوتنا ، محترمين لأنفسنا ، مؤمنين بما عندنا ، نقول لهم بأسلوبهم وعقليتهم

في غير زهو ولا تعصب ، وإنما بتقديم مَوَدَّة ، وشعور رحمة لهؤلاء الذين
نفعونا وخففوا آلامنا بجهادهم المادى ، وسهلوا لنا سبيل الحياة بالجسم .
ونحن ورثة هدى ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد . . أولئك الآباء
الذين عذبوا في سبيل الانسانية ، وقدموا لها وهى فى عهد حياتها رسالات
الروح والخلق ، نستطيع أن نقدم شيئاً من ميراثهم فى الهدى ، وإلا كُنَّا
غير جديرين أن نكون سكان ديارهم ، وأقرب الناس إلى فهمهم .

وأنا أعلم أن جماعة منا سَيُنْفِضُونَ رءوسهم سخريه حين نذكر لهم
هذا الكلام . . ذلك لأنهم اصطنعوا الواقعية المادية التى لا تؤمن ولا تلبى
دعوات السمو والمَوَدَّة التى أقرتها الأديان والحكمة والفلسفات السامية فى
ضمير الشعوب . وهؤلاء هم علَّة العلل فى بقاء الشرق متخلفاً عن الغرب فى
كل شىء حتى فى «معارك السلام» كمتخلفه فى معارك الحرب والقوة المادية .

إن الشعوب الأوربية قد شربت من الدم والوحل حتى بَشِمَتْ
وزهدت ، وتريد أن تسمع صوتاً يفتح لها حديث الرحمة والحب والتعاطف
بعد أن تضع هذه الحرب أوزارها . ولكن عصابات السياسيين والسياسة
و «الرأسماليين» هم الذين سيشوِّشون عليها قصدها ، ويفوتون غرضها ،
إن لم تجلجل فى آذانهم دعوة جديدة للسلام وحياة الروح . وسكان
الشرق الأدنى والأوسط وهم مزيج مؤتلف مُتَسَاخٍ من أتباع الأديان
الثلاثة ، يستطيعون أن يكونوا رسلاً لهذه الدعوة لو تسامحوا وعلموا أنهم
ورثة الدعاة الأولين للحياة بالروح أولاً . . .

وهبوا أن هذه الفكرة لا تتحقق ولا يستمع لها ؛ أفليست من

من الأحلام الجميلة التي يَلدّ الحديث فيها ، ويجب التنويه والتذكير بها
كمثل أعلى تتمناه الإنسانية ؟

إن القلوب الكبيرة التي أطلّت على العالم بالرحمة والحب والعلم واليقين
كان سر عبقريتها وعظمتها أنها لم تعترف أبداً بالواقع السيئ في زمانها .
وأنها حين رأت الإنسانية في عصورها الأولى تقبل جميعاً على الوثنيات
وتعكف على الجهالات وسفك الدماء ، صاحت صيحاتها ، ونادت ضمير
البشرية الذي تكفل خالقه أن لا يموت أبداً وأن لا تنطفئ شعلته ،
وقاومت بجهدا حتى حولت مجرى التاريخ إلى تمجيد الحق والسلام والرحمة .
وقد أفلحت في ذلك كثيراً من الفلاح ، وعمّا قليل تفلح كل الفلاح ،
إذا حمل مشاعل دعوتها دائماً قوم مؤمنون بالإنسانية ، علمون بأسرار
وجودها وسمو الغاية من حياتها في هذه الأرض ، حريصون عليها ،
راصدون لتاريخها ، متفائلون في مستقبلها ، غافرون خطايا طفولتها وبقايا
جاهليتها ، عاذرون لحقها وطيشها في بعض الظروف ، ناظرون إليها نظرة
بارئها الحليم العليم الذي لا بد أن يكون له في أفاعيل حياتها وسفالاتها
الظاهرة حكمة خفية !

وعلى أي حال ، إذا لم تنفع هذه الدعوات فلن تضر . ولكن نفعها
محقق ، حتى ولو كان مجرد نشر روح التفاؤل ، لنستسيغ متاع الحياة ، وننتسلي
عن همومها ، أو مجرد المقابلة بين الشر وضده الخالد العظيم : الخير !

لايأس : « وبعد » إن كان الانسان تافه القيمة ، ووضعُه في الحياة
على حالته الفاسدة هذه ، هو من طبيعة نظام هذا العالم ، ولا يمكن تغيير

فساده ، بل يكون شره بهذه النسبة الحالية ضربة لازِب ، ولا يمكن تخفيفه ، فعندئذ يجوز لنا أن نشاءم ، وأن نُضمر الشر لنعيش في محيط الشر ، ونختبِط فيه خَبِطَ عَشَوَاءَ مع أهل الأرض جميعا حتى نفارق الحياة ... ولكنني أرى ، ويرى معي كل متأمل منصف ، أن الانسانية كأى حقل نباتى أو حيوانى خاضع للتحسين والتصفية والاستصلاح والتعهد والاخراج الصالح ، وخصوصا في هذه المرحلة الزمنية التى كشف فيها العلم عن وسائل التربية النفسية والجسمية وإبادة آفاتها بسرعة فائقة .

وليس الانسان جزءا من هذه الطبيعة المادية الجامدة التى لا يمكن تغييرها وتبديلها ، وانما هو جزء مَرِن خاضع للتبديل والتغيير باختلاف التربية والتعهد .

وفعلا قد تحقق فى التاريخ ذلك الذى نشده الآن : فبعض الدول الاسلامية الأولى قد عاشت فيما بينها كدولة ، وفيما بينها وبين غيرها من الدول على صور سامية من الاعتراف بالحقوق والتعاطف وترك الشرور إلى حدما ، فزضى الله عنها ورضيت هى عنه وعن الحياة . وبعض الأمم الأوربية الشمالية قبيل هذه الحرب ، قد عاشت فيما بينها كدولة على صورة سامية رحيمة كريمة ، ولكنها قد تعود إلى الأسلوب الوحشى المنحط مع غيرها من الأجناس والأقوام ، فليس لها ذلك الايمان العميق بالانسانية جميعها .

إذا لا يأس من الانسان ، ولا يأس من الحياة تبعاله وتأثران من جرائمه ، ومن نوازع الشر الحالية فيه ، مادام الدليل التاريخى قد أثبت له صورا عظيمة من السمو ، وما دمنا نستطيع أن نغير حياته المَرِنَة إلى

الصالح بتغيير أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية .

لقد قال العلم والدين إن الانسان خرج الى هذه الدنيا كاملا جميلا قويا « في أحسن تقويم » ثم تطرقت اليه عوامل العطب والعجز والمرض والفساد والتنازع ، لضيق فكره وعجز يده عن وسائل التغلب على محيطه حقبا من الدهر ، فأورثته الفساد والاختلال ، حتى وصل إلى زمنه هذا فاستطاع أن يعثر على مفاتيح راحته باهتدائه إلى سنن التكوين والتخريب ، وإخضاع الكثير منها لخدمته وانتفاعه . إذا لامرر لتشاؤمه وتنازعه وسخطه بعد أن رأى من كنوز رحمة ربه ما رأى ... وإنما الواجب أن يسعى إلى أفق الفجر بعد أن بزغ ، ولا يستدبره ويستقبل أفق الليل والظلام .

فاذا أمكن — وهو ممكن جدا — رَفَعَهُ من أسفلِ سافلين ، ورجَّعَهُ إلى نِصَابِهِ الأعلى الذي خلق عليه في أحسن تقويم ... يكون التواني والاهمال والتشاؤم في هذا السبيل قصورا معيبا وجريمة كبرى .

وانى أرى — واعلى وأهم ! — أن الانسانية الآن ينتفض جسمها العملاق ليعمل ويسترد مكانه في عِلِّيِّين ! وقد صار لأفرادها الآن من الحقوق التي تتصل بالعدالة ، ومن مزايا التمتع والراحة وثبات الأرض تحت أقدامها ، ومن أحاديث الحريات والكرامات في مؤتمراتها الدولية العامة والخاصة ، وصار لها من القدرة على تسخير كثير من قوى الطبيعة ، ومن المقام المرموق بين الكائنات . . ما يبعث في صدرها الثقة والايان بامتيازها وقداستها والأمل في مستقبلها والصبر على احتمال آلام حاضرها .

وقد وجب عليها الآن أن تعجّل أموراً ثلاثة : —

(١) إزالة الدعايات القومية الحادة والنّعرات الجنسية الضيقة التي توحى بالتمفرق والشّتات ، وتورث التعصب والتحيز الممقوت .

(٢) إيجاد لغة إضافية علمية مشتركة لتكون لغة « المواطن » العالمي ، ولتوحى إلى كل ناشئ بمعاني الانتساب إلى الإنسانية الواحدة بجانب انتسابه إلى قومه ، ولتسهل على الأفراد سبل التفاهم والتعارف بالثقافة العالمية التي لا بد أن تضمها أسفارها ونشراتها الدورية .

(٣) توزيع المواد الاقتصادية بدون جشع واغتصاب واحتكار وحب استثمار واستغلال للضعفاء .

وأريد أن أقول في ختام هذا التمهيد كلمة لسماسة المال ومحترفي السياسة شهوة الحكم وحب القهر ، لا للخدمة ولا للوصاية على الشعوب القاصرة ، هي كلمة الحق والإيقاظ للطور الجديد الذي تقبل عليه الإنسانية : أن يقوموا جماعاتٍ وفُرَادَى ، ثم يتفكروا في الوضع الحالي للإنسان ، وأن يُزِيحُوا عن أعينهم الغشاوات القديمة التي هي مرثٌ تطاحن الإنسان وتصادمه في ظلمات المطامع وشهوات الاقتناء والقهر والافتراس .

وليعلموا أنهم هم العقبة الوحيدة الآن في طريق الإنسانية إلى حياتها المنشودة ، وأنهم هم الذين يحولون أخوة البشرية وبركات العلم وثروات الأرض التي أودعها الله فيها بمقادير كبرى تكفي حاجات كل فرد وكل أمة ، إلى وقود يحترق به جامعوه والناس جميعاً .

إنهم هم الذين يقودون البشر في الحرب بالفولاذ والذهب ... وهم كذلك يستطيعون أن يشتركوا في أن يقودوهم بهما لحياة السلام ، إذا أراحوا عن أعينهم غشاوات القرون الأولى : قرون الوحشية وحب اللعب بالشعوب وجمع الحطام ومجد الشهرة على الجماجم والأشلاء .

إنهم يستطيعون أن يشتركوا في قيادة البشر وتجنيدهم جميعا للوصول إلى أملهم الأكبر : وهو كشف مجهولات الكون وتسخير قواه للنفع العام ، والعيشة في إخاء وأمن وسلام .

وأريد أن أقول كلمة أخرى إلى عشاق الحق والصلاح ، الذين يؤمنون بالروح الإلهي والسمو الانساني : وهي أن أشد ما يُخشى على العالم أن يعتزلوا ويُخلوا بين عملية بناء العالم بعد هذه الحرب و بين من لا يحسنون أن يقيموا حضارة تتوازن فيها العناصر وتتلاقى الروافد والتيارات الروحية والمادية بمقدار موزون !

فاذا وقعت معارك الحرب فليعلنوا هم « معركة السلام » !

وهم لا بد منصورون بتوفيق الله مكرم الانسان !

في موازين المحس والفكر والضمير

عُقْدَةُ الثَّمَرَةِ

من هذا الكتاب

صِيحَةُ الْمُعْتَقِدِ . معادلة رياضية . وصية إلى المتدينين

أُومِنُ بِالْإِنْسَانِ الَّذِي أَحْمَلُهُ فِي جَسَدِي ، وَأَسْتَوْحِيهِ فِي فِكْرِي ،
وَأُبَادِلُهُ مَا صَحَّحَ وَمَا فَسَدَ مِنْ شَأْنِي !

أُومِنُ بِهِ إِيمَانًا عَمِيقًا بِصِيرًا .. وَأُرْصُدُهُ رَصْدًا مُسْتَوْعِبًا يُطِيفُ بِهِ
فِي جَمِيعِ بَقَاعِهِ ، وَمُخْتَلَفِ أَوْضَاعِهِ ، وَأَسْتَوْحِي نَظْرَةَ اللَّهِ إِلَيْهِ وَرَحْمَتَهُ بِهِ
وَتَسْدِيدَهُ إِلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ إِلَى مُسْتَقْبَلِ مَجْهُولِ !

أُومِنُ بِهِ حَتَّى فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الَّتِي سَاءَ الظَّنُّ بِهِ فِيهَا ، وَقَبِحَ الرَّأْيُ
بِقِيمَتِهِ وَكُفْرًا كَثْرَهُ بِنَفْسِهِ ، وَسَخِطَ عَلَى حَيَاتِهِ ، وَبَدَتْ فِيهَا خِبَائِثُهُ
وَمَكَأَيْدِهِ وَقَسْوَتُهُ ، وَذَاقَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضِ الْبَأْسِ الشَّدِيدِ وَالشَّقَاءِ الْمُنْكَرِ !
وَحَطَمَتْ حَيَاتَهُ عَوَادِي فَنَاءٍ صَنَعَهَا هُوَ عَلَى أُسْلُوبِ الصَّوَاعِقِ وَالزَّلَازِلِ
وَالْبَرَائِكِينَ ، وَسَائِرِ غَضَبَاتِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي طَالَمَا جَارَ إِلَى اللَّهِ بِالْإِدْعَاءِ وَالْبِكَاةِ
أَنْ يَحْفَظَهُ مِنْهَا ، وَيَحْفَظَ الْأَرْضَ بِمَا حَمَلَتْ مِنْ مَوَارِيثِ صِنَاعَاتِهِ وَابْتِكَارَاتِهِ
وَأَمْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ وَعِيَالِهِ مِنْ سُوءِ عُقْبَائِهِ فِي التَّدْمِيرِ وَالْإِبَادَةِ .

أُومِنُ بِهِ لِأُومِنَ بِالسَّلَوْنِ وَرَبِّ الْكَوْنِ ! فَلَنْ يُؤْمِنَ الْفَرْدُ الْإِنْسَانِي
بِهِمَا إِنْ لَمْ يُؤْمِنَ بِنَوْعِهِ .. لِأَنَّ عَقْلَ النَّوْعِ هُوَ الْمَنْظَارُ الَّذِي نَدْرُكُهُمَا بِهِ ..

فان أهدرنا قيمة الانسان أهدرنا عقله .. فلا يبقى لنا ما ندرك به كوننا
وربنا !! ويعيش أكثرنا كما يعيشون الآن ، تضرب بهم مجهولات
الكون ومعلوماته كغرقى طافين على أكف الأمواج .. لا يعقلون شيئاً
ولا يؤمنون بالكون والنفس ولا بربهما ، وإنما يعيشون في ذهول وشك
وبلبلة ، ثم يمضون إلى ظلمات القبور .

وتلك قضية فكرية أشبه ما تكون «بمعادلة رياضية» .. وهى قضية
هذا الكتاب من الناحية الفلسفية النظرية ، ولها ما بعدها من قضاياها
الخلقية والعملية . وهى عندى القضية الفكرية الأولى فى الدين والعلم
والفلسفة .

وأوصى به «المتدينين» الناظرين إلى حاضره فى بأس وقنوط ، وإلى
مستقبله فى تشاؤم .. فما ينبغى للذين آمنوا بالمثل العليا ، وعرفوا أن
الانسانية مخلوقة لادراكها ، أن يزلزوا عنها ويأسوا منها إذا ما أصاب
الناس نكسة إلى جهالة قديمة وارتداد إلى أعراض السفه الأول ..
بل عليهم أن يرفعوا شعلة تلك المثل وسط احتدام الظلام والمظالم ، حتى
يمسك بخيوط نورها من يجتهد ألا تجرف روجه أمواج الظلمات !

ولو طاوعناه على مقتضى قساوته وشقاوته ، لأنكرنا كل مثل كريم
هبط من السماء أو صعد من الأرض .. ولأخذنا معه إلى عالم الجحيم
الذى فتح أبوابه على نفسه فى أعجب البقاع لديها : فى لندن وبرلين !

نظرة المفارق لنفسه ونوعه !

خارج الشبكة . في نصابه الأعلى . نور في وعاء من طين . محرر المعاني
والنفقات المسجونة . في عالم القوى العمياء والروح الواعي . تاريخه
مصباحه . قانون ينمو في كل اتجاه . عصب الأرض . أحياء الشرقة ؟ .
إيقاظه بالدين الطبيعي . والفن الرفيع

لكي ندرك المصحات التي تتراءى في أعماق « الانسانية » ، نحاول
أن نتحرر ونتجرد ونخرج من نفوسنا ونوعنا ، ونرصّد الانسان بعيون
المفارقين لنفوسهم ، الخارجين بالفكر عن حدود وجودهم ، الناظرين
لحياتهم نظرات الملاء الأعلى ممن هم فوق الانسان ، والملاء الأدنى مما
هُنَّ دُونَهُ .

إننا حينئذ نرى كثيراً مما خفي على الذين يلبثون سجناء رهناء في
الشبكة التي تَلْقُهُمْ مع سائر أفراد القطيع .

ولا بد لذلك أن نترك الجدليات القديمة حول الشك في قيمة الانسان ؛
فقد هَدَرَتْ شَقَاشِقُهَا حين كان عاجزاً عن شق الطريق أمام فكره ، وأن
نخرج من غبار التاريخ القديم ونفتح عيوننا على العالم كمخلوقين الآن ،
تفكيرهم ابن زمانهم هذا ، ومنطقهم من وقائع الحاضر ، وأن ننظر إلى
الانسان في نصابه الأعلى دائماً ولا ننظر اليه في حضيضه الأدنى ؛ فإن

من طبيعة كل كائن حيّ أرضيّ أن يكون له جذر في الطين والنفونات ،
أو أصل في الدم والقاذورات .

وإن النطفة التي خلق منها الانسان أخلاطاً وأمشاجاً أخذت من
العناصر الحادة والقوى العمياء ما يجعله منها على اضطراب وابتلاء .

وإن الفرد يحمل في مجارى طعامه وفي أحشائه أو ضاراً وأقذاراً
تشمئز منها نفس حاملها . . ومع ذلك هو يقنع من نفسه بتقدير الوجه
والرأس الذي يحمل الشخصية وقوى الفكر . . فينبغي ألا ننظر دائماً
إلى الذين هم فضلاتٌ قذرة في جسم الانسانية ونتخذ منهم « مقطع »
النظر اليها جميعاً ، فيحملنا ذلك على التشاؤم والسخط والشك في الخير
والجمال الذي فيها . هم كالثمار الفجة المعطوبة ، عطبت وتلوثت وسقطت
لضعف روابطها بفروع الشجرة التي تسمو .

إننا نحمل أقباساً مطهرة من عالم الحق والجمال والطهر ، ولكنها
وضعت في أجسامنا : تلك الأوعية الطينية السريعة التعفن . . فمن الناس
من يدوم على تطهير وعائه وصقله حتى يستحيل إلى زجاجة شفيفة
رائحة تساعد ذلك القبس على السطوع والاشراق .

ومنهم من يتركه كما هو من غير تطهير وصقل بالعلم والتهذيب فيظل
مُعْتَمِلاً ويحول بين ذلك القبس وبين السطوع الكامل .
ومنهم من يضيف إلى ذلك الوعاء ما يزيد عتمة وكثافة تطفئ
على ذلك القبس وتمحق شعاعه وتجعله منبع ظلام .

فلأجل النور ! ينبغي أن ننبه كل مصباح إلى رسالته ، ونحوّل بين
الظلام وبين زجاجته !

ولا تحملنا حياة الظلام الراهن على أن نتشائم ونسخط ونحطم ما بقي
لنا من مصابيح ، فنعيش في عمياء نهارها كليها .

ولو أنكرونا مكانة الانسان وجحدنا قيمته ، لم يبق لنا شيء في
الأرض نلوذُ به ونأنس اليه من وحشة الصمت المطلق والسكون المطبق ،
والبكم والصمم والعمى التي تغمر غيره من كائنات لم تدع في الحياة حديثا
مفهوما عن غايات الحياة .

وانني ما أبصرت شيئا غيره تعمق معه الحياة وتتسع وتتركب ويتنوع
الاحساس بها . ولولاه لكنت صندوقا أبكم فارغا إلا من معاني غرائز
معطلة ، وتجارب شهوات قليلا ما تتحرك . . ولاضطربت بي مجهولات
السكون كغريق يطفو على أكف الأمواج .

إن كل شيء في الطبيعة صامت جامد لا يعطى جوابا عن غايات الحياة
إلا هذا النوع .

فمن قلوبه وعقوله تنبثق المعاني المكتومة المسجونة في أطواء
المواد والقوى .

وفي بيانه أصوات ربطت الكون كله ، ولأءمت بين نسيبه
المتلفة ، ولخصته واختزلته ووضعته أمام الفكر ملهوما . .

وفيه نعمة مفهومة رقيقة وسط صخب الأمواج التي لا عدد لها في

البحار ، والهَبَوَات التي لا عدد لها في الأجواء ..
إنه مشبُوب الحاجة دائمُها ، واسع الآمال والخيال في تشكيل المواد
وتنويرها وتصريفها وتسخيرها والاحتفاء بكل سر فيها .

لقد استمرت الأرض من قبله جامدة لا يتغير فيها شيء إلا الدورات
الأبدية المكررة ، وبدا من الطبيعة أن كل شيء فيها كان ينتظر وجود
هذا النوع ليقول لفكره ويده : هأنذا كما !

وما زالت المرآة التي فيه وهي عقلة تنطبع فيها صور الكائنات واحداً
وراء آخر ، وهو يحوّلها وينقلها من عالم الجماد والصمت إلى عالم الأسماء
والبيان والصور والتعبير .

وما زال يدور حول ظواهر المادة وصورها وأشكالها ، ويحللها وينبشُ
فيها ويسبُر أغوارها ، حتى وصل إلى عالم الكهارب والأثير . وهو الآن
يُجرى اختباراته وتحليلاته على هذه الأصول الأولى للمادة ليكتشفها أو يرققها ،
ويتحكم في إخراج أنواعها ، بعد أن وصلت يده إلى مفاتيح توجيهها .

إنه تعمق في عالم الأجسام والقوى حتى وصل إلى مصادر الحياة
الآلية ومادة الوجود الأولية ، وتعمق في عالم المعاني والأفكار حتى وصل
إلى الخفقات الروحية العليا ، والرياضيات العليا التي قام عليها تخطيط
الطبيعة وهندستها .

وإنه ليُرَكَّب ما في الكون من المعاني كما يركب ما فيه من مواد ،
فيقيم الكتب العامرة ، والمقالات الحكيمة والصلوات المطهرة ، والألحان

الساحرة ، كما يقيم القصر الكامل الجميل ، والصرح المشيد ، والقاطرة
والطائرة والباخرة .

وإنه ليسافر بفكره في الآفاق العليا كما يسافر بصوته وصورته
في صندوق الراديو . . .

وهكذا هو يتوجه في عالم المادة والقوى العمياء ، كما يتوجه في عالم
الروح الواعي والفكر المميز المبصر الحاكم !

وهكذا هو رباط بين العالم الساكن الخفي ، وبين العالم المتحرك المرئي .

نارخه مصباحه : ولنتعرض تاريخ الانسان على هذه الأرض ،
لندرك مدى مركزه فيها ، ولنعطيه من تاريخه مصباحاً يرى به نفسه :
إن الله أسلمه الأرض ، وليس فيها شيء معقد التركيب غير الأجسام
العضوية الحية ، وهي أجسامه وأجسام الحيوان والنبات . أما الجوامد
فأسلمها اليه بسيطة في صورها الأولى وخاماتها البكر ، فما زال يدور حولها
ويعبت فيها وينبش ويخرج أسرارها واحداً بعد آخر ، حتى حدثته أخبارها
وأخرجت له أنقالها ، ووضعت بين يديه أجنحتها وعيالها . . . واستفاد من تجاربه
فيها عقله وحكمته — والعقل هو حفظ التجارب والحكم بمقتضاها —
وعلمه ووثائق سيرته ومدونات فكره .

وكما أنماها وعقد نموها ، أنمت هي فكره وعقدته — والتجارب
بين المادة والفكر قانون — حتى ملأ الأرض بما ولده منها ، وأخرجها
من كوامنها ، وركبه من بسائطها .

وشاء الله أن تكون قوة الفكر في الانسان تسكاد تكون لاحد لها ،
فصارت تخاريجُ المادة وفُرُوقها وتمايزُها لاحد لها .

وتارة يكون كشفه عن أسرارها بطريق الصدفة ، فيلقط ويدون
كما هو واضح من نمو علم الكيمياء ؛ فان كل أمورها تجريبية لا دخل
للفروض والظنون والتجريدات فيها . . . وتارة يكون الفكر سابقا قادراً
على الفروض وقياس النسب الغائبة على الحاضرة .

أى تارة تكون الطبيعة سابقة في الوحي اليه وزيادة علمه وفكره ،
وتارة يكون هو سابقا في الوحي اليها وزيادة أشكال موجوداتها ومشاهداتها .
وإني لأستعرض أعماله في الطبيعة منذ أن كان هائماً لا سقف له ،
يصنع من ورق الشجر ستاراً لسوائه ، ويتخذ من الحجر خنجراً لسطوته ،
الى أن صنع لباسه الأوربي المعقد المنوع المزين للون ، وصنع بيته من
ناطحات السحاب ، وآلات سطوته من الطور بيد و « سلة مولوتوف »
والقنابل الطائرة ودبابات « تشرشل » ، ومراكبه من الحصون الطائرة ،
واستوعب جميع أجزاء الآلات المعقدة في رأسه قبل تركيبها بمساميرها
وحذافيرها . . . وصنع له مجاهر ومقربات يقرب بها مشاهد السموات
والشدم ، ويحمل عناصرها ، ويكبر بها مناظر الجراثيم ، ويقيس بها
الخلايا ، ويحكم بها على كل أولئك حكماً صحيحاً خاضعاً لمقاييس الحس
والفكر . . . أستعرض أعماله هذه ، فأراه بعد ذلك رُوحاً نامياً في ذاته ،
ومُنمياً للطبيعة وصورها وأشكالها كذلك . . .

وجميع قوانين الطبيعة قوانين متحجرة صارمة إلا هذا الانسان ، فانه

«قانون» مَرِنٌ يذهب في كل اتجاه . أليس فيه نفخة من روح الله ليست في سواه؟! والله خالق هذه القوانين وواقعها؛ فلا عجب أن تدفعه هذه النفخة الى كل جهة في مجاهل الكون دائماً .

ان الأطفال يقلدون الكبار بغريزة التقليد والمحاكاة التي فيهم للاستعداد لمستقبل الفرد، والكبار يقلدون صنع الله للاستعداد لمستقبل الانسانية كلها . وجميع آلاتهم التي ركبوها ، وجدوا نماذجها أمامهم مما خلق الله . فحسب الحيوان هو نموذج الآلات الدقيقة السريعة التي ابتدأ بها الانسان يتسلط على المسكان والزمان والمسافات والأبعاد . وجميع أعمالهم في الكهروباء والقوى الخفية إنما وجدوا نماذجها من المجموعات العصبية في الحيوان والنبات ، فأرسلوا الاشارات والصور والأصوات إلى عيون وآذان صناعية عبر المحيطات والصحارى والقارات والجبال الشاهقات ، كما يرسل الجسم الواحد خواطره وصوادره إلى كل خلية في أعضائه .

وعلى ذلك صارت الأرض كجسم ينبض ويتربط ، وإنسانها فيها كالمرآة كز العصبية في الجسم الحي : تُصدرُ وتتلقي الجواب .

حياة الشرنقة : ولكن هل يجوز أن يقف الانسان في ضجة ما صنع من الآلات والمفرقات ضائعاً مغموراً غائباً فيها كما تغيب دودة القز في الشرنقة التي تنسجها؟

إنه يرسل في الطبيعة لمحات فكره ومضات خواطره ، وصار الأثير

والهواء والماء والتراب مليئاً بهمساته ، وأزيز محرّ كاته ، وضربات معاوله
إلى أعماق المناجم والرّ كاز .

وهذا حسن لو أنه لا ينسى نفسه وسط الضجة والقوة والجبروت
الآلى ، والحديد البليد القاسى ، حتى يختنق ما فيه من وداعة الروح
وتأمل الفكر ، والاحساس بالانفصال عما صنعته يداه .

أجل ، يجب ألا يكون الانسان قوة عمياء تعمل فى المادة بدون شعور
وإحساس روحى فيما تعمل ولذة به ؛ وإلا استحال إلى قوة متنقلة فى عمليات
التكوين والتركيب أو التخريب بدون وعى ، وفى ذهول وغفلات تشبه
همى القوى العمياء ..

إن طاعة الحديد البليد القاسى للفكر الطليق البارد ، تركت فى أعصاب
الأم الصناعية آثاراً عميقة ستطمّر لا محالة ، إن لم تقاوم بقوى روحية ،
جوانب من عواطف الرحمة والمروءة فى قلوب أفرادها ، وتمحو آثار
العصور الروحية التى أدرك الانسان نفسه فيها حين كانت النبوات
تتلاحق عليه .

وإنى لأتخيل الآن ماجرى فى ساحات « الفلاندر » أو « أوكرانيا »
أو « صحراء ليبيا » ، فأرى الانسان وهو يدفع الحديد الجبار فيندفع ،
ويطلق البارود الصاعق فينطلق ، والقنابل الصارخة فتصيح فى نكر
وشدة ، ويملاً الجو بالدخان الأسود والنار الحمراء فيمتلىء ، ويسيل النار
من « باصقات » النار فتسيل على الأجسام البيضاء الجميلة ، ذات العيون
الزرقاء ، والشعور الذهبية ، والجماجيم المستوية ، وتذيبها كالشمع ، وتسحقها

كالرقات ، وتذروها كالرماد .. ويرفع القلاع الطائرة إلى أجواز الفضاء
فترتفع .. أتخيله وسط هذا كله ، لا يسمع صوت نفسه إذا تحدث ، ولا يعي
خروج نفسه إذا تنفس ، ولا يحس ألمه إذا تألم ، ولا صعق جسمه إذا
تحطم ؛ فهو في جنون الحرب يضرب الأجسام الحية النامية من شجر
أو ضرع أو زرع أو حيوان أو إنسان ، ويخرب العامر ، ويهدم القائم ...
فأقول : لقد تحول إلى قوى عمياء ، وصار عاتياً كالريح ... جارفاً
كالتيار ... أعمى كالصاعقة ... قاسياً كالحديد ... صابراً كالنولاذ ...
فظيماً كالنار !!

ولست أدري متى يُفبق لنفسه ، ويُعنى بوضعه وتحوُّلات حياته ،
كما يُعنى بمستقبل المواد والقوى ؟ ويربط ما بينه وبين الله مُقيض
الفكر والحياة ، كما يربط ما بين نفسه وأجزاء الأرض ؟ !

إن الآلة لا تدركه وهو يعمل فيها ويقوم عليها ، وهي لا ترحمه من
السحق أو البتر أو الصعق إذا تعرض لها جاهلاً بقوانين سيرها ، فلا قلب
فيها ولا فكر ، ولا حياة دم وعصب وروح . ولكن ما باله هو لا يفكر في
الاتصال بمن أنشأه وركبه ونسقه وصوّره ، وهو ذو الفكر والروح
والوجدان والنزوع والإرادة والاختيار والتطلع والحزر والحذر والقدرة
على قياس ما غاب بما حضر ؟ !

إن الاستسلام لغيوبة الحياة الآلية ضياع وتطبيع بطبع الحديد البليد
الأعمى الدائر في غير وعى وإحساس . وأخوف ما يُخاف على الإنسان
أن يُترك هكذا فريسة وضحية للآلات والماديات يعيش معها وحدها ، ويقدم

لها وَقُودها إلى أن يفنى وقود حياته هو وينطق بمصباحه ، ويذهب إلى
ظلمة القبور بدون بصيرة روحية منيرة ، يسعى نورها بين يديه في العالم
الباقى غير المنظور .

وعلى هذا ينبغي أن تَنشَط في الناس دعوات إلى الإحساس بالذنب ،
واليقظة الدائمة لها ، وتزكيتها ، والرفع من قيمتها . وهذا لا يكون إلا بالدين
والفن الرفيع : الدين العقلى الطبيعى المبني على إسلام النفس لله البارئ
واللطبيعة الأستاذة ! والفن الرفيع الذى يخلق جواً يحضر للقلب بعض
المعاني الغائبة التى تُرى الانسان وَضَعَهُ للممتاز الفريد الطليق ، وسط
ما فى الكون من المواد والقوى والمخلوقات السجينة !
تلك المعاني التى تتراءى وراء بيان ذوى البيان النظيف ، وألحان
ذوى الأصدااء البعيدة ، وعميون ذوى الصفاء والادراك !

استعراض وتفصيل

أسئلة في حدود البداهة — مجهر وريشة ولزيميل وترجمان — أسرار
ورموز في قصة خلقه — نظرة الله العليم الغفور — سجود الملائكة لآدم
ولإبلاء إبليس — الشر للخير — منطقة الشهوات

مما يثير اهتمامي كثيرا في بحوث الفلسفة والعلم ، شك بعض المفكرين
في القيمة السامية التي للانسان ، ومحاوله تصوير حياته كحياة النبات
والحيوان والحشرات : ليست أكثر من ظواهر طبيعية ودورات أبدية
تأتى بها أيام وتذهب أيام إلى الفناء المطلق .

ومعرفة الوضع الحقيقي للانسان في الكون هي ، كما بينت سابقا ،
أولى القضايا الدينية والفلسفية .

فالذى يذهل ولا يسترعى انتباهه ، ويثير اهتمامه هذا الكائن المتحرك
« المحسوس » الناطق المفكر ذو الارادة والاختيار ، لا يمكن أن يتنبه
للصمت المطلق والاطراد المطلق في الطبيعة .. ودع ما وراء الطبيعة من العالم
الخفي الذى لا يناله الانسان بالحواس والأفكار .

واسأل نفسك : هل رأيت نوعا آخر متسلطاً على الأرض يغير
أوضاعها ، ويتصرف في موادها ، ويسخر قواها وينقح الطبيعة : يزيد
فيها وينقص منها ، متنوع المرافق ، متجدد الأفكار ، له حياة فكرية
وقلبية تكاد تكون لا حدود لمظاهرها ؟

وهل رأيت غير الإنسان اخترع شيئاً يزيد على ضرورات حفظ حياته ؟ هل رأيت يكتب تاريخه أو يتطلع لمستقبله ، أو يركب آلات معقدة ، أو يغني أغاني مُفَنِّنة ، أو يستخرج أصواتا موسيقية من الجلد والخشب والمعادن ، أو يقيم أهراماً وعمارات ذات أرسداد واوضاع محبوبه وفنون بارعة ؟

وهل رأيت نوعاً آخر اخترع طيارة وسيارة وتلغراف وتليفون وتلفزيون وغيرها وغيرها مما يصيده الاصوات ويقتنص الأضواء والمسافات ؟ ثم هل رأيت نوعاً آخر يسكر « ويحشش » ويدخن « ويشم » ويقامر ويقيم مهازل ومساخر بدكاء ومهارة ؟ هل رأيت غيره يزارع ويتاجر ويضارب بعمليات اقتصادية معقدة غاية التعقيد !

هل رأيت غيره يحارب بالآلات كلها إبداع وبراعة تكاد تجعلها عند المتطلعين لما يولد في الكون من عجائب والمتوسمين لما في حياة الإنسان من بدع ، فرجة من فُرَج القلوب تُعلَى شأن الحروب ؟ ! تخيل جميع الأساطيل الجوية والبحرية وجميع الجيوش البرية انطلقت في الجو والبحر والبر ، يعبئها ويرجيها وينسقها الإنسان ذو الجمجمة العجيبة ، تملأ الأثير بلمعات فكره وومضات خواطره . . لتعلم أيُّ فن إلهي هذا الإنسان المخلوق من ماء مهبين !

تخيل مدينة عظيمة كنيويورك أو لندن أو برلين أو القاهرة بما فيها من فنون الحياة والأفكار والشعور ، وما يغمرها من الأضواء والألوان ،

(٣)

وما يضطرب في أحشائها من المصانع والمعاهد والمعابد ، وما يثوي فيها من دور الكتب والآثار ، ومخازن التحف وأدوات الجمال ، وما تسيل به شوارعها من وسائل الانتقال ، وما تَضِجُ به من الأصوات والمقالات والخطب والأسمار والأحاديث ، وما يتوزع فيها من الأعمال والأموال والحرف ... تخيل هذا ثم قل : هل رأيت في الحياة منذ دخولك إليها نوعاً غير الإنسان يقيم أسواقاً للحياة مثل هذه الأسواق ؟ ثم هل رأيت نوعاً آخر يعلو بالحياة حتى يأتي في علوه بالعجب العجائب ... ويسفل بها حتى يأتي في السفالة بالعجب العجائب ؟ ... وهل رأيت نوعاً آخر يفتن في وسائل متاعه هذا الافتنان الذي تراه في السينما والمسرح ومخازن الملابس والفرش وأدوات الزينة ؟ .

هل رأيت ... وهل رأيت ؟

وأخيراً هل رأيت نوعاً آخر يترقى في سلم الحياة باطراد وخطى ثابتة ، وقياس متناسب ، بعد أن أتى عليه « حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » كما قال القرآن ؟

فكيف بعد هذا تسوى بين قيمة الإنسان أبي العجائب ، وبين قيم النبات والحيوان ، وتسلكه في سلك الفناء المطلق الذي يأتي على أجسامها وأرواحها بدون مآل أسمى ومصيراً كمل ؟ !

وكيف تضرب عليه ماضر بته عليها من الأحكام المنحطة ، وتحشر أفرادها في مليارات أفراد الحيوان والحشرات التي تعيش على العشب والجيف والروث والعفونات ؟ !

إني لأستعرض تنوع حياة الأمم والأفراد ، وأتصفح الوجوه والنفوس
وأسمع حديث الأطفال والعجائز ، والنسك والفتاك ، والفقراء والأغنياء ،
والعلماء والجهلاء ، والذكور والإناث . . . فأجدني بعد هذا الاستعراض
في دوام من الفكر !

وإني لأخرج بعد هذا الاستعراض وأنا أشعر أنه كان لابد أيضاً
في الأرض مما نسميه الشر والضلال ليدوم ظهور أسرار التكوين !

إن شئت فقل إن الإنسان أشبه بمجهر تمر من خلاله الطبيعة
الأرضية بخصائصها التي كانت « غيباً » مستوراً قبل ظهور هذا النوع ،
فتساقط على عينيه أنوارها وظلماتها ، وعلى سمعه نغماتها وأصواتها ، وعلى
خياشيمه عطورها ونفحاتها ، وعلى ملامسه نعوماتها وخشوناتها ، ويقع
على إحساسه العام ثقل المادة ، وصعق الكهرباء ، وشدة الجاذبية ، وتمر
على فكره معاني الوجود ومعاني العدم . . . ثم يترجم كل هذه الكلمات
الصامتة بكلمات ناطقة من بيانه الذي اختصه به باري الطبيعة . . . فكل
شيء في الطبيعة الأرضية كان لابد أن يمر من حواس هذا النوع وفكره
ليأخذ حدوده ومميزاته ويرمز إليه بكلمة بيانية يضعها خليفة الله في الأرض .
وإذا صح ما أثبتته تحليل ضوء العناصر ، من أن العناصر التي في
النجوم والكواكب هي بعينها العناصر التي في الأرض ، كان في هذا
زيادة في النظر لقيمة الإنسان كترجم ومحدد لعناصر الطبيعة في غير
الأرض أيضاً .

وإن شئت فقل إن الإنسان آلة في يد الخالق يتم بها التنوع والتفريع والتركيب في خلق المادة الميَّمة الجامدة وتصويرها وصقلها وتزويقها وتوشيعها، حتى تصل إلى الدقة المتناهية في تركيب تروس الآلات ومساميرها الصغيرة، وإلى الزركشة والنعمة في الثياب والأثاث. وعندئذ يكون الإنسان امتداداً لعوامل التكوين والإنشاء والتعمير التي في يد الله .. يكون إزميلاً في يد المبدع الأعظم، وريشة بين أصبعيه، يشكل بهما المادة أشكالاً ويملؤها بهما تراويق وتهاويل!

ولذلك كان العلم بأسرار الطبيعة أشرف عبادات هذا النوع، مادام متوجهاً فيه إلى رب الحياة ومتعرفاً إليه به .

واقراً قصة خلق الإنسان كما وردت في القرآن الكريم لترى منها العجب الذي رأيناه :

« وإذ قال رَبُّكَ للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبءون وما كنتم تكتمون . . . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس . . . »

وأرجو أن تقف طويلا أمام قوله تعالى « إني أعلم ما لا تعلمون » ردا على سؤال الملائكة « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ... » لتعلم أن الله تعالى نظر نظرة سماح واعتذار لما تستلزمه حياة الإنسان في مجموعته بالجسم الحيواني من الشرور والآثام ؛ إذ قد علم ما وراء فتوح الإنسان في « غيب السموات والأرض » من آثار علمية وعملية ترجح على ما يرتكبه من شرور وفساد وسفك دماء . .

كما أرجو أن تقف وقفة أطول أمام عجز الملائكة عن علم ما علمه الله آدم ، وما اختصه به من ترجمة كلماته في الطبيعة الصامتة ، ومن نبش في « غيب » السموات والأرض ، واستخراج لأسرار ذلك الغيب .

ثم قف وقفة أطول أمام أمر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم . . وسجودهم له وإباء إبليس . . لتفهم تلك الرمزية العجيبة التي ترمز إلى تشريف الله لهذا الجنس الذي تحمله في جسده وتستوحيه في فكره ، وإلى طاعة جميع قوى الطبيعة الأرضية المبصرة والعمياء له ، إذا ما احتفظ في نفسه بأقباس الطهر والعلم كما وضعها الله فيه — إلا قوة الشر التي يمثلها إبليس ، فإنها أبت أن تشترك في تشريفه ، وأن تطيع الله في الاعتراف بخصوصياته من علم بالأسماء التي في غيب السموات والأرض .

وإنك لتعجب حين ترى مصداق هذه القصة بحذافيرها وجزئياتها فيما وصل إليه الإنسان في هذه العصور الأخيرة : من عبثه المتوالي على كثير من مفاتيح الطبيعة ، وفتح أبوابها بابا فبابا ، ومن خلع الأسماء على كل شيء ، وإبرازه إلى عالم الفكر في قالب من البيان ، بعد أن مضت عليه

دهور وهو غائب مبهم ، وتسخير كثير من قواها لخدمته وطاعته ، ومن
لبس روحه الحية للمواد الميتة الجامدة ، وجعلها تحيا حياة آية بعقله ،
وتخطو بسرعة فكره !

وإنك ليميل العجب منك مبلغه ، حين ترى أن « قوة الشر »
لاتزال هي الوحيدة الفريدة التي لم تشترك في تشريف حياته ، والاعتراف
بعلمه ، والدخول في طاعته . . بل على العكس تحاول دائماً تحويل حسناته
إلى سيئات ، وعلومه إلى جهالات ، إذ هي بالغة الفطنة ، شديدة الفتنة ،
ضارية اللعنة !

ولكن الله وملائكته وسائر قوى الخير في الطبيعة مع الإنسان !
ولذلك كتب له النصر في كفاحه ضد كثير من جنود الشر ، وأصبحت
كلمات الحق والإيمان والعدالة والعلم والمساواة ، مزامير صلوات لأئمه وأفراده ،
وقد انكشف له وجه الأرض وجسم الانسانية جميعها ، وابتدأ يعرف مكانه
ووضعه في الطبيعة ويراها رأى العين .

وقد رصد الله له رحمته الواسعة ، وحلمه العظيم ، وغفرانه السمح ، منذ
أن قال للملائكة : « إني أعلم ما لا تعلمون » حتى يبلغ الغاية التي قدرها له .
« والله غالب على أمره » « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي » !

فلا يهولنك ما تراه من الجريمة والفساد والأوباء والنكبات التي
تحتاج حياة الإنسان ... فإن الذي خلق هذا النوع متيقظ له ، دائم الرعاية
عليه ، يسوقه في طريق مرسوم حتى يبلغ غايته ، برغم كل مانسميه الشر
والفساد والباطل الذي ما خلق إلا للحق والصالح ...

فلولا الأمراض ، ما ظهرت علوم الطب التي كشفت لنا عن ملايين من
عوالم الجراثيم ، وكانت حياتها مستورة في « غيب السموات والأرض » ،
ولولا الحروب ما تقدمت أدوات الانتقال السريع واختزال المسافات ،
وما تنافس الناس على استخراج مافي المناجم من الرّكاز ، وكان كل ذلك
« غيباً » محجوباً في الأرض . . .

ولولا الخرائز السفلى كالطمع والجشع والأنانية ، مارأيت في الأرض
هذه الحياة العنيفة الحركات في التعمير والاقتناء والتسابق على كشف
بقاع الأرض المجهولة وإظهار غيوبها ، وإقامة معالم الحياة العلمية
المتحضرة فيها .

ولولا البأس الشديد في الحديد والنفار ، ماتكونت الامبراطوريات
الواسعة التي ربطت بين كثير من أم الأرض برباط التفاهم والحب والخدمة
المشتركة ، وما ابتدأت البشرية الآن تفكر في جامعة عامة لجميع الشعوب
والأمم ، تجمعها على أسس العدالة والسلامة الإجماعية ، وخدمة العلم خدمة
مشتركة ، وتقيها من شرور التدمير والتخريب وما تنتجه الحروب .

ونظرة إلى تاريخ البشرية ترىنا التقدم المطرد في سبيل التجميع
والتوحيد . فقد كان الإنسان فرداً ثم صار أسرة ثم صار قبيلة ثم صار
أمة ثم صار أمبراطورية وولايات متحدة ، ثم بدأ يصير « جامعة أمم »
ولا بد من ذلك في يوم ما ، قريباً كان أم بعيداً .

فالشر هو الذي يدفع دائماً إلى تقوية الروح بالجهاد للخير . فإن
الأرواح لا تقوى إلا بالمجاهدة ، كما أن الأجسام لا تقوى عضلاتها إلا
بالمقاومة .

وان قيادة الانسان إلى الله رب الطبيعة قد صارت الآن من أسهل
الأمور لأن العلم قد ألقى كثيراً من أشعته على مواقع يد الله في الطبيعة ،
وعلى كثير من الأبواب التي توصل إليه ...

ولكن كثيرين جداً من الذين يحترفون قيادة الأرواح أغبياء
محدودون عميان .. فكيف يقودون في طريق مملوءة بكثير من جثث
الخرافات والأباطيل التي لصقت بالدين في زمن الجهل والظلام ، والتي
صرعها العلم الواضح والعقل الطلق المستنير ؟ !

وأريد أن أخص « منطقة الشهوات » في النفس البشرية بالتفاتة :
قالت الملائكة وهم الأبرار الطائعون المخلصون حياتهم لله والخير :
« أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس
لك ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون » وكذلك كل ما نراه من الفلسفات
والخطرات المبنية على سوء فعل الإنسان ، وسوء الظن به ، والسخط
عليه ، إنما هو ناشيء من طبيعة السموم في نفوس لا ترى الحياة إلا في مثلها
الأعلى الذي رضيته لذاتها هي ..

وما ضر منطقة « العقيدة » ومنطقة « العبادة » ومنطقة « العلم »
ومنطقة « المعاملة » في الدين إلا الخلط والمزج بينها وبين منطقة « الشهوات »
وفي اليوم الذي يفهم فيه الحل والفصل المعقول بين هذه المناطق ،
يمكن أن نرد إلى حظيرة الدين ، عدداً كبيراً من الأبقين الهاربين الجاهلين
باختلاف مناطقه واتساع آفاقه ومناحيه ...

ويريد بعض المحدودين ، أن يجعلوا تدبير الله كتدبيرهم ، وقياسه على قياس تفكيرهم المحدود .. ولو كان كذلك لخسف بالظالمين الأرض ونكل بالأشرار تنكيلا بدون حلم وإمهال .

ولكنه تعالى واسع العلم والحلم ، غفار ستار ، سَمَّح مطلع على القلوب ، ذو وزن دقيق للأعصاب والورانات . وهو لا شك ينظر للفساد الظاهر في حياة الانسانية نظرة وزن لما تورثه أمشاج النطفة الآخذة من القوى الحيوانية ، والعناصر العمياء الحادة .

اننا — نحن القاصرين — نغتفر للطفولة عيبتها وحمقها وطيشها وجرائمها ولو كانت القتل ، لأنها لاتدرك .. فكيف نريد أن نجعل حلم الله وتقديره للظروف أقل من تقديرنا !

إن الأمر في ذلك يحتاج إلى التنويه والتنبيه إلى أن الانسان كان إلى عهد قريب في دور الشباب ، وأن ذلك كان علة صبر الله وحلمه عليه في سبيل وصوله إلى دور الرشد والعقل ، وإن من العدالة أن نرحم الطفولة المجرمة .. كما أن من العدالة أيضا القصاص الشديد من الرجولة المجرمة العابثة بمحدود الحياة وحرمانها . وهذا ما كان في هذه الحرب ؛ فقد أثبتت للناس أنهم وصلوا إلى درجة من النضج ، لاتحتمل العبث بجرمات الحق والعدالة ، وأن حربهم وجرائمها صارت كحرب « الآلهة » لا كخصام الأطفال .. فليحذروا من الآن ، ولينتبهوا إلى نفوسهم وما صار لها من قدرة خطيرة ! وإلى أن الله حينما أباحهم أخيراً بعض أسرار علمه في

التكوين والتخريب ، إنما أرادهم أن يستخدموه فيما يوحى به رشد الرجولة
العاقلة ، لاحق الطفولة الطائشة !
والحق أن ما يتلاقى في مجموع الانسان عالم عجيب متناقض ! فهو
بين تلك القوى المللكية البارة العاقلة الخيرة . . وبين تلك القوى العمياء
الشيطنية الطائشة . فلا عجب أن يكون بينهما على اضطراب شديد وابتلاء
عنيف ، يستحق من أجلهما نظرة حليلة راثية رحيمة توحى بالتفكير
الدائم في وسائل إنقاذه من طغيان قوى الشر والجريمة والشهوة الخسيسة .

فوق الموازنة

تأكيد إنكار — نظرية النشوء والترقي — سعى الانسان للخلود بالجسم
والفكر والصورة والصوت والحركة والروح — اهتمام الانسانية بنفسها
وتيقظها لسير تاريخها — الانقلاب الاسلامي — انقلاب القرن السابع
عشر — مزاعم عامية

نعود فنؤكد إنكار أن يسوى بين حياة أى نوع من الحيوان
والنبات ، وحياة الانسان أبى العجائب . . . الانسان الذى يفكر فيها
ويدرسها ويصورها ويكتب عنها ويتصرف فيها ويتغلب عليها ، وهى
لا تفعل شيئاً من ذلك .. الانسان الذى يولد وهو أقل منها قدرة على
التغذى والدفاع عن نفسه ، ثم ينمو ويترقى إلى ما لانهاية له فى الفكر
والعلم بما يزيد عن ضرورات حياته ، بينما هى تقف فى نموها وإدراكها
عند حدود حفظ حياتها . . .

الإنسان الذى خلقت هى له ، بدليل تسخيره إياها فى خدمته ، ولم
يخلق هو لها ، بدليل أنها لم تتغلب عليه وتسخره وتتصرف فيه .

الإنسان الذى خطا فى ستة آلاف سنة — هى عمر التاريخ الذى
نعرفه — خطوات واسعة ثابتة متلاحقة ، فتغيرت حياته من العرى
والبساطة فى المسكن والملبس والمدرسة والحرفة والعبادة تغيراً عجيباً ، يكاد
يجن منه آباؤنا الأولون لو بعثوا ورأوا ما وصلنا إليه . . . بينما الحيوانات

والحشرات واقفة كما هي منذ عهد أجدادنا الأولين بها .
وهنا الدليل القاطع على وجود روح سامٍ من الله في الإنسان ، يدفعه
إلى الأمام دائماً في هذا العالم ، حتى يكشف عن كل سر في الطبيعة
ويتصرف فيه ، ويدفعه إلى إدراك السكّال التام الذي ينتظره في عالم آخر
فإن لم نعتزف بقيمة سامية للإنسان خارجة عن نطاق حياته
الحيوانية ، فسوف تختلط أمام الفكر المثلُّ ، وتلتوى السبيل ، ونضل
ضلالاً بعيداً يؤثر في خدمتنا للعلوم والآداب الرفيعة والعمران تأثيراً رديئاً
وإن سوء الفهم لنظرية النشوء والترقي من أكثر الذين درسوها
دراسة سطحية ، هي التي لوّنت نظرة الكثيرين إلى قيمة الإنسان بهذه
الألوان المزُرية التي تبعث على تحقيره وإسقاطه من العرش الذي أجلسه
عليه الدين منذ أقدم العصور .

فبناء على تلك النظرة المبينة على سوء فهم للنظرية ، ذهب عن
الإنسان قداسته ، واختلت مقاييس الأخلاق وموازينها ، وكان في هذا
أكبر دافع في العصر الحديث إلى التحاكم إلى قوانين الأدغال التي لا يجد
فيها إلا للقوة العمياء والشهوات والسيطرة الوحشية التي لا تؤمن بخدمة
الفكر والعلم ولذة الحياة في مثل أعلى .

وعلى فرض ثبوت نظرية النشوء — وهي الآن لاتزال فرضاً نظرياً
يحتاج إلى حلقات مفقودة ليصير حقيقة علمية — لا يجوز لنا أن نخلط
بين الحياة الآلية التي هي « مضروب مشترك » في أجسام جميع الأنواع ،
وبين الروح الإنساني الملموح في رقي الإنسان الدائم السريع ، ونزوعه

المستمر إلى الأكل ، ونفاذ فكره في عالم المعاني المجردة التي تبدو
عجيبة رائعة في الرياضيات العليا ، والخفقات الروحية العليا ، والمثاليات
العليا التي لا يمكن تفسيرها تفسيراً « بيولوجياً » أو « فسيولوجياً » .

ولقد أحس الإنسان ، حتى في عصور جهالته ، بتفرد وامتيازه على
سائر ما يحيط به في الطبيعة ؛ إذ وجد نفسه أقوى قدرة ، وأوسع حيلة
في التغلب على المشقات ، وفي الرقي بالحياة رُقياً مطرداً ، ولذلك لم يستطع
أن ينظر إلى القبر كأنه نهاية أبدية لتلك الحياة ؛ بل وجد في إلهامه أن
لا بد وراء موته من امتداد لحياته على أسلوب آخر أو على أسلوب الدنيا .
فما باله يشك الآن في قيمته السامية ، بعد أن تضخم أمامه ميراث
علومه وآدابه ، وعمّر الأرض عمرانا ، وافتنّ فيها افتناناً ، وصار فطناً
لما فيها من جمال وأسرار !؟

إنه ما فتى منذ وجوده وهو يسعى لخلوده ، ليظل مغموراً بهذا
الإحساس العجيب بالحياة ، ولم يكن يستطيع أن يتصور الخلود في أول
الأمر بأكثر من أن يعطى شعلة حياته إلى ولده . وقد وجد في ولده
أكبر غناء له عن موته وفنائه ، ولكنه لم يقنع بهذا بل ظل يبحث
جاهداً عن وسائل خلود جسده هو بذاته ، فحنّطه ونقش صورته على
الألواح والتماثيل ، ثم خطا خطوة أخرى فخلد فكره بالكتابة ، ثم خطا
خطوات متلاحقة في العصر الحديث نحو هذه الغاية ، فخلد صورته الحقيقية
« بالفوتوغراف » وصوته « بالفونوغراف » وأنغام نفسه « بنوتة » الموسيقى ،
وحرركات جسمه « بالسينما » ، ثم تصرف في الصوت والصورة والحركة ونقلها

على أمواج الأثير، فاخترق الحدود والكثافات بالراديو والتلفزيون في أقل من لحظة، ثم هو الآن يتجه بمحوته إلى عالم الروح، لعله يستطيع أن يتصرف فيها... والله أعلم بمستقبل هذا النوع العجيب الذي ارتضاه خليفة له في أرضه...!

فأنت ترى أنه مشغول دائماً بخلود حياته، إذ يحس إحساساً فطرياً وعقلياً أنها لا يليق بها الفناء الأبدى الذي يرجعها إلى العدم المطلق... وأحب أن ألفت الفكر إلى أمر هام جداً وذو قيمة كبرى في النظر إلى قيمة الإنسان: وهو أن حياة هذا النوع منذ ابتداء تيقظه لها في العصر التاريخي، وتقييد خطواته فيها، حياة مطردة الرقي، سائرة بسرعة إلى الوضوح والانكشاف.

ولقد عاش أدهاراً طويلة وهو يجهل أجناسه وأنواعه، غائباً في أوطانه الضيقة، يحسبها هي وحدها كل الدنيا، لا يعلم حدود اليابس والماء، منشوراً لا رابطة تجمععه، جاهلاً بما في الكون من عوالم وأسرار، وقد كانت أديانه أدياناً خاصة. كل قرية فيها نذير يسدد حياتها بحسب ظروفها هي وحدها.

ثم كان الانقلاب الإسلامي قمة النضوج في العقيدة الدينية، إذ جعلها عقيدة طبيعة عقلية دولية وضعت فيها الأسس لوحدة البشر وتلاقيهم على المعاني المشتركة بينهم، حتى يتأتى من وراء ذلك، السعى إلى وحدة العمل والخدمة المشتركة، ولذلك لم تنتظر الأرض أن يأتيها هدى من السماء على يد رسول بعد رسول الإسلام، وأحست أن الله أغلق باب «الوحي»،

وجعل محمداً « خاتم النبيين » ، وقد صدق الزمان ذلك فلا مجال للجدال . فلم تعد الإنسانية تقبل ظهور البطل في صورة نبي . وقد نبه إلى ذلك « كارليل » في كتاب « الأبطال » . وهذا هو معنى قول محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في خطبة حجة الوداع : « إن الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » أي أن الإنسانية قد بدأت بعد الانقلاب الإسلامي دورة زمنية جديدة .

وحقاً يجد كل من يتفرس ويستقري التاريخ ، أن عصرأ عقلياً جديداً قد ابتدأ بظهور الإسلام ، وانفساح الأمبراطورية العربية التي احتضنت جميع علوم العالم القديم ومعارفه وأنمتها وحملتها إلى العالم الحديث . فالانقلاب الإسلامي ينبغي أن يجعله الإنسانية كلها بدء تاريخ رشد للعقل ووحدة للدين ، وستفعل ذلك في يوم لا ريب فيه .

والآن صارت الأرض كقطر واحد بأدوات الاتصال السريع ، وكل أمة تعلمت لغات غيرها ، وارتبطت مجموعات كبيرة من الأمم برباط واحد ، واختلط الأبيض بالزنجي ، والشرق بالغربي ، وسكان الجزر النائية الغائبة في المحيطات بسكان القارات ، وصار الإنسان العادي يطلع كل صباح ومساء على أخبار العالم الأرضي كله ، ويرى حياة جميع الأمم في السينما ... وهذه كلها مقدمات لنتائج لا شك فيها عند من يقيس ويعتبر بالماضي .

وكما ثبت أن الانقلاب الإسلامي كان بدء عهد عقلي وقلبي للإنسان ، قد ثبت أن القرن السابع عشر الميلادي كان بدء عهد عملي وعلمي له .

وبذلك طار الإنسان بجناحين قوين من الحياة الفكرية والحياة العملية إلى الغاية من خلقه .

فليس من الصواب ولا من الإنصاف أن ننظر نظرة تشاؤم إلى حاضره ومستقبله ، بعد أن رأيناه يبني حياته على العلم والنظام بناءً كان يعد في الماضي من أعمال السحر وخوارق العادات ...

ومن النظر العامي أن تزعم أن الإنسانية الآن أخط منها في الماضي .. ولست أدري ما مبعث هذا الزعم ؟ أهو ملاحظة فساد في العقيدة الدينية ؟ إن العقيدة الدينية الآن أصح منها في الماضي ، فهي في أكثر الأمم المتعلمة ، بعيدة عن الشرك والوثنيات والخضوع الأعمى للكهنة ... وما أصدق أن عاقلاً يُخلى الطبيعة من عقل يدبرها . ولكنه ليس آلهة الكهنة ، وعمما قريب يذهب ما في بعض الأديان من بقايا الوثنية والإشراك ، ولن يبقى للانسانية إلا دين الفطرة والعقل بغير عنوان وانتساب إلى جنس أو شخص أو مكان . وهذا هو المعنى الحرفي لكلمة « الإسلام » . فأى امرئ يؤمن بخالق واحد للطبيعة ، ويحسن العمل في الدنيا فهو « مسلم » والمعنى الحرفي لكلمة « إسلام » هو الانقياد لحكم الله وقوانينه في الطبيعة .

واقراً إن شئت : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . تلك أمانتهم ... قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ... والآيات كثيرة في هذا ، ولا محل الآن للخوض في هذا الموضوع ...

وقد صارت الأديان التي تحتضن بقايا الوثنيات تحتفى وتفر من نور العلم والفكر الحر ، ويزعم سدّتها أن الدين لا مناقشة ولا تحاكم للعقل فيه .. وهذا أول الاعتراف منهم بأنهم على باطل عما قليل يذهب مذموماً مدحوراً إلى قبور الخرافات والباطيل .

أم يكون مبعث هذا الزعم هو فساد الأخلاق الاجتماعية ؟ ولا هذا أيضاً .. فإن الأخلاق الاجتماعية تترقى باطراد في كثير من الأمم التي بنت حياتها على العقل والنظام رقياً لا يمارى فيه إلا من يرسل الكلام بدون هدى ولادليل منير .. فحكم الشورى هو الحكم الغالب ، وحرية الفرد وحقوقه صارت مكفولة معترفاً بها ، وقد نظم الإحسان ، وهوربت لأمراض وطوردت الجرائم ، وصار التعليم والصحة والقوت حقاً للفرد على الدولة ، ومجّدت صفات البطولة والنبيل ، وأقيمت لها النصب والتماثيل والأوسمة وحفلات التكريم ، ووطدت وحدة الأمة وتكافلها بأروع المظاهر كما في بعض الأمم العظيمة .

أظن أن مبعث الزعم بانحطاط الانسان هو انطلاق الانسان وراء شهواته ، وافتنانه في إشباعها .

وعلى فرض صحة هذا الزعم فإن منطقة الشهوات منطقة منفصلة عن منطقة العقيدة الأصلية في الدين والحياة ، ولا يجوز أن تكون سبباً لهذا التشاؤم الذي قد يصل إلى الكفر والاعتراض الصريح على الله ، حتى من بعض كبار المتدينين الذين أرسلوا إلى منذ حين ، وكانوا من أعظم الأسباب لتحرير هذا الكتاب : إذ أن أحدهم وصل به الحال إلى أن يقول :

إن الله تعالى غلب على أمره . ! إذ لم تتحقق غايته من خلق الإنسان
وهي العبادة . . . وبعضهم يتهم الله تعالى بالأنانية ! لأنه لا يبالي بما يصيبنا
من الآلام والعذاب في عبادته . . . !

وما أكثر ما يجنى قصور الفهم والتوجيه للنصوص على الناس !
وما أعظم مَسْخِ الألفاظ بكثرة مضغها بدون إدراك ! وما أعظم جنابة
التقليد الأعمى في أخطر أفكار الحياة وهي فكرة الإيمان !
وقد بينت معنى « العبادة » في كتاب « الحياة صادقة » المهيأ للطبع
بما أعتقد أنه يقضى على بواعث مثل هذه الاعتراضات فلا داعي
لذكره هنا .

في معترك الآراء

في حدود البداهة أيضا — فليكن قرداً نهض على قدميه ، ثم ماذا ؟ —
وارث الحياة — الشر يلد والعلم يدفن — الأشقياء الهالكون —
نتائج الايمان ونتائج الانكار — أخلاق العلماء — الألمان والانجليز والعرب
الهندوس وعبادة الأبقار والأفاعي — صوفية شاردة تتخيل وصوفية مادية
تتحقق — استعلان سر الوجود على تفاوت — برغوث أبي العلاء —
مذهب هدام — فترات التمهيد لظهور الانسان — لانقص في غرائز
الانسان — العلم أضاف حياة للحياة — ماشدت بجمع أخلاق الانسان —
الدولة كائن عضوي واحد — تقدم العلم وتخلف الخلق — لو آمن
بنفسه — يوم قريب — لغير المؤمنين

كتب صديقي الباحث الفاضل الأستاذ زكي نجيب محمود مقالا
في العدد ١١٧ من مجلة « الرسالة » الغراء ، أخرجني مخرج الإنكار لما
ذهبت اليه من رأي في القيمة السامية لحياة الانسان وتفردته بالسيادة بين
غيره من سكان الأرض ، وبتوجه منافع ما في الأرض كلها اليه ، وبتفردته
بالتغلب على كثير من قوى الطبيعة وتسخيره إياها ، وببساطة الحياة في
الأرض بدونه ، وبقدرته على إيجاد عوالم ومعان وصناعات ومدن وآثار
ورسالات لم يكن في الحياة شيء منها ، وبقيامه وسط دورات الأرض
الأبدية المكررة المحدودة ، بحياة حرة تذهب في كل اتجاه ، وتكاد تكون
منفصلة عن الحياة الطبيعية .

وقد رددت عليه بمقال أرى ضرورة نشره هنا لصلته بما قبله . ولم

أكرر في ردى ماسبق لى من معان يمكن توجيهها للرد عليه أيضا .
قلت : أود أن أزيد هنا بعض أفكار ، أقدم قبلها أسئلة في حدود
البداية [التى كثيرا مايجنى على الحق إهمال التحاكم إليها وترك
الاسترشاد بهداها والاعتصام بها من أمواج الفروض والشكوك والنظريات
الفكرية الطليقة . . .] ألقها إلى صديق خليفة (سليمان بن داود)
مفهم الطير والبهايم والمردّة ، والفراش المبتوث ، والبعوض والبرغوث .
هل رأى أو سمع أن أمة من أمم الحيوان والحشرات اصطادت
إنساناً ووضعته في قفص وعرضته أمام الأنظار ؟

وهل رأى أو سمع أن فرساً أو حماراً ألجم إنساناً وركبه ، أو حرث
عليه حقله أو وضع على ظهره حملة ؟

وهل رأى أو سمع أن جملاً أو فيلاً أو ديكاً أو خروفاً قدم لإنسان
حفنة من شعير أو أعواد برسيم أو قدح ماء ؟

وهل رأى أو سمع أن برغوثاً أو بعوضة أو فراشة صنعت دواء
ووضعتة في مضخة ثم أطلقتته على الإنسان لتخدره أو تدفع أذاه أو تقتله ؟

وهل رأى أو سمع أن حيواناً ما ، قطف زهرة ووضعها فى أبيض
يتأمل جمالها ويزين بها مسكنه ، أو أقام معرضاً أو متحفاً للبذور والثمار
أو منتجات الحيوان والإنسان ؟

هل رأى أو سمع أن جماعة من الأبقار أو الأغنام ، ثارت على جزار
وأمسكت به وذبحته وسلخته ، وأخذت من لحمه وشعره وجلده وظفره

منافع؟ أو على الأقل أدركت لماذا تساق هي إلى المذابح؟
هل اصطنع ذئب أو سبع من سباع الأرض سلاحاً يدفع به غائلة
الإنسان ومكايده وحبائله؟

أترك لصديقي زكي أن يدرك سير الحياة بالإنسان، ووضعه بين
الأحياء من خلال الأجوبة على هذه الأسئلة.

ثم لنفرض مايقوله بعض شراح نظرية النشوء والترقي صحيحاً، من أن
الإنسان أصله قرد نهض على قدميه... ثم ماذا؟

لقد سبق هو وتخلفت سائر الأنواع... إذاً هو وحده كان محفوظاً
بعناية الذي خلق الأنواع كلها، حتى جعله في قمة الحياة العضوية الحيوانية،
ثم بثق في رأسه بثقاً صار منبع عالم جديد عريض فائق سابق على سائر
حياة الأحياء المعهودة، إذ جعله يصنع موجودات تفوق قدرة الحيوان
وقدرته هو على السرعة والاحتمال والنقل والسمع والبصر والتكبير والتجهير
والتقريب، ولم تر غيره حيواناً يخترع آلة لصيد فريسته. ولم تر أمة من
أمم النمل تخترع عجلة تحمل عليها الأثقال التي تعانى نقلها من مكان إلى
مكان، ولم تر أمة من أمم النحل تفكر في دفع عدوان الإنسان على عسلها
الذي تتعب وتدأب في جنيته واشتيماره من رحيق الأزهار ونوَّار الثمار،
على كثرة ما جربت من غزواته لها. وكل حيوان يعيش في نطاق ضرورات
حياته لا يتجاوزه.

فلئن كان قانوننا «الانتخاب الطبيعي» و«بقاء الأصلح» أفنومين
عظيمين من أقانيم نظرية النشوء والترقي، كما يعترف بذلك أنصارها

— وصديقي زكي منهم — فهما اللذان وضعنا الإنسان هذا الموضع الممتاز ...
موضع القمة في سلسلة الأنواع . وما دام الإنسان استطاع أن يتغلب على
حيوان الأرض ، يستبقى منه ماله فيه نفع ويبيد منه ما يشاء ، ويجد من
الطبيعة إقبالاً عليه وكرماً في إمداده بوسائل التغلب على ما يريد إبادته ،
ولا يصدّه صادّ عن اقتحام الغابات والأحجار والبحار والمنافع للصيد
والتلّهي بالقتل . . . ما دام الإنسان استطاع أن يفعل كل هذا ،
والطبيعة تساعد على فعله ، فهو إذاً الابن البكر للحياة في الأرض ،
وهو المقصود بها بحكم قانون « انتخاب الأصلح » ، وهو وارثها لأنه
الأقوى . . .

سيقول صديقي زكي : « وماذا أنت قائل في الجرائم التي تفتك
ببطن الإنسان لتعيش ؟ تلك التي إن أفلح في نزع واحدة منها مما يسكن
جوفه باضت له ألوف الألوف من صغارها ؟ » .

وأقول : إن مصير هذه الجرائم مصير غيرها من قطعان الوحش
وسائر أعداء الإنسان التي تغلب عليها وتحصن منها ، وأوشك أن ينظف
الأرض من غوائلها . . . وإن تاريخ كشفه لها قريب جداً ، ومع ذلك
استطاع أن يقيم أسباب المناعة منها في المسكن والملبس والمطعم والمستنشق .
وما دام قد رصد حياتها وعرف أوكارها ، وسلط عليها حرساً من الجاهر
والمخابر والعقاقير ، فهو لاشك واصل إلى التغلب عليها في سائر البقاع ،
ما دام قد تغلب عليها في مناطق المستشفيات ودور النقاهاة وكثير من المنازل
والمدين التي لا تهمل وسائل الوقاية العلمية . . .

وإنه لجهاد مشكور وأمر عظيم ، أن يقتحم الإنسان بعلمه وأدواته
هذه المناطق التي عاشت دهوراً وراء نظره وفوق وهمه وتخيله ...

وإنها لعناية من باري الطبيعة بهذا النوع أن يعرفه أعداءه واحداً
واحداً ، ويمكن له في الأسباب حتى يتغلب عليها جميعاً ...

وإنه لبدء حياة جديدة لهذا الإنسان في الأرض ، أن يعلم ما خفي
وما استعلن من هؤلاء الأعداء ...

فلتلد بطون الشر والألم ما تستطيع من أطفالها ... فستلد قوانين العلم
مقاميع ومهالك لهذه الأطفال ..

وإن الأشقياء المهالكين في الحياة الدنيا، هم الكافرون بالعلم وبالإنسان
الذي أنتج هذا العلم ...

أولئك الذين يعيشون بأساليب القرون الجاهلة العاجزة ، وينظرون
إلى الحياة نظر العجز وضعف الثقة بروح الإنسان وعقله ، ونظر القاصرين
الذين لم يدركوا ذلك النمو السريع للحياة الإنسانية في مدى قصير جداً
من الزمن ، وهو أربعة آلاف سنة أو خمسة أو ستة ، وهي عمر التاريخ
الذي نعرفه ...

أولئك الذين لم يدركوا بعد كيف قفز الإنسان في السنوات الخمسين
الأخيرة من عمره قفزات حققت كثيراً من أحلامه في الانطلاق والسيطرة
والإنتاج والاستغلال والتوليد والتقارب بين أجناسه وأقطاره ، واختزال
المسافات والأبعاد ، وإقامة الأرصاد لحوادث الحياة وظواهر الطبيعة .

أولئك الذين لا يزالون يعيشون كما كان يعيش آباؤهم الأولون الذين لم يكونوا يعرفون من الدنيا إلا حدود البقعة التي ولدوا فيها، أو القطر الذي ينتمون إليه ... ولم يكونوا يعرفون أن في الأرض محيطات هائلة، وقارات مجهولة، وعوالم مستورة، وأن الأرض ما هي إلا كرة صغيرة جداً كذرة رمل في صحراء ... الذين كانوا يبيتون في الظلام والبرد، وأنهار النور والنار على بُعد ضربة معولٍ منهم في منابع النفط والبتروك ... ويعيشون تحت رحمة غيظ الماء وفيضيه بدون أن يقيموا سداً أو خزاناً يحفظ الماء ويحفظهم من طغيان الماء ... والذين كانوا يأكلون الموت ويشربونه في المطاعم والمشارب الملوثة بالجراثيم والآفات ...

أولئك الذين كان كفرهم بالإِنسان، وعدم إدراكهم لسموه وتفردده بين سائر الأنواع، السبب الأكبر فيما تراه يسود حياته من اصطناع أساليب الحيوان الفاتك الضاري المتشهي الغافل الذاهل عما يدور في السماء ويجرى في الأرض من المعجائب والمعجزات وأفانين الحياة ...

« وبعدها » فليكن الإنسان في مقاييس ما وراء الطبيعة ما يكون، ولتعل قيمته هناك أو لتسفل، فإن هناك شيئاً واحداً هو الحياة الاجتماعية التي تستلزم إعلاءً لقيمتها، لتسعد فيها.

وما يجر الشر والإثم والسفالة على النفس الإنسانية إلا غفلتها عن مقامها الممتاز في الحياة، وإلا أخذها بظاهر الحياة الجسمية الآلية، التي تجعلها والحيوان في حظيرة واحدة.

وما كان جهاد أنبيائها وحكائها الذين خطوا بها خطوات واسعة إلى

الأمم ، إلا نتيجة لإدراكهم امتيازها وما فيها من قوى زائدة عما في غيرها من سكان الأرض ...

وأخلاق العلماء شيء عظيم عميق ، لأنها أخلاق بنيت على العلم بأعماق النفس الإنسانية . وقد قال سنقراط « الفضيلة معرفة ، والرذيلة جهل » . والفرق بين أخلاق السادة وأخلاق العبيد هو مبدأ الفلسفة الألمانية الحديثة التي سنها « نيتشه » للألمان . فكان إدراكهم معنى السيادة ، وحديثهم حولها ، أكبر باعث لهم على نهضتهم الجبارة التي جعلتهم يفهمون في أنفسهم أنهم فوق مستوى سائر الأجناس .

وأخلاق الإنجليز المبنية على ثقافتهم بأنفسهم ، وتفرؤدهم من بين سائر البشر بطبيعة ممتازة وروح ممتازة ، هي التي جعلتهم فوق المستوى الإنساني الحالي في الصبر والاحتمال والثبات وسعة الخيلة والوقار والسكينة في السلم والحرب . فهم يؤدون لهذا الاعتقاد وتلك الثقة بالنفس مهرهما من الفعال الكريمة ، والصبر الجميل ، والدم العزيز ، والمال المبدول ، والمسكن المترفة .

وقديما كانت العرب أمة ضائعة المسكنة ، لما كانت مفقودة الاحساس بسمو نفوسها ومواهبها ، مغمورة فيما يحيط بها من الطبيعة ، مدحجة فيها ، عابدة للحقير والجليل منها ، حتى تسمى أفرادها بأسماء الجماد والحيوان السافل والنبات الحقير : فقالوا حجر وصخر وكب ويربوع وحنظلة ، إلى آخر أسماء ما يحيط بهم ، وطافوا بالأحجار والأشجار عابدين عاكفين فلما أيقظهم موقظهم العظيم لأنفسهم وما فيها من امتياز على سائر ما يحيط بها ، فلا يليق بها أن تلتمس لشيء من هذا المحيط عبادة ، ولا أن تبتغي

إليه زلفى أو وسيلة ، ولا أن تقدم إليه قرباناً من دمانها ودموعها وسائر
قربانها ؛ بل يجب أن تبتغى بذلك كله وجهاً أسمى وقدرة أعظم ، لاتدركها
الأبصار ولا تستوعبها الأفكار . . . حين هذا بدا السر الخفى فى هذه
النفوس الضائعة ، واستعلن كما يستعلن نور الصباح عريضاً فى الآفاق ،
ومضى أفرادها إلى فجاج الأرض ، حاملين رسالة ، ومواطنين دولة ،
ومقيمين حضارة .

وها نحن أولاء نرى « الهندوس » يأتون فى عبادتهم للأبقار
والحيات وكثير من الحيوان ، مخازى وسخافات تلتطخ وجه الانسانية بالحياء
والخجل والعار . . . كل هذا لأنهم توهموا أن فى البقر والشعابين سرّاً
وروحاً مقدساً يعبد ، فتركوها تعيش وتسرح وتهم فى الشوارع والبيوت
والطرق ، وهاموا وراءها ، وأكلوا روثها ، وشربوا بولها ، وتقربوا للشعابين
ورحبوا ببلدغاتها وموتهم بأنبيائها ، وتركوا بلادهم تصاب بطواعين الأبقار
التي تترك حتى تشيخ وتصير عشاً للجراثيم التي تنتقل منها إلى عابديها
وساكني بلادها . . . والأبقار المسكينة فى ذهول وغفلة عن قربات هذا
الانسان الضال وتقديسه إياها . . . فهي تبول عليه وتنطحه ولا تنفعه .

وهكذا كان الانسان فريسة للاوهام وعبادة الأحجار والأبقار
والجعلان والقطط والحيات وغيرها ، حين لم يكن مؤمناً بنفسه وطيد
الثقة بها ، فإما أن جميع مافي الأرض مخلوق له ومسخر لمنفعته .

ولست أدري من منا الذى أوغل فى لغائف الصوفية وشرودها

أنا أم صديقي زكى ؟

إن صوفيتي مادية تؤمن بالعلم ، وتعترف بدولة الأجسام ، ولا تشرذ
وراء الأوهام ، فلا تتخيل أن الانسان العظيم الخصيم المبين المفكر المبتكر ،
مخلوق ليكون طعاماً للبراغيث والبعوض والقمل . . . وإنما تعلم أن هذه
الحشرات مخلوقة لحل الانسان على تنظيف جسده وثيابه ومسكنه وبيئته
من القاذورات والعرق والأتربة والمناقع الراكدة الآسنة . . . فلولاها لأصابه
السكسل عن كثير من أعمال النظافة والتطهير والتجميل .

وقد كانت هذه الحشرات تعيش في الأصل على النبات والحيوان ،
ثم لصقت بجسم الإنسان وتطورت بلمصوقها به . فلا يصح أن يقال إن
الإنسان خلق لأجلها .

وصوفيتي لا تخيل إلى « أن سر الوجود يستعلن في الجرثومة الضئيلة
كما يستعلن في الإنسان والقرد والأفعى ! » كلا . . . هناك فروق هائلة
بين استعلان قدرة الله في الجرثومة ذات الخلية الواحدة ، ذات الوظيفة
الواحدة ، وبين استعلانها في الإنسان ذي الخلايا التي لاعدد لأنواعها
وأشكالها وصورها وأوضاعها ووظائفها منفردة وموضوعة في مجاميع
ومنتجة حياة كلية . هو كالفرق بين جُزىء صغير في قالب حجر موضوع
في عمارة من ناطحات السحاب ، وبين العمارة نفسها بما فيها من زخرف
وزينة . . . وفي هذا التشبيه تجاوز كبير وقياس مع الفارق الهائل .

نعم إن الجرثومة شيء ثمين عظيم كأول خطوة في سبيل الحياة . . .
ولكنها لن تبلغ مبلغ الإنسان الذي هو آخر خطوات الحياة وحلقها
النهائية كما تقول نظرية النشوء .

وما أعتقد أن خالقاً عظيماً حكيماً ، يخلق كرة أرضية هائلة ، ويجعل فيها رواسب من فوقها ، ويجرى فيها بحارها وأنهارها ، ويقدر فيها أقواتها ليعيش عليها عالم من البراغيث أو النمل أو الثعابين أو الأبقار أو السباع عيشة أبدية بدون خليفة فائق عليها ، يستطيع أن يضع الحمل بجوار الذئب والأسد بجوار الغزال ، وكل عدو بجوار عدوه ، كما هو الحال في حدائق الحيوان . إن الحياة حينئذ تكون عبثاً وفيضا لا يتلقاه أحد يعي ويفكر ويعمل في الأرض عملاً مجيداً .

وإن الصوفية التي تقول بهذا ، ماهي إلا شرود وراء الأوهام وعدم الإدراك لغايات الحياة والتميز بين آفاقها .

إنها صوفية كصوفية « أبي العلاء المعري » المريض شاذ الطبيعة الذي يقول :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجاً !
كلاهما يتوقى والحياة له عزيزة ويروم العيش مهتاجاً
ولنتصور الناس جميعاً على مذهب أبي العلاء و بعض متصوفة الهند .
لا يأكلون اللحوم ولا الألبان ولا العسل ولا يستغلون سائر منافع الحيوان ،
ويتركون البراغيث والقمل والضفادع والعقارب والثعابين وسائر الحشرات
والسباع والبهائم حرة طليقة في الحياة ، ما دامت الأرض ميراثاً مشتركاً
بينها وبينهم ، وما دامت جميعها مقصودة بالحياة ، وما دام « سر الوجود »
قد استعلن فيها استعلانه في الإنسان ... فماذا تكون النتيجة ؟

هي فناء الإنسان بفناء أقواته التي تأكلها قطعان الأنعام والسباع

وعراجل الحمير وأسراب الطير والحشرات وغيرها . . . هذا إن عاشت
وعمرت دهرأ ، وإن تركته ولم تأكله وتدمر حياته . فان فنيت
فالأرض خراب . . .

تساءل صديق على لسان إحدى حشراته : من ذا كان يستمتع
بمنافع الكائنات في الأرض قبل ظهور الإنسان ؟ .

وأجيبُ : كان يستمتع بعضها ببعض ، ويعيش بعضها على بعض
كما هو الحال الآن . . . فالسباع تأكل الأنعام ، والأنعام تأكل النباتات ،
والحشرات يعيش بعضها على النبات ، وبعضها على الحيوان . . .

ولسكن ينبغي أن نعلم ما يقوله العلم من أن الحياة الحيوانية على الأرض
لم تكن غزيرة ولا كثيرة الأنواع قبل عصر ظهور الإنسان . . . نظراً
لقسوة عوامل الطبيعة من الأمطار والثلوج والبراكين والزلازل التي لم
تسكن تسمح بحياة كائن ضعيف ، فلما استقرت القشرة الأرضية قليلاً ،
وهدأت عوامل الغليان والتشقق ، وصارت الأرض صالحة للحياة بعض
الصلاح ، خلق الله فيها الحيوانات الضخمة الزاحفة ، ثم انقرضت بفعل
الزلازل والفيضات واختلافات الطقس . . .

ثم صرت الأرض بأدوار وراء أدوار حتى صلحت لحياة هذه الأنواع
التي تراها تعمر الأرض . . . وكان كل هذا تمهيداً لإخراج ذلك النوع
الذي صار خليفة الأرض ، وفاتح أغلقها ومخرج أسرارها . . .

وفترات التمهيد لهذه الحياة الصالحة المعمرة لا يصح أن يعترض عليها
معترض بأنها ضاعت هباء . . . فإن أيام الله ليست كأيامنا ، تقاس بالسنين

الشمسية والقمرية ، بل هي دهور بالنسبة لنا ، ولكنها لحظات بالنسبة
للذى خلق الأزمان ، ويدير الأفلاك دورات هو أعلم بمقدارها . . . والله
أعلم متى يفضج الثمار

* * *

زعمت فراشة الأستاذ ، أن علم الإنسان وأخلاقه هامر تبيحه ودعواه
الامتياز ، مع أن علمه يكمل النقص الذى فى غريزته وفطرته ، ومع أن
أخلاقه فى مثلها الأعلى الذى تحلم به ، هى دون مايسود ممالك النمل والنحل
من أخلاق . . .

وأنا أنكر إنكاراً باتاً أن يكون فى غرائز الإنسان نقص يحتاج إلى
تكميل ، وأن يكون العلم هو هذا المكمل . . . وإنما أرى أن غرائزه التى
تضمن له حياة آلية رتيبة كحياة أنواع الحيوان ، غرائز كاملة يستطيع أن
يعيش بها فى مفتتح حياته وتكفيه . . . فإذا نظرنا للعلم على أنه نتيجة
لغريزة حب الاستطلاع فهو إذاً أثر من آثار هذه الغريزة ، ولكن
لا يقال إنه تكميل لها ، إذ لا نقص فيها . . .

العلم نتيجة لهذه الغريزة ، كما أن الولد نتيجة للغريزة الجنسية . وحب
الاستطلاع غريزة مشتركة فى جميع أنواع الحيوان ، ولكنها فيما عدا الإنسان
محدودة بحياة ضرورات حياة الأنواع ، وفى الإنسان لاحتها . ولذلك
أنتجت للإنسان علماً زائداً عما يحتاجه وعما يمكن أن يدركه أى حيوان .
وهذه القابلية الطبيعية الدائمة فى هذه الغريزة ، هى التى أنتجت نمو علم
الإنسان وفكره ونمو الحياة به دائماً . . .

والانسان الفطرى المحدود الذكاء ، يكاد يعيش بالغريرة وحدها ، فهو لا ينوع ماورثه من الحياة ولا يزيد عليه ، ولا ينقص منه كثيرا ؛ وهو مع هذا يحيا وينمو وسط الأهوال ...

فغرائز الإنسان التي تكفل له حياة كحياة الحيوان غرائز كاملة يحيا بها حياته الضرورية .

أما العلم فيفتح له أبواب حياة خاصة منفصلة عن حياة الطبيعة ...
فالقول بأن علم الإنسان يكمل النقص الذى فى غريزته وفطرته ، قول

غير مفهوم ...

وأما أخلاق الانسان الحالية فلم أدافع عنها ، بل نعتت عليها من بعض الوجوه واعترفت بفسادها وقصورها إلا فى قليل من الأمم ، وهى التى أدركت أن للحياة الإنسانية قوانين تشبه قوانين الطبيعة فى صرامة عقابها لمن يخالفها ...

واعتقادي أن الدولة كائن عضوي يسرى عليه مايسرى على أى جسم ذى أعضاء من وحدة المنفعة والضرر ... الدولة كالجسم الواحد لا يصح أن يترك فيه شىء فاسد ولو كان ظفراً وإلا فسد كله ... ولا يليق أن يكون فيه عضو مريض وآخر صحيح ، بل يجب أن يصح كله ...

والقلب فى الجسم يقذف الدم إلى كل خلية لتحيها ، وكذلك يجب أن يقذف « قلب الدولة » إلى كل فرد غذاء الجسم والفكر والروح ليحيها الحياة الكاملة .

والفكر فى الجسم الواحد حارس يقظ أمين ، يتلقى الرغبات ويصدر

الأوامر ، وكذلك يجب أن يكون قادة الأمم والمسيطرون عليها ...
فإننا لم نُشَدُّ بأخلاق الإنسان الفردية الحالية ، وإنما أشدت بعلمه
وفتوحه في مجاهل الكون ، وأريد من وراء هذه الاشارة بقظة النفس
الدائرة مع الحديد البليد القاسى في غير وعى وإحساس ، إلى آثارها
وتفردها بين الكائنات ، حتى تعلم وضعها الصحيح . فتصلح من أخلاقها
والواقع أن أخلاق الإنسان لم تتطور كما تطور علمه وفكره ، بل
لا يزال يعيش بموارث التاريخ السيئة المغلوطة ، ولم يجد له في العصر
الحديث زعماء انقلاب في روحياته ، كما وجد زعماء انقلاب في مادياته ..
فالانقلاب الجسمى والآلى والصناعى في حياة الإنسان لم يصحبه
انقلاب نفسى يجعله يصفى تركات الماضى فى الأخلاق ، ويتحرر من موارث
التاريخ السيئة ، ويقوم حضارة روحية تناسب هذه الحضارة المادية التى
أقامها فى مدى السنوات الخمسين الأخيرة .

ولو آمن الإنسان بالإنسان ، وأدرك مدى الرحلة التى رحلها فى الحياة ،
والخطوات التى سارها فى التاريخ ، ومركزه بين الكائنات كخليفة فى
الأرض خلف الله على مقدراتها ، وصنع فيها موجودات فاقت نماذج الحيوان
فى الدقة والاحتمال والسرعة والخدمة آلاف الأضعاف ، وعرف أن الله
ما كان ليعطيه هذه القدرة العظيمة على الصنع والإنشاء والافتنان إلا وهو
به حَقِيٌّ ، وعليه متفضل ، وله مكرم ، وإياه مسدد وموفق ، ولتطوراته
مرتقب ومنتظر بلوغه رشده ؛ لو آمن بهذا كله لأسرع إلى إقامة

الحياة على ما أقام الله الطبيعة عليه ، من العدل الموزون ، والرحمة السابغة والتوزيع الكريم .

فإذا لم يذهب الإنسان إلى هذا طائفاً مختاراً كما فعلت أمم الشمال في أوروبا ، فسوف يذهب إليه مكرها بالحديد والنار في يوم أحسبه قريباً ...

* * *

ملء يديّ الاثنتين نصوص من القرآن ، تثبت أن جميع ما في الأرض خلقه الله للإنسان ، وحواله إياه ، واستخلفه عليه ، وجعله متاعاً وتذكيرة له ، ولاكنني آثرت أن أقدم حججاً من الفكر الطليق ، والنظر الحر ، والعلم العصري ؛ حتى لا يقول قائل من المنكرين المفتونين : أساطير الأولين ...

مسرح هائل

وممثل واحد !

نظرة واسمة — لمن الحياة ؟ — ممثل مجهول ... — زواج الفكر
بالمادة — أعماق السكون — الحياة هي الانسان — الباقيات — أمومة
الأخلاق وأبوة العلوم — نوعان من الرجال — العكازتان ...

في السماء : كل نجم عليه غشاء سمرمدى من السكون ... ولو أقيمت
نظرة على النجوم والكواكب ، لم تر شيئاً إلا لمحة عينك أنت ، واختلاج
ضوء يكاد يكون من خداع النظر ...

وفي الأرض : كل شيء يسير في حركات محدودة وسنن مطردة ، وتكاد
لا تسمع إلا أصوات هبوات الريح ، أو لطبات الموج ، أو أصواتاً تظهر
من تلاقى الريح بالأشياء ، أو عبث الأمواج بالأشياء ... وما عدا ذلك
فأصوات حيوان لا تعدو أن تكون مقاطع ونبرات بسيطة محدودة يصح
أن تلحقتها بعزيف الريح على شعاب الجبال وقصبات الأشجار ، أو بهدير
الأمواج ، ذلك الصوت الواحد المكرر على توالى الأزمان .

ولا ترى إلا تلك الدورات الأبدية من ليل ونهار ، وربيع وخريف
وشتاء وصيف ، ورياح وأمطار ، وفيضانات دورية ، وأرحام تدفع وأرض
تبلع ، وحياة رتيبة للبهائم والوحش والطيور والأسماك ...

تلك هي الحياة في الأرض من غير الإنسان ... لا تجد في أساليبها

ولا تنويع ، الا ما خلق الله على الجلود والريش والأزهار والثمار ، والجُدد
البيض والحمر في السفوح والجبال . وإلا ما تنقله الرياح والمياه في دوراتها
من مكان إلى مكان . وإلا ما توزعه قوى الطبيعة بالمسكيات الوافي
والوزن الواسع ؛ فلا يضاف للطبيعة شيء لم يكن منها ، ولا يقلقل فيها
شيء من موضعه ، ولا ينفتح فيها شيء يستحق التنقيح .

إذا لمن هذا كله ؟ لمن الليل والنهار ، وهذه الآلات الهائلة التي تدار ،
والحيوان الآبد والداجن ، والأزهار والثمار ، والأنهار والجبال ، وألوان
الشفق في الأصائل والأسجار ؟ أهو للحمير والقرود والنمور والتعالب والقميلة
والآساد والفهود والشعابين والخفافيش والبوم والحشرات والديدان ؟ !

كلا ! ليس في هؤلاء من يصحح أن يفقه شيئاً من ذلك الإبداع
والجمال ، ولا أن يسند إليه الدور الأول في رواية الحياة ... وإنما هن
أعاجيب وتهاويل وصور لزيينة المسرح ، ودواب لحمل الأدوات والآلات
إليه ... أو إن شئت فقل إن هؤلاء «حروف» في أبجدية «الأسماء» التي
يلزم أن تتألف منها رواية الحياة التي يمثلها ممثل آخر ... ممثل لا بد أن
يكون حراً يذهب في أى اتجاه على المسرح ، ويجدد في التمثيل والإخراج
كل يوم ، ويقوم بأدوار جميع ما على الأرض ، ويتمثل فيه الابتكار
الذي يجعل رواية الحياة غير يوم مكرور دائم مملول لدى النظائر من سكان
السماء ، وسكان الأرض من الراصدين الواعين .. ويمحشر كل شيء في
تمثيل أدواره ، ويضع عقله وقلبه على كل شيء ...

وَمَنْ هذا غير الإنسان ؟ !

لقد وزع الله عقوله وقلوبه على المواد والقوى سافلة وعالية ، فجعل

أفئدة من الناس تهوى خدمة شيء ، وأفئدة أخرى تهوى خدمة شيء
آخر ، كي لا يتعطل أفق من آفاق الوجود من غير نظر إليه وتفرس فيه ،
ولكي يزواج بين خواطر الفكر وخواص المادة فتننتج الأحكام عليها ،
وتتبين حكمته الخبوءة وراء أسرارها ، ولتطلع العقول على فنه وإحاطة
علمه بكل شيء ...

قانون المزاجية هنا أيضا : فبين فيكر الإنسان وبين أسرار المادة
زوجية تنتج علماً أو فناً أو إحساساً أو شعوراً ...

فالأرض من غير الإنسان هي ذلك البيت الصامت ، وذلك الدولاب
الدائر ، وتلك الدورات الأبدية التي لا غاية لها ، ولا يد تتلقى فيضها
وتنتفع بقواها ، ولا اطراد في ارتقائها ، ولا تغير في أوضاعها ،
ولا زيادة فيها ...

فأين المخرج من تلك الحدود الواقفة الجامدة ؟ وأين الباب إلى ماهو
أعظم وأوسع ؟

إن عمق النفس هو الذي يؤكده سعة الدنيا وتنوع المناظر . فإذا
خرج المرء من عمق نفسه ، ، خيّل له أن الوجود في وحدة قوانينه وتشابه
دوراته ماهو إلا شيء محدود ...

والإنسان أدرك عظمة الله وعظمة الكون لما أدرك عمق نفسه ،
وعرف الطريق إلى الكمال والصورة التي لا تنتهي لما عرف باطن
نفسه ، وخرج إلى عالمٍ أرحب وأوسع لما أطل النظر في نفسه .
وما عرفت الإنسانية جلال الله ، ولا تبينت صفاته وتوضحت لها

حكيمته ، إلا من عقل الانسان الفائق الذي أطال النظر في الدنيا ذات
الدورات المحدودة المكررة ، وأطال النظر في النفس ذات الدورات غير
المحدودة ، وزواج بين هذه وتلك .

وهذا يُسلمنا إلى أن نقول : إن الإنسان هو الحياة الأرضية
بالمعنى المعقد المركب غير المتناهي ...

ولا حد للحياة إذا التقت الطبيعة بالعقل الإنساني الذي
الحساس المفكر .

ولا دخل للطبيعة إلا في تقديم المواد الخامة إلى يده وفكره ليصنع
بهما ذلك التنوع ...

ويخيل إلى أن في روحه ميراثاً خفياً من نظام لعله نظام « الجنة »
وجمالها وراحتها واتساعها . ولعله يحاول بعد طرده منها أن يوجد
صوراً في الأرض ...

وإذا كان كل شيء في هذا الوجود يرمز إلى معنى بسيط ، فإن
النوع الإنساني يرمز إلى جميع أنواع الحياة وألوانها مضروباً بعضها في
بعض ، كما يضرب عدد هائل من الأرقام في نفسه ، من الواحد إلى آخر
العدد إن كان للعدد آخر ...

فالإنسان هو « مكان » التقاء عوالم الوجود المشهود كله ، ليحدث
من التقاء كل شيء بكل شيء منفردين نتائج وصور بسيطة ، ومن التقاء
جميع الأشياء بعضها ببعض ، نتائج وصور معقدة ، لا يمكن تقريبها
إلا للعقول الكبيرة التي لا تكاد تدركها إلا بالوهم ، أو بالذهن

الرياضي صياد الأخيلة والأحلام والفروض . .

وَعَمَّارُ عالم الفكر بملك المعاني الناتجة عنه هو ، وتنوعها إلى ما لا نهاية له ، أمره مُعْجِب ! وخصوصاً إذا تصورنا أنها معان محدودة بمحدود الرؤوس البشرية ، معدومة في غيرها ، إلا إذا خرجت وتجسدت وتشكلت في قميص مادي .

تُرَمَى ، هل هي ذات وزن وحياة عند الله الكبير ذي العقل المحيط والعلم الواسع ؟ وهل هي على تناقضها واختلاف الانفعالات المتصلة بها ذاتٌ قِيمٌ عنده ؟ أم هي مَلاهِ وسلوَيَاتٍ لذلك النوع المدلل في الأرض ، تموت معه وليس لها في سجل الوجود أثر بعده ؟

إن تصور فناء عالم الأفكار العظيمة الرائعة التي تتداول عقول الانسانية ، كاف وحده أن يقذف في قلوبنا الايمان بوجود عالم ثان وعقل آخر يحصي ذلك الحصيد ، ويجني ذلك القطف العجيب الناتج من ازدواج الحياة المادية والروحية في الانسان .

أُسْرَتَانِ اثنتان من أفكار الانسان هما الباقيتان ، فيما أرى ، على وجه الزمان في سجل الأرض :

أسرة الأفكار الخلقية ، وأسرة الأفكار العلمية التجريبية .
والأسرة الأولى هي التي سددهت إلى غايته ، وهيأته للخلافة في الأرض وتحدرت في أعصابه ، وأيقظته إلى سموه ، وجعلته ذا قيمة لدى نفسه . .

وإلى تلك الأسرة ينتمي الدين ، ومنها انفتحت أبواب السماء للإنسان ونزل إليه وحيا .

والأسرة الثانية هي التي مهدت له طريق الحياة المادية ، وسلطته على الطبيعة يرتفق منها مرافق حياته ما وسعته الطاقة ، وهي التي أنمت ثقته بنفسه ، وأظهرت آثار وجوده ، وجعلته متصرفاً في المادة بما لا طاقة لغيره من الأنواع به .

والأسرة الأولى كانت الأساس في بناء الحياة المدنية ، وإتاحة الفرصة للفرد أن يفكر ويعمل لخدمة المجموع في حماية القوانين والمعاهدات ، وكانت الأساس في توجيه روح الفرد إلى المثل العليا ، وبناء مكارم الإنسانية .

وقد استصعبت الإنسانية بأنوار الأنبياء بُنَاة الأخلاق ، قبل أن تستصبح بأنوار «العلماء» بمئات القرون . . وكانت الأخلاق للحياة بمكان الأمومة الرحيمة ، تنمو في رعايتها الطفولة وتُسب وتُرشد ، وكانت العلوم بمكان الأبوة الساعية الجاهدة .

فالأرض مدينة لنوعين من الرجال : الباحثين في أطواء الروح الإنسانية ، المستخرجين منها وسائل طمأنينتها ، السباقين إلى إدراك سموها وتفردها ، الواضعين لها أسس قيمها الذاتية ، الرائدون بأبصارهم وبصائرهم كل أفق في الأرض والسماء ، المستنزلين لها أسرار السماء بالإخلاص والبكاء . . . وهم لاشك الأنبياء والأصفياء الذين لم يقفوا عند حدود

الكثافات والسدود والقيود المادية ، بل أَرْحَبُوا وَأَفْضَوْا فَاتُوا بِالْخَيْرِ
والتفاؤل والاطمئنان .

والنوع الثاني هو نوع العلماء المخترعين الذين يزيدون في وسائل
راحة الأجسام ، ويخففون المشقات والآلام ، وينمون قوة الخلق
والتقليد في يد الإنسان ، ويزيدون صور الحياة بالتنوع والترصيع
والتوشيع والافتنان .

ولئن كان النوع الثاني هو صاحب الدولة على عقول الناس الآن ،
لكثرة ما فتح عليهم من بركات الأرض ، فينبغي ألا ينسى المفكرون
أن النوع الأول هو مقيم أساس الحياة الإنسانية ، والآخذ بيد البشرية
حتى بلغت دور الرشد . وهو الأكبر خدمة ، والأبعد أثراً ، إذ هو الذي
بعث في النفوس طمأنينتها على قيمتها ، وأيقظها لذاتها ، وأرشدتها
لمدخرات روحها وعقلها ، وهو الذي أوجب عليها الملاءمة بين ما تصنع
وما تنتظر .

وستستحيل كل بركات العلم إلى آفات ونقم وشرور ، إذا لم تتذكر
الإنسانية جهاد آباءها الأنبياء القدماء وتقم حياتها الجديدة على أسس
ما أفنوا أعمارهم في وضعه وتوسيده ، وما قُتِلوا وصلبوا في سبيل
إعلانه وتشيينه .

غير هاتين الأسرتين السالفتين من الأفكار فهو زبدٌ يذهب جُفاء

هو باطل لاحقية له ثابتة دائمة . هو صور عابرة لتسلية النوع في جهاده
وتخفيف إعناته .

ويخيل إلى حتى درجة الظن ... أن فكر الإنسان لا يجدى عليه
شيئاً إلا حين يتجه إلى فتح جديد في عالم أخلاقه ، أو في عالم المادة للانتفاع
بها وكشف خصائصها ، ولقط أسرارها واستخدامها ، وأنه ماوضع في
الحياة موضعاً أصيلاً إلا في هذين الموضعين ...

فمعرفة بأخلاقه تقيم حياته على الصراط السوي الذي ليس فيه عقبات
وسدود من فعل الغرائز والشهوات وعقائيل الطفولة ، وتفرغه للعمل المثمر
الدائم في المادة .

ومعرفة بأسرار الطبيعة تفتح له أبواب العمل فيها ، وتنتج له
بركات من السماء والأرض ، وترقيه وتفرغه للعبادة بالفكر والعمل .
أما فترات التفلسف النظري والهيام وراء البدوات والفروض ، فتملك
لاحصول وراءها ، أو هناك محصول ضئيل .

هاتان عصوان لا يستطيع الإنسان أن يمشی بدونهما خطوة واحدة ،
وإنما يدور على نفسه كما كان في العصور الأولى ، ولو كان في
القرن العشرين .

ولا يمشی بإحداها ويترك الأخرى إلا أصيب بالعراج والتعثر .
فأمم الروح بدون علم وعمل في المادة ، أمم بأداة مستضعفة معطلة
القوى ، محدودة الحياة ، مسلووبة الحقوق .

وأهم العلم بدون الروح ، سباع ضارية ، يأكل بعضها بعضاً وتأكل غيرها ، ويتجه كل علمها وفنها إلى خدمة الشر والإثم ، وتستحيل بركات العلم فيها إلى نعم ، كما يتجه كل العلم والهندسة في الشوكة إلى قمتها الحادة وكما يستحيل الدسم في الطعام إلى سم إذا ذهب صلاحه واختلت أخلاطه .

فبعبث ثقة الانسان بنفسه ونوعه هما العلم والخلق معاً . فالأول يريه أن فكره ، موضع تجلي أسرار الله في التكوين ، وان الله يُبيحُه به كثيراً من أسرار ملكه ، لأنه مفتاحه ، ولأنه يعطيه من القدرة ما به يكون ويخرب ويشعر أنه صاحب سلطان .

والثاني يريه أن قلبه موضع إلقاء أسرار رحمة الله وعده ورافته وجماله وطهره ، وموضع إلقاء كثير من الأذواق للموجود من المعاني والصور . والأذواق هي الحياة في الواقع ، فالصور الفكرية المادية بدون أذواق ، أجسام مميّمة . الذوق هو الذي يحميها ويحددها ويدخل معنى الحياة الى القلوب بها .

وقد نرى الشيء يوماً حسناً ويوماً قبيحاً ، بينما هو هو لم يتغير ، وإنما تغير ذوقنا له . والواقع أن قلب الانسان هو مكيف مشاهد الأرض بالنسبة لنا ، ولولاه لذهب الجمال والفن .

الانتظار !

الطبيعة تنتظر — عالم جديد من الفكر والحديد —
حيوانات ووحوش حديثة — قدرة الفكر — الثقة
بالإنسان — كنوز مدخرة — حياة عريضة

كل شيء في الطبيعة يبدو عليه انتظار غاية الحياة الإنسانية ، ويبدو
على الإنسان كذلك انتظار غاية مجهولة في حياته على الأرض . . .
كل شيء ينتظر بلوغ الإنسان إلى غايته ، كما ينتظر كبار البيت بلوغ
طفل عزيز . . .

وكل شيء في البيت مسخر للطفل : تعرض أمامه أشياء البيت
وحيوانه ودواجنه ولعبه . . .

وهكذا أرى الطبيعة تنتظر صابرة غير متاملة أن يسير هذا
الطفل ويهتدى إلى الطريق المقصودة المرصودة . . . وهو لا يزال يتعثر
ويذهب ذات اليمين وذات الشمال ، ويرتد وينتسكس ، ويعتري ويحترق ،
ويُخلد إلى تراب الطريق يعبت فيه في ذهول وغفلة ، لا يعرف كيف يمد
بصره إلى حدود الأفق البعيد الذي يناديه : انظر إلى دائماً ، واضرب
بميدك ورجليك في العقبات والسدود حتى تصل .

وكان لعبته وتلبيته عذر فيما مضى ، أيام كان يدور على نفسه وسط
المبهمات والأغاز ، وأيام كانت طريق حياته ملتوية مُعتممة ، تُلغها جهالات ،

وتحيط بها أهوال . . . كل ما فيها غامض مغلق ، سواء أكان جامداً أم
حيّاً ، صائتاً أم ناطقاً أم ساكناً . . . فهو لا يرحم سائلاً ولا يجيبه . . .
كهوف وأغوار ، ورياح مجهولة المهبّ ، وأمطار غير مدفوعة بتدبير ،
وصرخات وحش وطير وبهائم ، ونجوم تطلع وتغور ، وشمس تشرق وتغرب ،
وجبال واقفة لا تريم ولا تزول ، وما لا عد له من الأهوال والأحوال . . .
ولكنه الآن راكب الريح والماء والأثير ، وطاوي الأرض في
خطفات ، ورائد السماء بالمقربات ، وكاشف الجن المستور بالمكبرات ،
وقايس أبعاد النجوم وأضوائها بدقيق المقاييسات ، وصانع « الحيوان »
و« الوحوش » الحديدية من السيارات والدبابات والمدافع والظائرات
والماخزات والغائصات ؛ فلا يلميق به أن يصر على العبث والزحام على
التراب بعد أن رأى الكنوز في كل أفق تتفتح لعينيه . . .

وكان قدراً مقدوراً أن تبقى العناصر والحيوانات خادمة له حتى يبلغ
أن يستغنى عنها بما يصنعه تقليداً لها ومحاكاة لتمامها . . .
فحين عجز الحصان وضامت طاقته عن إشباع شهوة السرعة عنده ،
ركب آلات سرعتها كذا ألفاً من الأحصنة . . .

وحين عجز الزيت والشمع عن إشباع شهوته للضوء صنع مصباح
الكهرباء فأضاء له بقوة كذا ألفاً من الشموع . . . « وحين هدد بفناء
أقواته ولباسه ابتداء يركب أقواته من العناصر التي يتركب منها النبات
واللحم . . . وصار يصنع الصوف والحري من اللبن والخشب . . . وصار يأخذ
الزبد والدهن من الـ . . . بعد أن يحلل ويعزل ويظهر بالترشيح والتبخير

والتكثيف ، كما ترفع الشمس والهواء الغازات والأمواه المقطرة من الأبول
والأقذار ، وتعيدها إلى الأرض صالحة في دوراتها الأبدية . . .
وقد رصد لكل قوة في الطبيعة مقياساً يقيس قوتها ، ويبين اتجاهها ،
حتى يحترس منها ويتقى وينتفع . . . فللأمطار مقياس ، وللضغط الجوى
مقياس ، ولاتجاه الرياح مقياس ، وللزمان مقياس ، والمسكان مقياس ،
وللحرارة والرطوبة وغيرها مقياس .

وأظنه بهذا ، قد وضع عينه وفكره على حركة كل شيء واتجاه
كل شيء في الطبيعة . وذلك كله بمثابة خيوط الشبكة الحديدية التي ابتداءً
يطرحها على قوى الطبيعة التي تنفعه أو تضره في مرافق حياته . . . وهذه
الأرصاء التي رصدها لا بد ستنتج له عالماً فكرياً جديداً يجب أن يسلم
روحه إلى عالم روحي جديد .

أجل ، إنه عالم جديد من الفكر والحديد . . . ! الفكر المُطلق البارد
القائض لأسرار المادة والقوة . . . والحديد الطائع البليد القاسى المتمم
لإرادات الرجال . . . الذى وجد فيه القلب الإنسانى أعظم معبر عن بأسه
وتصميمه فى اختراق السدود ، فصهره وشكله بنار عزمه ، قبل أن يصهره
بنار كبره ، ويشكله بمطرقته .

ولقد ضمرت أظفار الإنسان منذ أن اعتمد عليه . وكان كشفه مبدأ
انقلاب فى حياته ، والآن يبتدىء به انقلاباً أعظم ، بعد أن سلط عليه
خياله وعلمه ، وصار يطير به ويزحف ويدفع ويمجر .

وهل تظنون أن هذه الأحوال التي يشهدها الإنسان الآن لا تترك في
نفسيته آثارها المحتمومة فتخلقه خلقاً آخر؟

أتظنون أن قلبه وفكره لا تغيرها رؤية هذه الطرق الحديثة في البناء
والإنشاء والهدم والسرعة والانقراض والحشد والتعبئة ومعاشرة هذه
الوحوش والحيوانات الحديدية؟

إن من شهد تغير العالم بعد الحرب العظمى التي أظهرت قوة الآلة
واختفى وراءها الإنسان ، يوقن أنه ستختفي بعد هذه الحرب أشياء
وتظهر أخرى ...

وأتوقع ألا يقيم للفردية والأنانية الشخصية والقومية بعد هذه المرحلة
وزن ، بعد أن رأى الفكر أن ملايين من الجماعم والقلوب البشرية تُسحق
وتحرق بمصهور النار ، وملايين من المعابد والمعاهد والمنازل المقدسة العاصرة
بالتحرف ومخلفات العلم والفن والجمال ، تنسف وتُذرى في الريح هشيماً
وهباءً ودخاناً ...

لقد احترق الإنسان الأوربي مع جميع ما جمعه من الذهب وأقامه من
البيوت والمحاريب والتماثيل ...

ولقد اختفت ملابسات روح الحياة الرفيعة الهادئة الضعيفة المائلة في
اللحم والدم والأعصاب والإحساس ، وابتدأ عالم جديد من فكر مجرد
يكاد يكون غير مصحوب بإحساس ...

وقد لبس الفكر أجساماً من المادة العمياء ، وكأنه قد انفصل عن
الأجسام الإنسانية ، واختبأ واستتر في السيارة المصفحة والدبابة والطائرة .

وصار يدبُّ ويطير بهذه الأجسام الحديدية كأنه هو والحديد الذي يختفي فيه جسم واحد . فهو الآلة كالروح والعقل في الجسم الحي . وقد صنع الآلات أحشاء فيها حرارة ونبض ، ولكن ينقصها السر الإلهي الذي في « الأميبة » ذات الخلية الواحدة ، ويخيل إلى أن الإنسان هو ذلك السر الإلهي لتلك « الحيوانات » الحديدية !

وحين قصرت دواب الأرض التي سخرها في خدمته عن سرعة عقله ، صار يبحث عن القوى المجردة كالكهرباء ويلبسها أجساماً من الجاد ، ويسيرها بها بطاقة عظيمة مصحوبة بفكره وتسديده . فهي أطوع للإنسان من الحصان ، لأنها ترى بعينه وتتحرك بسرعة فكره .
وأخر خطواته في هذا الطريق الآن هو استخدامه اللاسلكي في إدارة الآلات والسيطرة عليها ورصدها وملاستها بفكره من بُعد . .
ولاندرى ما يأتي به الغد من أعاجيبه في هذا السبيل .

والفكر المجرد طليق في غير حدود . والوجدان والاحساس مقيدان في حدود الأذواق والمشاعر . فإذا لم يصحب الفكر بالوجدان والاحساس اخترق الإنسان به الآفاق في سرعة فائقة كأنه شعاع ثاقب ، بل هو أسرع من الشعاع . بل ليس شيء أسرع من الفكر .

ولقد يخيل لفكر الانسان أنه يستطيع أن يضع يده في النار فلا تحترق ويمشي برجليه على الماء فلا يغرق ، ويسلم جسمه للريح فيطير ، وينظر بعينه وراء السدود فيرى الآفاق . فالفكر لا يرى كل أولئك مستحيلًا . .

ولكن الوجدان والاحساس يقيدانه بالحدود الموضوعه للمادة ، ويهددان
الجسم بالألم إذا لم يعترف بهذه الحدود والقوانين .

وقد خيل الفكر لبعض « السفسطائيين » اليونانيين القدماء ،
أن كثافة الأجسام وهم من الأوهام ، وأقام الدليل النظرى لمعارضيه
على ذلك ، فتحدّوه أن يخترق بجسمه الجدار الذى أمامه ، فقام واندفع
اليه بقوة ، وكانت النتيجة المحتومة : تحطم جسده وقدّخ رأسه .

إن فكر السفسطائى لم يخطئ في توهمه استطاعة اختراق الجدار ،
ولكنه أخطأ حساب الوجدان والاحساس . والحقيقة أن الفكر لاحدود
له مادام يسير وراء القوانين الطبيعية .. فلقد استطاع أن يخترق الجدران
والجبال بالصوت والصورة والحركة حين خضع للنواميس الطبيعية فخضعت
هى له كذلك . ولست أدري أقرب أم بعيد ذلك اليوم الذى يستطيع
الانسان فيه أن يخترق الاجسام بالاجسام ، مع وجود الالتئام وعدم
الصّدّام ، وأن ينقل الأجسام من مكان إلى مكان كما ينقل الصور والحركات
والاصوات ، وبالسّعة ذاتها التى يجرى بها هذه المدهشات ؟ !

إن الثقة بالعقل الانسانى بعد أن فعل ما فعل في تغيير الأرض ينبغى
أن تكون من البدائه ، للانتفاع بها في بناء الحياة الجديدة .

وكما آمننا بعلم الطب لتنظيم حياة الأجسام ، ينبغى أن نؤمن بعلم
النفس لتنظيم حياة الأرواح .

وقد كان الانسان في الحقب السابقة منزوع الثقة بنفسه ، لكثرة
ضغظ عوامل الطبيعة عليه ، وكثرة العقبات التى تعترض سبيله وتجعله

يشعر بحقارته وضعفه وسط عظمة الأسباب والقوى الطبيعية .

ولكنه بعد أن تمكن من صنع أغلب الأشياء لنفسه ، والانتفاع بأكثر القوى ، والمناعة ضد الأوباء والطوفان والقحط والصواعق ، يجب أن يكون إيمانه بعقله إيماناً أصيلاً ليصنع به مستقبله صنفاً يريجه ويرقيه ويجعله يتفرغ للفكر فيمن خلقه قادراً هكذا . . . !

إن الانسان يأتي بأعمال عظيمة في صميم غايات الحياة وهو عنها غافل لا يدرك ماذا تكون نتائجها في مستقبله ومركزه .

وإن مصانع « الولايات المتحدة الأمريكية » وحدها مثلاً تخرج في كل دقيقة سيارة كاملة ! هذا جبروت وملكوته إنساني واسع يتفتح أمام عيون الراصدين لحركات الإنسان .

فهذه السيارات « حيوانات » حديدية ، تولد كاملة من « أصلاب » المصانع و « أرحامها » ! ولا تجبو ولا تدرج ببطء الطفولة الحيوانية ، وإنما تسير بسرعة الفكر الإنساني كما قدمنا في هذا المقال .

وهي وأشباهاها مما نتج من اللقاح بين الفكر والحديد ، قد ملأت الأرض وأدالت دولة الخيل والبغال والإبل ، وصيرتها أشياء أثرية يوشك الناس أن يحتفظوا بها في المتاحف أو حدائق الحيوان .

في كل ذرة رمل ، وقطرة ماء ، ولعة شعاع ، وخفقة نسيم ، كنز مدخر لمستقبل الانسان على الأرض .

فليعرف ذلك الذين يشكون الفقر وشح الموارد الطبيعية . أولئك

الذين يثيرون الحروب من أجل الطمع والاعتصاب « أن تكون أمة هي
أزبى من أمة » .

وليس لهموا قياد الإنسانية لعلماء الطبيعة الذين يضربون معاولهم على
كل منجم في الأرض والماء والهواء والشعاع .

ولنأخذ الحياة عريضة ، بالانتفاع بكل ما في الأرض ، وباستعمال
جميع قوى الإنسان والجماد والحيوان ، وباستخراج كل كامن من النبات
والركاز ، وباستنزال كل معلق من الشعاع والماء والهواء ، وبتوليد كل
ما يمكن أن يولد من العناصر والقوى ، وبوضع كل شيء أمام كل شيء
لينشأ من الأوضاع المختلفة التي لا عدد لها ، حيوات جديدة معقدة لا عدد
لها ، يترقى بها الفكر والحياة ويفزر فيضهما ، وترحّب بها آفاق النفس ،
ويظهر لنا بعدها أن الكون ملىء بالأسرار وكلمات الله التي لا تنفذ !

منابع الفكر ومصائبه !

انتقال أسرار الطبيعة إلى الفكر — من أمارات جهوت الفكر — من عجائب
حيوته — خليفة القهار — إدراك المادة ثم النفس ثم الله — لا عمق في
العالم المادى — للفكر مجال مؤقت ومجال منتظر — باب مفتوح وباب
مغلق — مضى عهد مضغ الكلام — لاسدود أمام الانسان — الطبيعة
هى الحكم فيما يمكن ومايستحيل — تربية تعلم غزو الطبيعة — الطبيعة
المطبعة — عصر الاحساس بقدرة الفكر — أسئلة يجب ترديدها دائماً

يرى الفكر البشرى نفسه وحيدا ككلاح تائه وسط هذا الكون
المفسيح ، وليس له إلا دليله الخاص الذى أخذه من نواميس متحدة
فى النفس وخارج النفس .

وقد ألقت الطبيعة أكثر صورها إلى فكر الإنسان ، وانتقل إلى
ذهنه جانب كبير من أسرارها وقوانينها ، فصار يقلدها ويصنع فى
موادها ما يشاء من ألوان التجسيم والتشكيل والتحرك ، ويسلط
بعضها على بعض ، وصار له مقام معلوم ملحوظ بين عوامل التكوين
والتخريب فيها .

وقد وصلت يده إلى منابعها وموادها الأولية : فهو يبحث الآن فى
الذرة والكهرب ، ليعرف المبادئ الأولى للمادة والقوة ، والدفعة الأولى
التي ابتعثتهما ودفعتهما ...

ومن أمارات جهوت الفكر البشرى أن يحاول فى كثير من

الأحيان أن يتدخل في تخطيط الكون ، ويرسم له صوراً مبتدعة ،
ويقترح له وجوهاً أخرى غير ما هو عليه !

بل هو يحاول أن يفرض نفسه غريباً عن الكون ويدخله كمتفرج
من عالم آخر ، فيحكم عليه ويصفه ويعجب به ، وكأنه موفد من عالم آخر
وكان له كيانات يستمد من منبع غير طينة الكون المادي .

بل هو يحاول أن يحكم على الله العلي الكبير بمقتضى إدراكه هو !
وكانه يفرض أن علمه بقوانين الرياضة والميكانيكا والجمال والتكوين ،
سابق على الكون ذاته !

إن هذا يدل على أن الفكر البشري عميق المآخذ والمصادر .
ومردُّ جميع هذا ومنشؤه ، أن فيه سرا من روح الله الكامل
القادر العالم الجبار .

ومن عجائب حيرة الفكر البشري ، كشفه عن حيرته ذاتها في
تعرف القانون المادي العام الذي يسير الكون ، وتردده بين الأخذ
بقانون « السببية » الصارم ، وبين مذهب « الاحتمالات » الذي يقول به
بعض علماء الطبيعة في العصر الحديث . وهذا يكشف عن أن وضع الفكر
في الكون هو وضع المتفرج الحائر الذي يدس يده في مصانع الله التي
يصنع بها الطبيعة وظواهر الوجود ، فيدهش .

ولعل في ذبذبة الفكر بين الأخذ بالوجهين حملاً للفكر نفسه على
الأيض واليغتر ويضل فيجعل الخالق نفسه خاضعاً لقوانين الطبيعة فتتحكم فيه كما
تتحكم في غيره ؛ أي أنه يجب أن يعلم من خلال حيرته بين القولين ، أن

باريء الكون قد يجوز أن يسيّره بقوانين متناقضة ليبرهن على أنه تعالى غير خاضع لأحدها . فهو يخلق بالقانون ونقيضه في الوقت ذاته .

وإن وضع الفكر في الكون هذا الوضع الحر الحاكم المتردد في أحكامه ، المدرك لوجوه الصنعة المختلفة المتناقضة الأسباب والتعليلات ، لدليل على أنه من روح الله الذي لا يخضع للكون المادى وقوانينه ، لأنه هو خالقه وخالقها . فالفكر كذلك قد جعله الله على شاكله مصغرة من روحه تعالى ، أى أنه يعلو فوق مستوى وجوه التناقض الذى قد يبدو لبعض العقول ، وينتفع بها جميعا .

هذا على فرض أن مذهب الاحتمالات صحيح وأنه ليس [مودة] يقول بها بعض علماء الطبيعة .

وفى رأى أن قانون السببية هو القانون الذى يغمر الكون كله فى أعماقه وظواهره ، ويتفق مع منطق الحياة على الأرض ومنطق الانسان العام ، ويحفظ على الفكر البشرى يقينه وألفته فى أحكامه ، وتنتفع به الإرادة البشرية والجهد الانسانى ، بخلاف مذهب الاحتمالات الذى لا يورث إلا الشك والحيرة والذبذبة وعدم اليقين بسبب ما .

ويحيل إلى أن مذهب الاحتمالات إنما أوحى به إلى بعض العلماء أنهم رأوا يد الله طليقة فى الطبيعة غير مقيدة ، فهى تنتج الشئ من سببه المعروف ، وقد تنتج من نقيض ذلك السبب فى بعض حالات الشذوذ التى تشير إلى القاعدة العامة لفت الأنظار إليها والتنبيه عليها .

مذهب « الاحتمالات » هو نظرة البارىء إلى الكون المادى الذى

يبدو متحجراً لدى كثير من العقول التي لم تعرف ما عند الله من القدرة .
وأما نظرة الإنسان المحدود العاجز فينبغي ألا تتخذ الاحتمالات محوراً
لتفكيرها فتضيع في عباب الفروض .

* * *

إن الله قاهر فوق الطبيعة ، وهو يدرّب « خليفته » في الأرض على
التغلب على العقبات التي تعترض طريق أحلامه الطليقة وأفكاره المحررة
من قيود المواد الثميلة . والله أنشأه في الضرورات والآلام ليفتق الحيلة
للخلاص منها . وإذا اطرد السير على منهاج تاريخه الذي عرفناه ، فسوف
يتغلب على أكثر العقبات .

إن فكر الإنسان يتدرج غير واثق عند نهاية ؛ ونموه في ذاته يجعل
الطبيعة نامية به . وأرجو أن يفهم هذا القول فهماً عميقاً ، لأننا إذا فهمناه
هذا الفهم أدركنا موضعه ورسالته في الوجود ، وأحللناه محلاً رفيعاً يدفعه
إلى العمل والسير في منهج واضح ، وحملنا ذلك على أن نحوطه دائماً بقوانين
تحفظه من الارتداد والضلال ، وننتدرج به حتى نستوعب كل مباحث
المواد والقوى ، ونستخرج به أسرارها الكامنة ، وننتقل به نقلة تسلمنا
إلى الوقوف على عتبات عالم آخر ، لعله أن يكون عالم الروح ...

ويبدو أن إدراك عالم الروح لا يتأتى إلا بعد إدراكنا مافي الكون
المادى إدراكاً كاملاً ؛ وهذا هو سر قلقنا ونبشنا في الطبيعة وعدم إخلادنا
إلى ركن واحد منها ؛ فنحن كلما أخذنا من الطبيعة سراً ، أحسنا أننا

نقترب به إلى إدراك روحنا الجزئية ، لندرك من وراء ذلك علماً من
الروح الأكبر !

أجل . إن إدراك الكون المادى كان لا بد منه لإدراك الروح ؛ إذ أن
الفكر صار يرى كل عمق في الحياة المادية ضحلاً بعد ترديد النظر
عليه واستيعابه بالإدراك . وطبيعى أن تشعر النفس بعد هذا الاستيعاب
أنها أوسع وأعمق من الموجودات المادية ، وأن ترى آفاق الحياة المادية
عددية لا أكثر ، وليس لها عمق ولا نهائية ؛ فهي في موجودات الطبيعة
ومستحدثات الإنسان لاتعدى اختلاف النسب التركيبية بين العناصر التي
تزيد قليلاً على التسعين .

وما يخيل إلى البعض من أن هناك أعماقاً وأغواراً لاتنتهى في المادة ،
إنما هو صورة مما يحدث للناظر إلى لوحة فنية بارعة ذات صنعة موحية
مثيرة للشعور باللانهاية ؛ حتى إذا ما كشط سطحها قليلاً ، تذكر أنها
ليست أكثر من تمويه وتخمين وبراعة في بسط الأصباغ والأضواء
والظلال وقبضها ، وتكشّف له السطح الزاخر باللانهاية عن باطن محدود
لايتمدى ألوان الطيف السبعة !

إن الإنسان لم يعد يؤلّه الماء والنار والهواء والتراب ، ويفرغ عليها
أوهام القداسة والهول اللذين كانا لها في ذهنه قديماً ، بعد أن حمل عناصرها
وركبها وتسلط عليها وسبر أغوارها . ولم تعد النفس العالمة التي تشرف
على لجة البحر أو لجة الهواء ، أو أغوار التراب ، أو جحمة النار ، ترى
فيها أكثر من مواد وقوى عمياء محكومة بقوانين أخذتها النفس

في حوزتها ، وجعلتها من مدّخرات فكرها ، وتستطيع أن تولد بها
ناراً وهواء وماء ...

إني أشعر حينما أقلب بصري في آفاق السماء وآفاق الأرض ، أن
فكري لا يسترسل في التعمق فيها إلى ما لا نهاية ، بل يقف عند نهايات
معينة هي العناصر المحدودة التي تألفت منها مادة السماء والأرض ، والنسب
الهندسية والحسابية التي قام عليها بناء الأجسام وتشكيلها ؛ ثم يبدأ
الإحساس بعماء لا صور فيه ولا خواطر عنه .

وطبيعي أن نظرتي هذه لا يكون وراءها إحساس بخشية من الطبيعة
ذاتها كما كان الأمر عند سكان الأرض القدماء الجاهليين ، لأن عناصرها
حللت ، وأسرارها عرفت ، وصورها طبعت في النفس ، ولكن يكون
وراء هذه النظرة إحساس بخشية ورهبة من ذلك العالم القادر الذي خلقها
هائلة هكذا ، وجعلها بهذه النسب الرياضية والهندسية والقوى الدائبة الجبارة .

إذا ما هو المجال الحيوي غير المحدود لهذا الفكر الإنساني الذي يرى
عمق الكون المادي ضحلاً بعد ترديد النظر عليه ومعرفة أسرار تركيبه
وقوانينه الهندسية والرياضية ؟

إنه لا بد عالم لانهاى لا تدركه الأبصار والمناظير ، ولا تحمله المخابير ،
ولا تسبر آفاقه المسابير والمعابير ، ولا تدركه علوم الزمان والنسكان !
وطبيعي أن هذا المجال الحيوي بهذا الوصف ، لا يمكن أن يكون
للفكر الإنساني قدرة على إدراكه هنا في هذه الدار التي نعيش فيها

بالحواس وقيود المواد الثقيلة الكثيفة ، والفكر المحدود .
ولهذا يجب أن ينصرف الفكر الإنساني عن محاولة اقتحام هذه
السُّبُحات ، ويتوجه إلى المجال المحدود المؤقت الذي وضعنا فيه لندرکه
هو أولاً ، ونفرغ من استيعاب أسرارهِ وظواهرهِ .

وإن من يريد التعمق الآن في إدراك ما وراء الطبيعة ، ولا يقنع
منه باللمحات والخطفات ، فلن يظفر بمحصول غير الشرود والخبال .

وقد برهن تاريخ الإنسان على ذلك . فالأمم التي لاتزال تطلب في
هذا العصر علم اليقين بالنفس وبالله ، قبل إدراك قوانين العلم الطبيعي ،
والتي لاتزال تطلب الله على طريق الشعر والوجدان وحده « كالمندوس »
ولا تطلبه عن طريق البحث في أرضه وهوائه ومائه ، والتطلع العلمى إلى
سمائه ، ولا تقصُّ آثار يده في صنع نماذج الطبيعة ، لتعرف مقدار ما عنده
من العلم والإحاطة بالجزئيات والكليات ، ولا تلخص أسرار صنعته
وتحتزلها في قوانين ومعادلات حسابية وجبرية ، ولا تحاكي نماذج الطبيعة ،
إنما هي أم بدائية ضالة طريق تحقيق الأوطار والأشواق إليه ، جلَّ مجده !
قليلة العلم بما عنده من أفانين تتجدد ولا تنفد ، تعرفه عن طريق العواطف
والرموز ، لاعن طريق الفكر والوضوح .

إن الإرادة العليا مصرّة على إغلاق ما وراء الطبيعة الآن أمام
فكر الإنسان ، ولعلها تفتحه بعد أن يفرغ من إدراك كل ما في
الطبيعة أولاً .

أما الطبيعة ذاتها ، فقد دل تاريخ العلوم على أن أبوابها تفتح لمن تركوا

اتخاذ الكلام غاية وحيدة للحياة ، وعكفوا على محاربيها وأطفالها
وموجوداتها ، يقلبون النظر والفكر واليد فيها ، ثم يتكلمون بعد ذلك .
إن الكلام وسيلة لا غاية . هو قوالب لا خزان المعاني التي تنشأ من
المزاوجة بين خواطر الفكر وخواص المادة . هو أوعية الحقائق المرفوعة
من الأجسام إلى عالم التعبير والصور والأرقام . فلا يصح أن يمتلىء
بتكاذيب الأمانى وتخييلات الأحلام ، إلا أن تكون تمهيداً من عالم
الخيال والمثال لعالم الواقع . وكثيراً ما هدت سوانح الشعر إلى حقائق العلم .

فلا يضعن أحد السدود النظرية أمام عمل الإنسان في الطبيعة
مادامت هي تلبيه وتفتح له وتنتج . ولا يجوز حمله على السكون والركون
إلى مواريث الأفكار القديمة التي تجعل الطبيعة أمام الإنسان حرماً
مقدساً ، يجب التهيئ من الشروع في تغيير شيء فيه ، أو تنقيحه
بالزيادة أو النقصان .

نهى وحدها الحكم الذي ترضى حكومته فيما يمكن وما يستحيل .
فما دامت تفتح له الأبواب وتهتك الأستار ، فليدخل وليرتد ،
وهو موقن بأن هذا من عمله الذي خلق من أجله . . . وليس إبقاء الطبيعة كما
هي بدون تغيير عبادة ، كما كان الزعم القديم ، ولكن صار تغيير الطبيعة
إلى الأصلح هو العبادة . . .

والتربية الناجحة هي التي توحى للنفس ألا تتقهقر وتتضاءل وتنزوى
في نفسها أمام قوى الطبيعة ، بل تجعل من النفس قوة غازية موجبة غير

سالبة ، تؤثر في الطبيعة بالتسخير والتحويل والتنقيح ...

والتربية الشرقية على العموم ، لاتزال تؤول قصور النفس الناشئ
عن الجهل والكسل والعجز أمام الطبيعة ، بتأويلات تحمل فيها الأقدار
العليا أكثر مما تحمل ، وتفر من وجه السدود والعوايق ، تحت تأثير
قناعة مصطنعة ، تحيكلها أخيلة طفلية ، ولا تأخذ ما في الحياة ، وإنما
بأخذها ما في الحياة .

وكان الشرقين لما وجد المرء منهم نفسه ضعيف الحجم وسط هذا
الكون العظيم ، استكبره على نفسه فاحتقرها بالنسبة له ، وأثار في نفسه
شكوكا في قيمتها فنشأ عجزه ، أو قل امتد عجز آباءه القدماء اليه ، فاضطرت
حياته ، وصار رهين الأرض وأمراضها .

وقد كان الاعتماد على « القوى السحرية » هو أساس العمل لتحقيق
الأمانى عند الشرقين على الأخص ؛ والآن صار الاعتماد على القوى الآلية
في الطبيعة هو أساس ذلك العمل .

وأعمال العلماء الطبيعيين قد اكتسبت من جبروت الطبيعة شيئاً
من الهول والاجتياح والاتساع ؛ فمدافع « كروب » الثقيلة البعيدة المرمى
والقنابل الشديدة الانفجار ، والقنابل الطائرة البعيدة المدى ، والقلاع الطائرة
والمناطيد ، والخزانات العظيمة ، والمحطات الكبرى لتوليد الكهرباء ،
والمصانع ، والإذاعة المبنوثة باللاسلكي ، وتعبيد الطرق العظيمة كطريق
(نيويورك - ميامي) مثلاً ، أو إكسبريس الشرق ، وغير أولئك ... كلها
أعمال عظيمة تمتاز بطابع الاتساع والهول والجهد الجبار .

فماذا ينتظر الفكر الإنساني بعد فراغه من هذا التسلط؟ وما هي النتائج؟ وأين مصائبه التي يصب فيها تياراته وفيض عبقرياته؟ أهى المغالبة والمنافسة والشهوة على الأساليب التقليدية الجاهلية؟ إن هذه النتائج لا تتلاءم مع عالم فكره العالى، ولا يصح أن تكون أهدافاً لهذه الصرامة وهذا الجِد العظيم الذى تسير به الحياة وقوانينها فى خدمته... وإن المغالبة والشهوة بأساليبها المعروفة والوضيعة، ينبغى أن تكون غير ذات خطر عنده بعد أن عرف آفاقاً جديدة لشهوات رقيقة، وهى تحقيق أحلامه فى الكشوف العلمية والانطلاق السريع بالطيران والسبح والسبق وإزالة الحواجز والسيطرة على القوى الآلية، وغير هذا من طلائع مجده وملكوته المرتقب!

فلنبداً عصر يقظة لحياتنا الممتازة، وإحساس بقدرتنا الفائقة على الأعمال العظيمة. وليكن ديننا هو حيرتنا ودهشتنا: كيف خلقنا؟ وكيف اقتدرنا؟ وكيف نعلم؟ وكيف نعمل؟

والراحة الدائمة هى فى أن ندفع بأجسامنا وأفكارنا إلى رحاب الطبيعة مفكرين فيها باحثين عاملين... وبارواحننا بين يدي ربها متعرفين اليه صابرين على الدهشة والخيرة والإيمان بالغيب حتى يأتينا اليقين فى الآفاق وفى الأنفس. ولا بد وراء ذلك من تأويل ويقين!

قد تطير الطير فى أجواز الفضاء وهى فى ذهول...

وقد يسبح الخوت في جوف العُباب وهو في ذهول ...
وقد تَدْرُجُ الوحش والأنعام والبهائم على أديم الأرض وهنَّ
في ذهول ...

ولكن ابن الانسان ينبغي له أن يتساءل دائماً: كيف أحيا؟!
كيف أفكر؟! كيف أدْرُجُ؟! كيف أسبح؟! كيف أطير؟! ثم
كيف أريد وأقتدر؟!!

وينبغي له ألا يغفل عن ترديد هذه الأسئلة :

ما الذي أخرج الإنسان من رُكَّام المَوَات والجود ومختلط القوى
العمياء التي يزخر بها الكون؟

وما الذي وضع فكر الإنسان واختياره وسط الدورات الجبرية التي
تداول الأرض؟

وما الذي هيا له مهاده الوثير المريح المستقر وسط النيران والصخور
وتدافع القوى العمياء؟

إن رحلة واحدة في جوف الماء الزاخر ، أو الهواء الدافع ، أو النار
المَوَّارة ، أو التراب الثقيل الفادح المتراكم . . . كافية أن تشير لنا إلى
موضعنا وخصوصياتنا في الكون ، وإلى رعاية من أخرجنا وسط هذه
الأهوال والقوى العارمة المجنونة ، في مهادٍ من رحمته ، بين عوامل
جبروته وسطوته !

أدرکت الثمار وآن القطف !

آلهة وحيوانات — عمل الطبيعة في تكوين الانسان الواحد — عصر
الفوران والغليان — مدنية خالدة ذات سلطان عجيب شامل — جئنا
لنجيا لانتوت — الحياة بالفكر في الجاهل والمعامل

إذا جردنا الإنسان مما أسبغته عليه الحياة المدنية من أفانينها
وأنواعها وأشكالها ، ظهر لنا أن البون بعيد جداً بين الإنسان الذي
أخرجته الطبيعة ، وهذا الإنسان الذي غيرته الصناعة وتعقيد الفكر ،
وظهر لنا أن حياته الصناعية عالم مستقل منفصل خلقه هو . ولكنه عالم
غير خالد ولا متوالد إلا باطراد تقدم الإنسان . بخلاف مخلوقات الله في
الطبيعة فإنها أبدية دائمة تعمر بها الطبيعة .

وكما فكرت في الفرق العظيم بين حياة رجل على الفطرة ، وبين
حياة رجل ألماني أو أمريكي أو إنجليزي ، وعقدت موازنة بينهما في المأكل
والملبس والملهي والمركب والعمل والإنتاج والفكر ، والإحاطة بآفاق
الدنيا ، والتسلط على الطبيعة ، ظهر لي أن الأول ينكاد يكون في صفوف
نوع آخر غير الإنسان ، وأن الثاني ينقصه الروح والعدل والإيمان ليكون
الإنسان المنشود البار بوصايا الله ؛ لأنه هو الذي أحسن الأخذ عنه ،

وخلفه في الماديات خلافة واسعة ، ونمت على يده الحياة وتنوعت ،
وتشقت مجاريها وتوسعت ...

ولا يجوز عقلاً أو شرعاً أن يعطى الأول كرامة الحياة وعزتها ، وأن
يتسلط على الثاني ، مادام كل منهما على حالته . كما لا يجوز لحيوان أن
يسخر إنساناً .

وكما استعرضت معارف الإنسان المدني المدونة في كتبه وصحفه وألواحه
وأرضه وآثاره ، أدركت مبلغ ما حمله من أمانات الحياة ، وأسرار الدنيا .
ولا شك أن الإنسان المدني العادي الذي يقرأ صحيفة يومية ، يحمل
ذهنه من قضايا للعالم وأخباره في الصباح والمساء ، ما لم يكن في حِسبان أحد
من السابقين ووجدانه ...

ولا شك كذلك أن هذا قد ترك أثره الواسع الشامل في تكوين
الذهن الإنساني الحالي ، وتكليف أعصابه وإحساسه بالحياة على غير
ما كان عليه الناس في زمن المواصلات والثقافات المحدودة .
فالأقدار تصنع عقل الإنسان الحديث وقلبه صناعة تشترك فيها كل
معارف الحياة العصرية .

ومن الأعمال العظيمة التي تقوم بها الحياة الآن ، عملها في تكوين
الإنسان الواحد الخاضع لمؤثرات واحدة . ونحن الذين يقع علينا تأثير أعمالها
العظيمة ، ونعيش في غيبوبة عن خطواتها بنا ، لا يدرك منا هذا التأثير
إلا الراصدون المسجلون الذين تجعلهم الأقدار مخصصين لرصد خطوات الحياة
وتسجيل ظواهرها . وهؤلاء يكادون يكونون ناديين عن حبال الشبكة

التي تَلَفُ غيرهم من أبناء الحياة .

لقد تركزت المعلومات ، فصارت القارات كالقمرى ، وملايين الجنود كأصابع اليد ، والدبابات كالنعال ، والطائرات كالعصافير ، وأخبار العالم الإنساني كله كأخبار الحى الواحد . . . !

وهكذا تتركز الحياة وتتلخص فى فكر الإنسان ، وتختزل صورها العظيمة فى أرقام وحروف . . .

هذا العصر جدير أن يسمى « عصر الفوران والغليان » — على سبيل التشبيه بسطح ماء فى وعاء على نار — فقد لبث سطح الحياة ساكناً فى عصورها السالفة ، لا يتحرك إلا حركات موضعية ، كما يلبث سطح الماء أول ما يوقد عليه فى النار . حتى إذا وصلت حرارته إلى درجة الغليان ، هدر وفار واشتد وقذف وتبخر وتحول . . .

إن عوامل الحرارة كانت تحته من قديم ، ولكنها لم تصل معه إلى درجة الإنضاج والحركة السريعة والتحويل إلا أخيراً . وكذلك عصر الإنسانية الحالى ، هو عصر ظهور كوامن أسرارها وأسرار الطبيعة ظهوراً شديداً متلاحقاً .

وقد انكشفت حيوات جميع الناس للناس ، فعملوا أنواعهم ولغاتهم وأديانهم ومذاهبهم فى الحياة .

وقد كانوا ضائعين مغمورين تاهين كأسرة مفرقة ، فرقها حادث ، ثم جمعهم الظروف مرة ثانية .

إني أتخيل صورة الدنيا في عقول ساكنيها الأولين ، وصورتها الآن
في عقول بنيتها المثقفين ، فيصيدني دهش مشوب بفرح وبهجة وشكر لله
على تسديده الإنسان إلى غاية ابتدأت تنكشف وجوهها .

وكان الأنبياء والحكماء القدماء وخدمهم المدركين وجهات الحياة .
وكانوا في الناس ما يكون البصير بين عميان ، والأب الكبير بين صبيان ،
والراعي بين قطعان . وكان قليل من الناس هم الذين يدركون ما يشيرون
إليه . ولكن الآن صار العلم والدين والإدراك الصحيح شيئاً مشاعاً كالهواء
والماء ، تقاربت فيه المعتقدات والآراء .

أجل ، هذا زمن حصاد جهود الإنسانية ؛ فقد أزهرت الأزهار
وأدركت الثمار ، وظهر الحقل مستوى السوق مستغلظ الأعواد ، قد أينعت
فيه عُلب الأسرار وحن قطفها !!

انظر في بقاع الأرض جميعها ، تجد إنسانية تفتح عيونها وتستيقظ
من غفلاتها لتدرك الحياة الحديثة ، وتشارك فيها وتتلاقى مع غيرها في
خدمتها . وقد زال الإبهام والغموض اللذان كانت عقول الإنسانية
القديمة والمتوسطة تراهما في ظواهر الحياة ، وصار الإنسان معتمداً على نفسه
وحسابها الدقيق وأخذها بأساليب الطبيعة في الإنتاج والاختراع ، وترك
الاعتماد على الأمانى ، فضاقت دائرة الاعتماد على الأقدار وحدها .

ولنتلفت إلى الماضي كثيراً ، لنذكر مدى ما كسبناه وحصلناه
كإنسانية واحدة من محصولات الحياة التي وضع كل شعب وكل حضارة لبنة

في بنائها ، حتى خرجت هذه الحضارة العالمية المشتركة التي اقتحمت كل قطر وكل مدينة في الأرض ، وصارت من قدر الله الذي لا مرد له ولا مفر منه .
إنها حضارة باقية خالدة ، لن تبديد ولن تفتنى ولن ترتد ! إذ أن بذورها أُلقيت في كل مكان ونبتت فيه . فلئن ذهبت أوربا إلى الخراب والدمار ، لسوف تبقى أمريكا .. ولئن ذهبتامعاً ، لسوف يحمل المشعل أمم الشرق وتلك الأمم المنثورة في القارات وجزر المحيطات ، وغيرهم ممن اقتنعوا بأن هذه المدنية هي نبوة الطبيعة ذات المعجزات الدائمة ، التي لا مفر من الإيمان بها والعمل لها ، وأن هذا العصر هو أوان حصاد الغلال وجنى الثمار التي زرعتها وتعهدها الأقدمون ، وزادت كل أمة في ميراثها حتى صار فيها من كل قطر وزد ، ومن كل أمة مدد ورفد .

إن هذه مدنية فرضت نفسها فرضاً على الناس جميعاً : فرضت آلامها وشروورها ، كما فرضت إسعادها وخيراتها وعلومها ، وصار الناس لا يستطيعون منها فراراً ، بعد ما دخلت عليهم أقطارهم قسراً واقتداراً ...
هي قدر لازم لا فيكك منه كأنها الرياح والأمطار والأشعة ...

ومما يؤكد أنها خالدة مؤبدة ، انتشارها في كل مكان وأنها ليست كالمدنيات السالفة الموضعية ذات العصبية القومية ؛ لأنها قامت على العلم الذي لا تتناقض حقائقه بتعدد الأماكن والأجناس ، بل تتلاءم وتتوافق بتوافق قوانين الطبيعة الواحدة .

وكانت المدنيات السابقة تجارب وجذوراً متشعبة لجذع شجرة عظيمة هي هذه المدنية الحالية .

ولم يحدث في الماضي أن صبغت مدينة الناس جميعاً كما فعلت هذه المدينة ، فوضع لها الموحد والوثنى ، والملحد والمؤمن ، والزنجي والإسكيمي ، والشرقي والغربي .

ولم يحدث أن وجدت ميادين كثيرة مشتركة بين الناس جميعاً كما وجدت ميادين الاشتراك العلمي والآلي والصناعي والسياسي والأدبي في رحاب هذه المدينة .

ولم يحدث أن اشتبكت مصالح الناس جميعاً كما اشتبكت الآن بفعل السرعة ، وسهولة الانتقال ، وتبادل المنافع ، وتشعب الاحتياجات . ولم يحدث أن درست ثقافة واحدة في مدارس الأمم جميعها كما درست هذه الثقافة العصرية .

فأى مكان نجا من سلطان مدينة الزمان ؟
أى طريق لم تجس خلاله السيارة ؟ وأي جو لم تخفق فيه الطائرة ؟
وأى بلد لم يستصبح بنور الكهرباء ؟ وأي قطر لم يعرف ما عند غيره ؟
إن هذه المدينة تحيط بالإنسان في كل أفق من آفاق حياته . وإني أستعرض الآن كل ما يحيط بي وأنا أكتب ، فأجد جميع ما تقع عليه عيني قد اشتركت فيه آلاف العمليات الإنسانية المعقدة ، وقد صار إحساسى بها كإحساسى بضرورات حياتي . وأكاد لا أرى شيئاً من يد الطبيعة وحدها إلا جسمي ... وحتى هو لم يسلم من هندسة الخلاق و «رتوشه» !

ويمكنك أن تجرد الأرض مما فعله الإنسان فيها ، وما عقده وركبه ،

لتدرك مدى الحياة الأرضية من غيره ، ومدى العالم الذى أحدثه هو ...
وإذا أقيمت نظرة على شارع فى نيويورك أو لندن أو القاهرة ،
يرُوعك أن ترى ما فى مخازنه ومناظره ، وآثار الأيدي التى عملت فيه ،
حتى لا تستطيع بعض الأذهان أن تتخيل الدنيا خالية منه ، من طول
الألفة وطول الغفلة عن التفكير فى مبادئ الحياة ...

طوفوا فى شوارعكم أيها الناس بقلب ذاكر للطبيعة ، مدرك لمبادئها
لتعرفوا مقدار ما بينكم وبينها ، ومقدار قوتكم الابتداعية ، فتمتلفوا
لأنفسكم متعجبين محترمين محافظين عليها وعلى قواها الفكرية والإنتاجية
من الضياع والذهول والغفلات !

إن أفراح الحياة تغمر قلبى حين أطوف بجسمى فى المدن العظيمة ،
أو حين تطوف بى الحياة فى دور السينما ، فأرى عجائب ما استحدثه الإنسان
فى عوالم المواد والمعانى .

ولست أزهد فى رؤية الحياة المادية وتقصى دقائقها ، لأن كل دقيقة
منها ترسل فى قلبى دقيقة من التعجب والإيمان ...

ما جئنا للحيات للموت ونستحضر فلسفة الموت من أول يوم ! والقبر
ليس نهاية ، وإنما هو بداية مرحلة تالية ... فعلى الذين يجعلون القبور
نُصب أعينهم فيهنوتوا من أجلها كل عظيم ، ولو كان الصحة أو العلم
أو التفاؤل ، أن يعلموا أنهم جاءوا ليحيوا ويحسوا الحياة عميقة فيما خلق الله
من شئ ، وينتفعوا بالطيبات والزينات التى أخرج الله لعباده .
ومن الكفر أن نترك الأجسام فريسة للآفات وعوامل الشؤم ،

انتظاراً الموت الأكبر .. فيدب فيها منذ ولادتنا ...

كذلك يجب أن يكون إيمان الرجل المتمدن ، إيمان البصير الواثق بأن عمل النفس البشرية في المادة ومقاعها بها مع تذكّر الله تعالى ، باب إلى الإيمان لا الكفر كما يتوهم الأغبياء البلداء الأغرار !

إني لأعيش في نفسي وحدها ، ولكنني أعيش في نفوس بني الدنيا الدنيا جميعاً ، لأرى الحياة بعيونهم من آفاقهم ، حتى أخرج من الدنيا ومعى كثير من أسرار الحياة في القلوب والعقول .

وأنصح لأصحاب الإيمان التقليدي أن يستحدثوا في قلوبهم ونظراتهم ما استحدثت ، ليعرفوا أى لذة وأى إيمان مضاعفت يغمر قلوبهم .

وأنصح لأصحاب النظرة المادية والذهول عن المعاني ، أن يستحضروا أرواحهم وراء كل نظرة وكل عمل وكل علم ... فإن هذا هو الوضع الحقيقي لحياة الفكر ، والاستخدام المعقول للروح وقوى الجسم .

لنعش بأفكارنا وأرواحنا دائماً ، سواء أكننا في غابات خط الاستواء ، حيث الطبيعة بكرٌ غير مفضوضة ، لم يطمثها إنس ولا جان ..! أم في مصانع « فورد » بأمريكا ، حيث يدور الفكر مع الحديد في ضجة وتعقيد وقدرة !

حيث الأُنس بالانسان !

زال عهد الصمت والجمود — رسالة يبعثها سر الانسان — ضآلة لا تبعث
على الاستكانة — لاتعجلوا النتائج — موارد فياضة معطلة تنتظر الصناعة
السيد هو إنسان الصناعة — بين قيادة البقر وقيادة الفولاذ — مضى
زمن التخريف في الله وبقى التخريف في الانسان — برزخ على هوة !
سر ظهور الدين قبل العلم — أسس خفية لحماية الاجتماع — أباطل أصلح
للحياة من الحق ؟ — مم تفجر نبع الضمير ؟ — حيث الأُنس بالانسان .

قديمًا كان كل شيء في الطبيعة صامتًا جامدًا ، أيام بدء ظهور
الإنسان ، فلم يكن يتكلم غيره هو ؛ بل كان هو أيضا أ بكم محبوس اللسان
لا يتكلم إلا بمقاطع ساذجة ، وأصوات وجدانية ، وكانت وجوه الطبيعة
جامدة مبهمة ، وأبوابها موصدة .
والآن صارت الأشياء متكلمة محدثة طليقة الوجوه مفضوحة الأسرار .
أنطقها الإنسان الذي علمه الله البيان ، فعلمه هو بدوره إياها ، وجرده منها
حفاجر تحدته وتعيد عليه حديثه ، لتؤنسه في رحلته إلى صوب مجهول . . !
ولقد زادت عجائب الكون بانضمام العجائب الإنسانية إلى العجائب
الإلهية في الطبيعة ، وكان كفر الإنسان بالله ناشئًا من ذهوله عن بدائع
مخلوقاته تعالى ، وكذلك صار الآن كفر الإنسان بنفسه ناشئًا من ذهوله
عن مصنوعاته هو !

ألا إن حمله على الإيمان بنفسه ، رسالة لا تحتاج إلى رسل يبعثهم

سرّ السماء إلى الأرض ، وإنما تحتاج إلى رسل يبعثهم سرّ الإنسان ووحى
أعماله في الأرض . . . !

وقد ظل الله ربه يقول له وهو طفل جاهل قاصر عاجز : من هنا
الطريق .. إلى الحياة والملاكوٲ . . افعل هذا واترك هذا .. كن كذا
ولا تكن كذا .. حتى أدرك جادة الحياة الكبرى ، وبانت له تباشير
المدنية المنشودة التي كان يحلم بها ويطلبها من الرسل كمعجزات .. فأسرع
إليها وغمرت حواسه دهشتها وأعاجيبها ، وألهاه ذلك عن التفكير في نفسه ،
فعاش في ضجة ما يصنع كما تعيش دودة القز في الشرنقة .

وقد خلّى الله بينه وبين الحياة ، بعد أن ترك له وصاياه في
الصحف الأولى ...

قد يقول قائل من ذوى الروح المتشائمة المعطّلة : ماذا يريد ذلك
الإنسان المحدود من ضجته في الأرض ؟ ضجة حناجره ومصانعه ومدافعه
وجراراته ودباباته وطياراته وبوارجه ؟ إنه ضئيل ، وإن مسرحه ضئيل :
فهو شيء صغير على سطح الأرض ، وهي ذرّة ساجدة مع ملايين الملايين
من النجوم والكواكب ؛ فماذا عساه أن يصنع ، حتى لو ركب الأرض
نفسها وصرف مقاليد سيرها كما يصرف مقاليد طياراته وجرارته ؟ أليس
الفناء نهايته ونهاية ما يصنع ؟

فأقول لأمثال هذا : رويدكم . . . لاتعجبوا نتائج حياة الإنسان
ولا تشكّوا أنها ستكون عظيمة أعظم مما تتصورون ، بعد أن رأيتم من
فعله ما لو راها آباؤكم لما تّوا عجباً !

إنكم تشكون فيه لأنه لم تثبت لحياته نتائج دائمة ، وعندكم أن كل أعماله ملاء وسلويات في شئون خاصة ، كالشئون الخاصة بأى فصيلة من فصائل الحيوان .

كذلك قال الذين لا يعلمون، من آباءكم مثل قولكم ، إذ لم يروا ميتاً يرجع ومفقوداً يؤوب ... !

ولكن الأمر في حياة الإنسان وخلوده ليس ، كما تتوهمون ، أمراً متعجباً . إنه ثمرة لا بد من نضجها في زمن معلوم تظهر بعده نتائج خالدة ، وأسرار مخبوءة ، لها صلة وثيقة بالسكون الطبيعي نفسه ، وبالروح الأكبر الذى وراء الطبيعة .

ومادام الإنسان لم يصل الى حدود جامدة لا وراء بعدها في الكشوف والاختراعات والوقوف على أسرار الطبيعة ، فتمت له بقاء ، ولوجوده غايات ، هو لا يذهب من الأرض حتى يحقق جميع الغايات من خلقه . إن كل شىء يبدو عليه انتظار تحقق تلك الغايات المجهولة المرتقبة ، وربما يذهب من الأرض حين يستطيع أن يحول جسمه إلى قوى وطاقت تعبر الأرض في لحظة وتوجد كما تريد باذن الله !

وسيرى الذين يذهبون الآن ، أنهم بعد الموت في دور انكشاف وظهور ، إذ لا يعقل أن يمضى هذا « الخالق الصغير » إلى الفناء المطلق . ثم أقول : ماذا تريدون أن يفعل إذا ؟ أتريدونه ينام حالماً يدخن النارجيلة والحشيشة والأفيون كما يصنع أغلب إنسانية الشرق المضيعة ؟ أم تريدونه يجلس فارغاً ينتظر الموت ، وينشد الأشعار وهو الأحاديث ؟

إن عليه أن يملأ هذه الأرض بالضجة والقوة التي يستطيع تسخيرها ، وأن يسلط قوى نفسه الكامنة على هذه المواد الساكنة ، ويشيرها أيما ثورة ، ليدخلها في نطاق الحركة بعد السكون والحياة بعد الركود . ولا عليه بعد ذلك أنه ضئيل ، فوق زورق ضئيل ، يسبح في عيلم كبير

فلو نظر الإنسان إلى جبروت الطبيعة وهول السماء ، لاستصغر جهده على الأرض مهما عظم ، ولم يفعل في حياته إلا ضرورات احتياجاته . وبالطبع هذا يردّه ضعيفا مستضعفا ، شقياً ، فريسة لغيره كما كان . ولكنه إذا آمن برحابة نفسه وقوة فكره وقدرته على أن يفعل الأعاجيب ، وأنه على ضؤولة جسده ، يستطيع أن يحرك الجبل وينسفه بتسليط قوة طبيعية أخرى عليه ، إذاً كان هذا عليه أنفع وأجدى ، وكان أشرف له ، إذ يجعله قوة من القوى العاملة في الحياة .

إن الطبيعة تغازل فكره وتشيره للعمل فيها منذ أيامه الأولى ؛ فالطفل يبحث في محيطه ويسلط جميع حواسه على محتوياته ، فيراه ويلامسه ويذوقه ويتسمعه ويشمه ، حتى يحيط بخواصه ويشير كوامنه ويطلقها خيراً من تعطيها وسجنها .

وقد وجدنا كل ما في الطبيعة من مواردها الكبرى بسيطاً غير معقد ، فياضاً بكميات كبيرة جداً ، خاضعاً للتعقيد والتركيب والتأليف والتوزيع والتنويع فدلنا ذلك على أن هذه المواد إنما وضعت هكذا هائلة فياضة ، انتظاراً لصنعة ستتناولها بها يدُ صناع .

وكما رأيت غزارة الماء - وهو أصل الحياة - وكثرة المقادير التي تصبها الأنهار في البحار فتذهب من غير انتفاع إلا بجزء قليل جداً منها ، قلت : إن هذه الكميات الهائلة إنما أفيضت لإخصاب السهول الحافة بها فقط ، والتي تصل إليها مياهها في سهولة ويسر ، وإنما أفيضت لإخصاب هذه الأراضي البور من الصحارى والسهوب الضمأى العقيم ...

وكما رأيت مناجم الأرض تمتلئ بالمعادن والركاز المعطلة ، وهي ذات النفع العظيم والإمتاع الدائم ، قلت : هنا مواد ظلت الطبيعة تحفظها في صدرها ، حتى أتى يوم بعثها على يد من عرف أسرار الانتفاع بها في زمن نمو علوم الآليات والكهرباء .

وكما رأيت أغلب مناطق الأرض لا تزال خالية من السكان أو غير متشعبة بهم ، قلت : هذه مساكن احتياطية لأقوام آتين ستلجئهم ضرورات الزحام إلى سكنائها وتعميرها وتعديل مهوردها وأجوائها وإخصاب بقاعها .

وكما رأيت البحار السبعة وما فيها من عوالم وعناصر وموارد للطعام والحرارة والصناعة ، قلت : هذه قدور هائلة يطبخ فيها مستقبل مجهول لهذا الخلق .

فهذه المقادير العظيمة من المياه والمعادن والأراضي والغابات ، ظلت تُقِيم في موضعها بالكيل الواسع ، وتدور دوراتها وترجع من غير أن ينتفع بها أحد انتفاعاً يبرر غزارتها ، إلى أن أتى عصر تفتتح حاجات الإنسان

الصناعية والعمرائية بتفتح أسرار الطبيعة لفكره ، فإذا بهذه الموارد التي كان يظن البعض أن فيها إسرافاً وتبذيراً ، يبدو لعيون العلماء وأرباب الصناعات والأعمال أنها موزونة متكافئة مع نمو حاجات الإنسان واتساع افتتانه .

هذه الحياة الصناعية البارعة المعقدة الكاشفة عن قوة الإنسان الابتداعية النامية المنمّية ، التي بها تفردته وامتيازته بين الكائنات ، وبها تغلبه على غيره من الحيوانات ، بل وتغلب بعض أقوامه على بعض ، قد نمت نمواً عظيماً حتى بدت في هذه القوى الساحقة التي يستخدمها الآن في حربه . ولا شك أن إنسان الصناعة هو سيد الأرض . أما إنسان الزراعة فهما افتنّ فيها وهندس واجتهد ، فإن حياته حياة بدائية ، لاتعقد الفكر ولا تترك في الأعصاب أثر القوة والابتداع والسيادة . وقد صارت الزراعة الآن خاضعة إلى حد كبير للصناعة ، وذات تبعية لها .

ولذلك رأينا الأمم الصناعية تسود الأمم الزراعية ، على رغم القلوب الطيبة والمثل العليا التي تشيع بين الزراعيين في العادة ، منتقلة إليهم من اعتمادهم بعد بذل جهودهم على منزل الغيث وباعث الخصب ، ومن طول معاشرتهم للنعاج الوديدة والبقر المطيعة والأنعام التي تعطى ولا تأخذ ، وتسام على الخسف ومع ذلك تجترّ سعيدة حاملة ... !

وطبيعي أن يتغلب من يدرّب أطفاله على ركوب «الحيوانات» الحديدية ، وقيادة «الوحوش» الفولاذية ، على من يدرّب أطفاله على ركوب

الحمير والبغال ، وقيادة الأغنام والأبقار ...

وكل ما يحدثه الإنسان في المواد يدل على اتساع مدى نفسه وامتداد خيالها ، وأخذها من محيط واسع عميق ، وامتياحها من ينبوع زاخر بالصور والأشكال والأنواع ، وقوة تعقيد فكرها وقدرته على إحداث نَسَب جديد ، بين العناصر والمواد ... وهذا مالا وجود له في الزراعة .

ولكى تدرك ما أرمى اليه ، ففكر في الحياة الصناعية من المسار الصغير إلى المصنع الكبير وما بينهما .

يلام الإنسان على غفلته عما صنعه هو بيديه وملاً الدنيا به ، كما كان ولا يزال يلام على غفلته عما خلقه الله في الطبيعة .

ولقد مضى زمن التخريف والضلال في العقيدة بالله رب الطبيعة ، لأن الحياة لا تحتمل الجهل به تعالى إلى الحد السخيف الذي كانت تقبل فيه عبادة الأصنام والأشخاص والنجوم وغيرها ، ولا تحتمل أن تجرد الطبيعة منه تجريداً كالذي كان من المعظّمين منكبرى القصد والإرادة والعناية فيها ، ولفظت العقول الأديان التي تعتمد على غير العقل في إثبات حقيقة الوجود الأولى والحقائق التي تليها ، وعشق الناس جمال الطبيعة وصدقها ، وعرفوا من أسرار الصناعة فيها ، فيبقى عليهم ، لتكمل عقائدهم في الحياة ، أن يتيقظوا دائماً لمنشئها ومدبرها ، ويتقربوا إليه بالفكر فيه وتكريم اسمه ، كما يتقربون — على الأقل — لأساطين علمائهم الذين عرفوا من علومه جانباً ضئيلاً .

ولكن ، جدّ تخريف وضلال في العقيدة بالإنسان ، بسبب فرض لم

يثبت في نظرية النشوء ، أطلق حوله كثيراً من الاعتقادات الفاسدة .
ومقاومة هذا التخريف الأخير هي من أهم رسالات الدين في هذا العصر .

هذا الفرض جعل كثيراً من الناس لا يريدون أن يصدقوا أن بينهم
وبين الله صلة محترمة أو عناية . وكأنهم يحفلون من التكريم والإحسان
الذين يقول الدين إن الله يصطنعهما في معاملة الإنسان .

وهم يقولون إن حياة الإنسان بالنسبة لله تعالى — على فرض إيمانهم
به — حياة ضئيلة ، وإن بينهما هوة سحيقة لا عبور لها ، وأن الحياة الإنسانية
على الأرض لا تقدم ولا تؤخر في سير الناموس الأعظم الذي ينتظم الكون .
فسواء على الله وعلى الكون ، أن يضل الإنسان أو يهتدى ، أن
يعف وأن يشبره . . . فتلك شئون خاصة به ، خاضعة لاعتبارات
مجتمعه ، وسوف يفنى بأخلاقه وأعماله كما تفنى النمل والنحل وكل
ما لبسته الحياة ، من غير رجعى أو مصيراً كمل . . .

ولكن الواقع أن ضجة الإنسانية وحدها ، وتغير الأرض بها وحدها
وتعقد الدنيا بها وحدها ، واطراد نمو الحياة المادية وانكشاف خصائصها
بها وحدها ، وارتقاب غاية مجهولة منها وحدها ؛ هي أمور من الحق بحيث
تشغلنا عن سواها ، وهي ذاتها البرزخ الذي نعبر عليه تلك الهوة التي
بيننا وبين الله !

وما دمنا لم نر كأننا غيرنا يعمر الأرض ويشيرها ، ويستحدث فيها
أعاجيب لم تكن ، وما دمنا نؤمن بحكمة باريء الوجود الذي أدخلنا إليه ،

إذاً لا نستطيع أن نعتقد أنه ليس بيننا وبين الله برزخ أو صلة ، مع أننا نرى أنفسنا كل شيء في الأرض ...

وعندما ينظر السطحيون لظاهر مجموع الناس ، يخيل اليهم أنه لاصلة بين قلوبهم وأفكارهم وبين السماء ، وأنهم غير مأبوه لهم من صاحب الوجود ... وحينئذ تنطلق الاعتقادات الفاسدة والتافهة بالحياة وتنطلق وراءها الغرائز الخطرة ، وتوجد « طمأنينة الكفر ! » وينظر الإنسان للإنسان على أنه شيء تافه ، يصح سلبه واستعباده وقتله .

ولكن عندما ننظر للحياة الإنسانية من داخل الأرواح والأفكار والقلوب ، نجد النظر يخلق المنظور خلقاً آخر جليلاً ، ويشعر الناظر أن عين الله راعية وصية على هذا المخلوق .

فما أعظم أثر هذا في طمأنينة النفس حتى لو كان باطلاً ! إنه يرفع آمال النفس البشرية وأفكارها حتى يجعل منطق الله خالق الطبيعة الهائلة منطقتها هي ! مع أن الهوة التي بينها وبين الله سحيقة ، إذا استسلم الإنسان للحس وحده في عبورها لن يتمكن ! إذ يجد مكانه في الوجود يكاد يكون لا شيء ... إذ الأرض ذاتها لا شيء بجوار عظمة الكون ، فما بالك بالفرد الضئيل فيها ؟

هذا النظر الروحي العميق يجعل للنفس ثقة وإحساساً بالعظمة ، إذ يجد به الإنسان لنفسه مكاناً ملحوظاً في الوجود ، حين يجد علاقته وثيقة بصاحب الوجود مباشرة .

ومن العجائب في ظهور حياة الإنسان وتدرجها ، أن حياة الروح والتدين فيها سبقت حياة العلوم ، فبنيت حياة التعزية والثقة على الدين قبل العلم .

ولو قد سبق العلم الدين ، إذاً لكان موقف الإنسان في الحياة موقف ابن الطريق الشريد القادر الفاجر ، الذي لم يجد أباً وأماً يأخذ من حنانها حناناً لنفسه ، ويعرف أن قلبيهما منبعان غزيران لصفات الإخلاص والرحمة والحب ، بل يجد نفسه مدركا رشيداً ، ذكياً قاسياً ، على قارعة الطريق ، تدافعه زحمته القاسية ، يعرف جرائم الحياة وجفائها ، وأخلاق الشوارع والأسواق ، ولا يعرف روابط الأسرة ومعاملة الأخوة والبنوة ووصايا الأمومة ؛ فيكون موقفه فيها موتف قاطع الطريق المسلح بالأدوات والمهارة ...

علام يقوم بناء الحياة الانسانية ؟

حين أستعرض نظام مدينة أو أمة أو إمبراطورية ، فأجد ناسها يعيشون في تفاهم وتعاطف ومبادلة منافع ، وأجد مرافقها ومبانيها وشوارعها ومصانعها ومعاهدها تقوم في دقة وموازنة وجمال وأمانة ، كأنها من الطبيعة الموزونة بيد الله ... أسائل نفسي :

من الذي أقام بناء هذه الحياة الانسانية في تلك الأمة أو المجموعة على هذه الأوضاع العظيمة ؟!

ومن الذى سدد جهاد أفرادها جميعاً نحو غايات مشتركة
وأهداف موحدة؟

ومن الذى أعطاه تلك الروح الاجتماعية الواحدة التى تجعلها تسلك فى
أعمالها وآمالها مسلك الروح الواحد فى الجسم الواحد؟

ومن الذى هذب طباعها ورققها وجملها وصقلها وسار بها شوطاً بعيداً
من عيشة الوحشية والتأبد ، إلى هذه الإنسية والاجتماع ؟

ومن الذى أقام هذه الأسر « والعائلات » على التراحم ، وجمع أطفالها
ورجالها على الحب؟

إنه لاشك سر النبوات التى هبطت على القلوب الكبيرة التى كانت
للإنسانية فى مهد نشوئها، كالأومة الرحيمة المضحية المربية المسددة .
إن هذا لاشك هو الأساس الأول الذى قامت عليه الحياة الاجتماعية
وذهب بناؤها مطرداً فى العلو والسموق .

فجامعو المعانى الكريمة التى اكتشفت فى الطبع الإنسانى هم الأنبياء .
وقد صارت المعانى الأخلاقية الكلية هى أساس بناء الدول المحكمة
الوضع ، بعد أن كانت فى أول أمرها معانى شخصية فى قلوب هؤلاء
الأفراد القلائل . ونسبة المؤمنين الآن أكبر من نسبة المشركين والمعطلين
وصارت الأديان السماوية ممثلة فى أعظم أمم الأرض .

فلئن غابت ، الآن هذه الأسس المعنوية لحياة الاجتماع عن الأنظار
القصيرة والأفكار المشلولة ، فكما تغيب أسس الأبنية العظيمة فى
باطن الأرض ، لا ترى ولا يعرفها إلا الناظرون فى الأعماق ...

ولقد مات الرِّعِيل الأول من الآباء والأمهات ، ولكن بقي الأبناء
دليلاً متجدداً عليهم .

ثم نسأل : أيهما أصلح للحياة ؟ أن يعتقد الإنسان أن الله به حَفِيٌّ ،
وأن يؤمن بالإنسان فيحتفل لولادته ، ويقوم لجنائزته ، ويؤثره على نفسه ،
ويتواضع له ويحترم دمه وعرضه ، ويعيش في سجون الأخلاق التي تسمو
بالحياة الاجتماعية ، وتقلل الخلاف والشقاق ، وتنمي المدنية وتحيط الإنسان
بجو من سكينته العلم ورقة الفن ، وتسخر العلم في خدمته وتخفيف ويلاته ،
وتضع أمامه أهدافاً مرسومة ومثلاً عليماً ، وفلسفة يطردها الوفاق ؛ وتجعل
إبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا وغيرهم من الرجال الآباء نماذج وقما يتطلع
إليها ... ؟ أم أن ينظر الإنسان إلى الإنسان كما ينظر للنبات والحيوان ؛
فاذا ولد فكجرو والكلاب أو سخل النعاج ؛ يسخر ويلعب به ، ولا
عِرض ولا ناموس ولا قيود ، وحياته حياة فنّها آلى وعلّمها للتدمير والغلبة ،
ومُشكّها وصولية ... وإذا مات هلك وقذف به إلى ظلمة الأبد من غير
رَجعة أو ذكرى أو أمل في مصير أكمل ؟!

أما والله لو كان دين الإنسانية هذا خداعاً باطلاً ، لكان أعظم أثراً
في صلاح الحياة من ضده ولو كان الحق ! لأنه قانون الحياة الاجتماعية ،
فاذا تركه الإنسان كان عليه أن يترد إلى حياة الغابات . وقد ارتد بعضه
فعلاً الآن ، ولكنه سيعود ...

ولست أدري : ما هو غرام بعض الناس في أن يزعموا أنهم كشفوا

تيارات واتجاهات في الحياة تجعل الناس يحطمون الحياة الاجتماعية التي
نمت مواريت علومهم وأخلاقهم في أحضانها ؟
إن كل ما يضر حياة الجماعة هو شر يميت الضمير وينزع منه
الإيمان بالخير ويُسلم إلى النكسة والارتداد . فينبغي ألا يفلسف به .

على أسوأ الافتراضات في تفاهة أصل الإنسان وضآلة مكانه في الوجود ،
فتفجّرُ نبع الضمير في قلبه ، وطواعيته تحت تأثيره ، لا بد أن يكونا بوحى
وضغط من عالم أعلى ...

وهذا الروح اللطيف الذي يوجد في القلب حين الحب ، أو حين
مبادلة العلم والفكر ، أو حين تفتح القلوب بالخير ، أو حين النظر للوجود
بالعين الصافية الآملة المتفائلة ، أو حين استحضار المعاني الكبيرة : كالمروءة
والإيثار والتضحية الصامتة ، أو حين الإيمان العميق الرحب المشع ... هذا
الروح هو مكان رصد الإنسان والأنس به والأمل فيه .

فلترصده من هناك ليكون المنظر جميلاً أخاذاً ، يبعث على التفاؤل
والحب والسعي إلى الاكتمال ... أولى من أن ترصده من مكان آخر
يبدو منه مظموس الجمال ، مقبوح الخصال ، منحط المكانة ، باعثاً على
التشاؤم والبغض والحقد وسوء المآل !

الضمير

ووصايته على الحياة

حارس الحدود — لاقدسية لمقدس إلا معه — هو الباكورة الأولى —
لا تتعجلوا الحلقة الأخيرة — البوصلة الهادية إلى القطب الأعظم — المجرى
الحق للحضارة — مقدمات الضمير العالمي — بركة من حرب كثير اللعنات —
حديث الانسانية عن نبأ عظيم — لنسكن أبناء الحاضر — بين الحضارة
والثقافة — قلوب قرود في جلود بشر — فرار إلى العاصم .

كل مذاهب البر ، وحدود العدالة ، ومرافق الرحمة ، ومواضع
الفضيلة في المجتمعات الإنسانية الراقية والمنحطة ، إنما هي آثار من آثار
الضمير الإنساني : ذلك النبع العميق الذي يستمد من فيوض الله المقيم
الجبال أو تاداً ، والضفاف سدوداً للياه أن تظفي وتملأ الأرض بدون
نظام موزون ، والجاعل بين المواد والقوى العمياء حدوداً لحفظ الحياة ،
ونسق الجمال .

وقد جعل للحياة الإنسانية الاجتماعية حدوداً كذلك بحراسة الضمير .
وكل شيء مقدس يتحول إلى عمل حقير مجرم ، إذا لم يصحبه الضمير
والإحساس بالعدالة والحق ، كالأحساس بالنفس .

خذ مثلاً : تشريح جثث الإنسان في الموت المشتبه فيه ، أو في حالة
المرضى من الفقراء ، أو للتعليم : يحوله الأطباء الذين لا ضمير لهم ولا حس

بالجماعة عندهم إلى جزارة وإهدار لجسم الإنسان وكرامته في سبيل التمرين ،
حتى لتجد الجماجم البشرية في المزابل ، والمنح الانساني في المراحيض ! مع
أن العمل نفسه من أنفع الأعمال .

وخذ مثلاً ثانياً : دراسة القانون للدفاع عن الحق ، ومعرفة الواجب ،
تحولت في أيدي المرتزقة من المحامين إلى مؤاجرة لطمس معالم الحق ،
وتضليل القضاء عنه ، وإلباسه بالباطل ، وإيقاع من لا حيلة لهم ولا قدرة
على الدفاع عن أنفسهم أو عن الحق .

وخذ مثلاً ثالثاً : مهنة التعليم : هي في أصلها وصاية على الناشئين
والجهال ، وإرشاد من يجهلون العلوم والحقائق . ولكنها قد تحولت في
كثير من الأحوال إلى مجرد عمل آلي لملء حافظة التلاميذ بالأرقام
والحروف تحت سيطرة آلية ، وإهدار للأخلاق والشخصيات .

وخذ مثلاً رابعاً : الجنديّة : إنها أسمى مراتب المروءة وخدمة الحياة ؛
إذ هي جودٌ بالنفس في سبيل الحرمات والمقدسات . ولكنها قد تحولت إلى
وحشية حين فقد القلب نبيل الفروسية ورحمة الأقوياء .

وخذ مثلاً خامساً : حياة التدين : إنها في الأصل فيض ذاتي بين
ضمير الإنسان وضمير الوجود ؛ فإذا بها تتحول إلى ألقاظ جافة وشهادات
ومنافسات ومناقشات وارتزاقات ووظائف ومناصب مدرسية دنيوية ...
وهكذا لو رحت تتقصى سائر أعمال الإنسان المقدسة الكبرى ،
تجدها قد خلت في الأمم الضالة من خفقات الروح ومصاحبة الإحساس
الإنساني العالي ، يفعلها الفرد وهو كآلة من الآلات !

ولئن زعموا أن أصل الانسان وحشى منحط بغير ضمير ، وأن هذا
الضمير تاريخه حديث في حياته ، وأنه نشأ من ضغط الحوادث المؤلمة عليه ،
ومن تفاديه ما ثبت أن به مضرة له بعد ارتضاء حياة الجماعة ... فمن الذى
جعل فى أخلاقه تلك القابلية وفى أعصابه تلك المرونة التى تتأثر بتلك
الحوادث والأخلاق الضارة والنافعة وهو اجس الخير والشر ، حتى لتكاد
تلك القابلية تكون ميزانا لا يتغير ولا يتبدل فى جميع الأمم الحية إلا بعض
أمم تعيش على هامش الحضارة ؟

فميزة الانسان على غيره هى هذه القابلية فى أعصابه ، والمرونة فى
طبيعته . وليكن مكانه من الأحياء قبل نشوء تلك القابلية فيه ما يكون
من الانحطاط والوحشية ؛ فلن يضير النخلة الفارعة المثمرة الجميلة أن يكون
أصلها نواة ضئيلة محدودة ، وأن يكون البعد بين جذرها القبيح وتاجها
الجميل بعداً بالغاً ؛ فإن كل كائن حى أرضى لا بد له من أصل منحط فى
الطين ، ثم يبلغ أوج حياته بعد حين .

ويتأكد عندى يوماً بعد يوم أن الإنسان لم يبلغ بعد درجة نضجه
النهائية ، وأن كل حقبة من حقب التاريخ تظهر جانباً خفياً من طبيعته ،
وأن « القطفة » الأخيرة من ثماره لا بد أن تكون هى التى تحمل جميع
الأسرار التى أرادها فيه خالق الأنواع ! فمن الإنصاف ألا نحكم عليه
حكماً نهائياً قبل أن يبلغ مبلغه الأخير ، وألا نفقد الأمل فيه مادام طريق
ترقيه مفتوحاً أمامه ، وما دامت الطبيعة تفتح صدرها له .

أجل ، إنه قانون طبيعى لم تتم دورته لينتج نتائجه النهائية . وإن

الباكورة الأولى من ثمراته إنما كانت تلك الحساسية الدقيقة التي أطلقنا عليها اسم « الضمير » وهي حساسية صادقة مرهفة تتأثر بعوامل نمو الحياة ، وتتفتح لها وتركن إليها وتحبها وتحتمى بها ، وتستكثر منها وتسميها « خيراً » ، وتتأثر بعوامل الدمار والألم والفناء وتنقبض عنها وتفر منها وتدفعها وتسميها « شراً » .

ولا شك أن الذي وجه الأنواع كلها إلى طرق حيواتها المختلفة ، لا يجوز أن يكون قد وجه حياة الإنسان إلى غير طريقها . فغير معقول أن يستثنى الإنسان وحده من بين الكائنات الأرضية ، ويدفعه في طريقٍ خطأ غير طريق حياة قدرها له ؛ فما عهدنا في الطبيعة عبثاً أو استثناء من قواعدها العامة إلى هذا الحد ! وفيماذا يكون الاستثناء؟ في الإنسان : الابن البكر للأرض !

لاشك إذاً أن الضمير كان هو الجرى الخفي لحياة الإنسانية ، وأنه ميزان حياتها ، وأنه « إبرة البوصلة » تهديها إلى طريقها المقدر لها ، وتوجه بها إلى قطب الحياة الأعظم !

وما وقع لي مرة أن أغفل الحق في غمرة من غمرات الشهوة الحقيرة ، إلا وجدت له رهبة تزلزل قدمي وتطمس النور في عيني ! فالحق يقظ جداً . أو قل إن الضمير مقيم لحراسته جداً .

وأنت إذا تصديت للدفاع عنه ، ثم استعملت في سبيل ذلك الدفاع شيئاً من الباطل ، شعرت — إذا كنت ذا ضمير — شعوراً صاعقاً ، أن ذلك الحق الذي تدافع عنه بالباطل ، انقلب في عقلك الباطن ووعيك الظاهر ، إلى سلاح مهاجم لك يقول : لا ! لا ! لا ! طريق ليست من هنا ..

أنا ما جئت إلا لأزهق الباطل .. لقد ضللت وأضللت بي .. ارجع !

ومهما يكن من شيء ، فهل أضر نشوء الضمير حياة الإنسان أو نفعها ؟ هل كان من الممكن أن تنشأ تلك الحياة الاجتماعية السامية المعقدة العظيمة في غير ظلاله ؟ وهل قامت حضارة من الحضارات العظيمة التي أثرت في تقدم الانسانية بغير سلطانه ؟ وهل من الممكن أن يحل شيء آخر محله في الوصاية على الحضارة والثقافة والحقوق والواجبات ؟ هل تستطيع حضارتنا هذه على قوتها وعظمتها وتعدد أفرانيتها أن تتحرر من سلطانه وما نشأ في أحضانه من أخلاق ، ثم تحيا بعد ذلك وتستمر في نمو وازدهار ؟

إن حدود الخير والشر التي ندين بها ، وصورها التي نعرف ، إنما هي نتاج « عملية » تمت في خفاء في باطن النفوس الإنسانية ، فعزلت طائفة من الأخلاق والأفعال واعترفت بها ورضيتها وأسمتها « الخير » أو « البر » أو « المعروف » ، وعزلت طائفة أخرى منها أنكرتها وكرهتها وأسمتها « الشر » أو « الإثم » أو « المنكر » . ولن تجد أمة ولو كانت متوحشة تنكر بفطرتها أصول الخير والبر التي رضيتها حضارتنا وتقاتل منها ولا تستجيب لها ، وترضى أصول الشر وتُسَرُّ بها وتستجيب لها بفطرتها .

نعم قد تنكر الخير والبر في خارج دائرتها الخاصة وتأبى فعله مع غيرها من الأمم ، وترى من الخير لذاتها والبر بها أن تفعل الشر مع الأمم الأجنبية عنها ، ولا تشعر بوحدة الضمير بينها وبين سواها .. ولكن هذا

لا يكون إلا في تلك الجماعات الصغيرة التي لا تزال تعيش على هامش الحضارة ، ولا تزال متخلفة تخلفاً كبيراً عن سير الحياة بالأمم العظيمة .

على أن هذه الظاهرة إن وجدت في المتوحشين ، فيخيل إلى أنها سرعان ما تزول منهم إن نشأ ناشئوهم في أحضان مذهبنا الخلقية وحضارتنا وثقافتنا . فليس إنكارهم للخير العام طبعاً أصيلاً في نفوسهم لا يتخلون عنه . وقد مرت جميع الأمم بذلك الدور حين كانت الفرديّة طابع الحياة الإنسانية . ثم تحولت الفرديّة والأناية إلى غيرية وإيثارية في نطاق الأسرة ثم في القبيلة ثم في الجماعة ثم في الأمة ثم في الإمبراطوريات واتحاد الولايات . وإذا طردت النتائج مع مقدماتها ، فستنشئ معارك هذه الحروب ضميراً عالمياً أوسع وأرهف ، بعد أن وجدت مقدماته من وحدة الثقافة العلمية والفكرية والفنية أو تقاربها في الأمم ، ومن اختزال الأبعاد والمسافات بين بقاع الأرض ، حتى صارت أمريكا بعالمها الجديد النائي جارة للعالم القديم ، ومن اهتمام الكثرة الغالبة بقضايا الإنسانية وإحاطتهم بتفصيلات حيوات الشعوب والأجناس ، ومن اختلاط الناس في نطاق واسع ، واشتباك مصالحهم اشتباكاً ليس منه فكك .

وإني كلما رأيت تلك « التشكيلة » العجيبة التي حشدتها بريطانيا في جيوشها بمصر ، من زنوج إفريقية وهنود آسيا وصُفْرها وبيضها ، ومن جنود أسكتلندا وإرلندا وكندا وجنوب إفريقية ، مضافاً إليهم تلك التشكيلة الأمريكية وسائر الأحلاف .. أشعر شعوراً ساراً متفائلاً ، خصوصاً إذا رأيت الجنود الزنوج والماوري وغيرهم من الأمم التي تعيش

على الفطرة إلى الآن ، يرتدون ملابس الجنود الإنجليز والأمريكان ، ويتحدثون حديثهم ، ويخضعون للنظم العسكرية خضوعهم ، ويمهرون مهارتهم في قيادة الطائرات والسيارات وسائر الآلات الدقيقة ، وقد خرجوا من أذغالهم وأكواخهم وصحاريهم وكهوفهم إلى العالم المتحضر ينظرون ويدركون ما يدرك إخوانهم السابقون في العلم والمدنية ، ويشاركون « الرجل الأبيض » أهدافه ويحاولون اللحاق به .

وإن عملية الخلط والمزج هذه التي تجريها هذه الظروف بين شعوب الأرض جميعاً ، هي لا شك من بركات هذه الحرب الكثيرة اللعنات ... وما كان لعامل آخر في ظل التدرج والتطور أن يفعلها ، مادامت هناك نزعات استعمارية ووصاية جائزة جشعة خائنة من الشعوب السابقة على الشعوب المتخلفة .

وأحسب أن هؤلاء الجنود الملونين المتخلفة أمهم ، لن يرضوا بعد عودتهم إلى ديارهم أن يعيشوا عيشهم قبل الحرب ، بل لابد أن يعلو مستواهم ومستوى أمهم تبعاً لهم ، ولا بد كذلك أن يزول منهم كثير من روح سوء الظن وقبح الثقة بغيرهم من الأمم بعد مخالطتهم إياهم وامتزاج دماهم في سبيل غاية واحدة .

هذه الإنسانية تتحدث الآن جميعها عن نبأ عظيم واحد : هو المثل العليا المرجوة لحياة الناس بعد هذه الحرب ، وقضايا الحق والعدل ، بعد أن أصابها جميعاً طائف من آلام الحرب وفضائعها ، وقبح آثارها .

ولا بد أن يتسع ضميرها ويجنح من القومية الضيقة والأناية الغاشمة ، إلى نزعات إنسانية شاملة سامية ، يتجرد فيها الحق والعدل من العنقنات والنعرات الجنسية التي طالما تقسمته وتوزعته ، وخلعت عليه من ضيقها وسفها ما جعله حقاً لدى قوم وباطلاً لدى آخرين ، وما جعله يوماً شرقياً وآخر غربياً . مما أورث كثيرين من المفكرين شكاً في وجود الحق وريبة في تحقق العدالة بمعناها الجليل الجميل المرسوم في الصحف الماثورة وفي الفكر المثالي .

وإذا تجرد الحق والعدل من النعرات والتعصبات ، ووضعاً في نصابهما المثالي أمام الإنسانية جميعها أبيضها وأسودها وأحمرها وأصفرها ، وطبقت آثارها عليها في حراسة الضمير بدون تمييز وتمييز ، فقد وصلت الإنسانية حينئذ لفردوسها المؤقت للنشود ، وتفرغت لما يجب أن تتفرغ له وحده ، وهو فتح مجاهيل الطبيعة وكشف أسرارها ، وتسخير قواها لتقليل المشقة وزيادة المنفعة .

غير أن الناس لسوء ظنهم بأنفسهم ، ولقميح رأيهم في الإنسانية ، وانعدام أملهم في سمو مستقبلها ، لا يحاولون أن يأخذوا أحداث هذه الحرب وظواهرها أخذ دراسة وتمعن واتعاظ بعبورها ، بل يحسبونها طبيعة من طبائع الحياة لا يمكن أن تتخلى عنها الإنسانية . ولذلك لا تحتاج لديهم إلى تفكير وتدبر مخلصين للنجاة من أهوالها بقطع دابر أسبابها .

وسوء ظنهم بأنفسهم ، وقبح رأيهم في الإنسانية أتران من آثار الماضي الجاهلي الذي كان فيه الضمير الإنساني ضيقاً ، والتفكير البشري

محدود الأفق ، واخلق زهين الغرائز المنحطة ، والجهد عاجزاً قاصراً عن إدراك العلوم والأعمال الكثيرة البركات والمخففة المشقات .

ولذلك تمنيت ولا أزال أتمنى أن نتحرر من التاريخ ، وأن نكون أبناء الحاضر العظيم الذي سما فيه فكرنا وجهدنا ، وانكشفت لنا فيه من الطبيعة أكثر الوجوه التي كانت مستورة غامضة ، وأدركنا أطراف جسم أمنا الأرض ، وأنواع مواليدها من الجماد والحيوان والنبات إدراكاً بالمقاييس الدقيقة والمعايير العلمية التي وزنت دقائق صنع الله وأبرزتها لنا واضحة جليلة .

والواقع أن الدنيا برغم كثرة المتعلمين والمتحضرين فيها ، لا تزال مجتمعاتها مسيرة بآراء غير آراء المفكرين والعلماء المدركين لحقائق الحياة والباذلين جهودهم لتذليل العقبات وجلب المنافع . والذين يسكون دفعة المجتمعات ويديرونها ، هم الذين كان أمثالهم يسيطرون عليها في القديم . وأكثرهم من السماسرة والدجالين ومحبي الجاه والمناصب للسيادة والخيلاء والانتفاع الشخصي واللعب بالشعوب وشفاء الحزازات والأحقاد .

ولا تزال فخائر الماضي تبت جراثيم الفساد في الحاضر ، فيبني الجديد بأنقاض القديم . وقد تتغير الصور والأشكال ولكن الجوهر باق كما هو . وقد حسب الناس أنهم ماداموا قد لبسوا البس المتحضرين ومشوا برشاقتهم وحركاتهم ، واصطنعوا أدواتهم في الزينة والرياش وطرق الأحاديث ، فقد تغيرت الدنيا وصاروا في مدنية القرن العشرين ، بينما قلوبهم وغرائزهم على ما كانت عليه قلوب قوم « نوح » وغرائزهم ...

وينبغي أن نفرق بين الحضارة والثقافة : فالحضارة هي العيشة الجسمية في الحضرة ، وهي تكسب الأشخاص رقة ورشاقة وخبرة بمواضع الناس الاجتماعية وزيتهم وحركاتهم ، ولكنها لا تكسبهم ثقافة عقلية خلقية عميقة تتصل بأصول الحياة والآراء والمذاهب والعقائد والأفكار والأخلاق والمعلومات التي يقوم عليها بناء حياة صحيحة . أما الثقافة فهي العيشة العقلية والقلبية بالمعلومات الحديثة والأفكار والآراء الصالحة .

ومع الأسف لا يزال المتحكمون في الشعوب أكثرهم متحضرون غير مثقفين : يدركون صور الحضارة وقشورها ، ولا يدركون جوهرها ولبابها ، ولا يحسون حاجات الزمن ، ولا يعيشون في قمة الفكر والعلم ، بل لا يرونها ؛ إذ ليس لديهم أدوات النظر .

فمن أين لهؤلاء الحاكمين أن يسيروا بمن تحت حكمهم من الشعوب إلى أهداف الإنسانية العليا وغاياتها المشتركة ، وأن يفقهوا لغة الحوادث ويسمعوا نداء الزمان ، ويروا تلك الخطوات المطردة التي تخطوها الإنسانية في طريقها إلى غايتها المجهولة ؟ ومن أين لهم أن يقلبوا ضمائر الشعوب الضيقة الأنانية إلى ضمائر إنسانية عالمية تمهد لحياة السلام والاستقرار الدائم ؟

إن الأمل الوحيد هو في المر بين الذين يتولون الناشئين في جميع الشعوب . وواجبهم أن يوقظوا ضمير كل ناشئ ، ويوسعوا مجراه حتى يشعر بمعنى الإنسانية الحقيقي ، فلا تكون حياته المدنية طلاء ودهانا فوق جلدة قرد وحشى !

وحسب الحياة ما لقيته من كيد هؤلاء الذين لهم مسالينخ الأدميين

وقلوب القروء ، وما تحملته من أنانيتهم وسفالاتهم التي شوهدت وجهها
وحملتها مأساة دامية !

وكل يوم ، بل كل ساعة تصطدم حواس الذين لهم إخلاص الفكر
والقلب بما يشوه جمال الحياة ، ويضع تحت الأضراس حجارة قاسية من
الغيظ والاضطراب والألم الماحق لبشاشات النفوس وإيمانها بالعدالة في
حياة المجتمع !

وما قذف الإيمان بالإنسانية في قلوب هؤلاء المؤمنين ، ونههم إلى
قيمتها الحقيقية ، إلا رؤية هذه الطبائع المسوخة . . فما كانت الإنسانية
لهذه المهازل والآلام والجرائم والسفالات التي تزخرُ بها المجتمعات الفاسدة
التي يسيطر عليها من يأخذون الحياة كأخذ السباع والذئاب والكلاب
والخنازير ، فهم لا يفهمونها إلا على وجه الختم والسطو والجريمة والنفاح
والعواء والتهويش والانحطاط . .

ولسنا نحلم بجنة في الأرض كاملة الأوصاف ، فيها ملائكة من الناس
يحكمون . . . ولكننا نريد بيئات تدين بمثل عليا على الأقل في الحقوق
العامة — ودع عنهم الحقوق الخاصة .

فإلى الضمير : ذلك المصباح الذي توقده يد الله دائماً في ظلمات القوى
العمياء التي تعجُّ بها مآهات الحياة وحنايا الصدور ، ولن تستطيع أعتى
الأعاصير أن تطفئه أو تخنق شعاعه — إليه يجب الفرار للاعتصام من
أمواج هذا الظلام !

التحرر من التاريخ

التحرر من التاريخ — نحن غير البائدين — تلاميذنا أصبح علماء بالطبيعة من
أرسطو — العلوم والفنون ليست تحفاً تقتنى منفصلة عن النفس — لا بد من
قلوب حديثة — من جرائر التاريخ — الإنسان يصنع كثيراً من أقداره
استطرد إلى مشكلة القدر — إلى المنتظرين بعثاً من غير نفوسهم — الآن فقط
وجد الحق أدوات كاملة للدعوة إلى تصحيح الأفكار عن الحياة — عباب
التاريخ يجرف الطفولة النضرة مع الحيف القذرة ! — لامفر من عزل
الطفولة لتصحيح أفكارها — مناقضات بين مافي الشوارع ومافي الجامعات
صورة من دراستنا الحالية للتاريخ — طوائع مدلسة ليست بنت زمانها —
ما يستهلكه الشر — هل مضت الحاجة إلى دور الغرائز في خدمة
الحياة ؟ — حرب الآلهة

طالما ألححت على التاريخ : هذا الجدار الهائل ... هذا السد القوى ..
هذا السجن العميد ... لأحطمه وأنقذ نفسي من جوه المعتم الخانق !
وطالما قلت مادام هذا الماضي القاصر الجاهل الخرف الوحشي يحمله
الإنسان في أوعيته وأعصابه إلى الحاضر ، فهو دائماً في ضلاله القديم ،
كما يعيش حامل الميكروبات الضارة دائماً في أمراض ونكسات .
والحقيقة التي يجب أن توضع نصب العيون الآن ، هي أن هذا
الإنسان العصري ، هو غير الإنسان البائد بلا شك ! هو غيره في علمه
وإدراكه للطبيعة وتذليله لعقبات الحياة واضطلامه بأدوات تحقيق
الاحتياجات ، وتفتيحه لكنوز الأرزاق والأقوات .

فكيف يرضى أن يحمل ذات قلبه القديم وغرائزه كما كانت ،
وأن يحمل غشاوات القرون الأولى ليعيش بها في عصر الانكشاف
والظهور والقدرة الفائقة ؟ !

كيف يرضى من ملك زمام اليابس والبحر والجو ، وذرع الأرض
بالطول والعرض ، ونبش كنوزها ، أن يعيش بأساليب الذي كان لا يعرف
غير طريق القرية أو النجم أو الجزيرة التي يعيش فيها ؟

إن تلاميذ المدارس الابتدائية أصبح علماء عن الأرض والطبيعة من
سقراط وكونفوشيوس وأرسطو وابن سينا والفارابي وغيرهم من حكماء
القدماء ؛ فكيف ترضى الانسانية الحالية أن تعيش حياتها النفسية
بأساليب جهلاء عصورهم ؟ !

إن التاريخ النفسى للحياة الانسانية ينبغي أن يدرس بعين غريبة
عنه ناقدة له في شك وتمحيص ، فما هو إلا سجل جهاد الناس في سبيل
وصولهم إلى حقائق هذا العصر الحالى ؛ وما يليق أن تؤخذ مرحلة من
مراحلهم خطأ يطمئن الناس إليه بعقولهم ؛ لأن مراحلهم السابقة كانت
مراحل موضعية ضيقة خاصة بأمة ما من أمم ، ولكن أمر أمم الناس
الآن أمر جماعة توشك أن تتقارب أهدافها وتشتبك مصالحها وتشتجر
اشتجاراً لا خلاص لفروعها منه ، أبت أمم كرهت .

هل من المعقول أن نلبس ملابس الحياة الحديثة على الأجساد ثم
لا نغير ملابس النفس ؟ أن نكون قروداً وبيغاوات تحكى قضايا العلم بألسنتها
وظواهرها ولا تمثله قلوبها ونوازعها ؟

هل يكفي من العلم أن يقتنى في الحوافظ والذاكرات غير ممزوج
ولا مُدمَج في الأعصاب والأحاسيس والانفعالات ، وأن يوضع في الرءوس
كما توضع التحف والدُمى على الرفوف والمناضد للزينة والخيلاء والبيع
والشراء عند الحاجة ؟ !

إن العلم ينبغي له أن يكون في كياننا كالماء في أعواد الشجر
الحى ، لا يقف تسربه إليه وإنماء حياته إلا إذا جف وأحطَبَ ومات ..
فلا شجر بدون ماء .

إن « جراحة » عظيمة في داخل الحياة النفسية الإنسانية ننتظر
إجراءها لبناء قلوب حديثة تتلاءم مع الأفكار الحديثة !

ومن آثار التاريخ في الحياة العصرية هذا الخلاف العنيف بين سدنة
الأديان بعد ماسطعت شمس الله الواحد ... و بعد ما أدرك العقل التناسق
والانسجام والتوافق بين قوانين الطبيعة مما لا يمكن أن يكون
إلا بإدارة يد واحدة !

ومن آثاره فيها أننا لانزال نخضع لمنطق الأمم التي كانت تعيش
متحاجزة في سدود وتخوم تفصل بين عقولها وأخلاقها ومرافقها ، وتجعل
الدنيا دنيوات ، والانسانية الواحدة أنواعا متباعدة ، وتجعل من اختلاف
الأجناس والألوان واللغات اختلافا أصيلا جوهريا بين الطبائع الإنسانية
يبديح هذه العداوة الفاجرة المريرة المخربة للعمران ، ويحمل على المبالغة في
البطش والطغیان ، ونسيان الصفات المشتركة بين بنى الإنسان .

ومن آثاره أن أكثر الناس لم يدرك بعدُ مدى الانتقال العظيم ،
والترقى السريع ، والتفاوت البعيد بين الحياة قبل القرن العشرين والحياة
فيه ؛ ولذلك لا يزالون يضمرون في أنفسهم اعتقادات متشائمة في الإنسان
ومستقبله ، ويدينون في الحياة بدين السخط وإطلاق الغرائز الخطرة
والآراء التافهة التي تجعل الإنسان يعبر الحياة بدون أن يجتهد في ملء
نفسه بأسرارها ، وفي إضافة كشف أو اختراع أو منفعة أو فهم إلى ميراث
الحياة الإنسانية ... وليس هناك شيء أضر على الحياة الإنسانية من نزعة
التشاؤم والتبرم والسخط على حاضر الإنسان ومستقبله !

ومن آثاره أننا نرضينا أن نعيش أكثرنا جاهلاً أمياً لا يفقه مبادئ
العلم والحياة التي في رءوس العلماء ، مع أن نمو تلك الأسرار يتغير ويتقدم
كل صباح ومساء . وكأننا بذلك وأدنا هؤلاء الأحياء ودفنناهم كما كانت
تفعل جاهلية العرب بموءودة الأجساد ... وكان هذا الإهال منا كفعل
من يرى أهله يموتون ظمأً واحتراقاً ، وهو على علم بمنبع ماء غزير يطفىء
غلتهم ولوعتهم ويحيي نفوسهم ، ولكنه لا يسعى إلى إنقاذهم ...

ومن آثاره أننا نعيش في ذهول عما يحيط بحياة الإنسان الآن من
كنوز تفتتح وأعاجيب تخترع ، فترى الناشء منا ينشأ بين القطارات
والسيارات والطائرات والراديو والتليفون والغواصات والفوتوغراف
والسينما وغير أولئك ، ثم يجهل أمرها وتركيبها ولا يدري عنها شيئاً ، ولا
يكلف نفسه سؤال أحد عن نبئها العظيم ... كأن ذلك شيء تافه أو أمر
بدهى لا يحتاج إلى فكير شديد وتعجب بالغ !

ومن آثاره أننا برغم إدراكنا الآن كثرة الأقوات وكفاية الأرزاق
كثيرة وكفاية تشبعان حاجات الإنسانية جميعها ، لو وزعت توزيعاً معقولاً
بدون احتكار وتحكم وإتلاف لجانب من المحصول في سبيل الاحتفاظ
بالأسعار المرتفعة ... لا نزال نطيع الجشع والطمع ونعصى دواعي العدالة
والرأفة بالطبقة المحتاجة المجهودة !

ومن آثاره أننا لا نزال نغطي عجزنا وكسلنا بالاستسلام لما نسميه
« الأقدار » ، مع أن مفتاح كثير من الأقدار بأيدينا ، ومع أننا نرى
في الظاهر أننا نصنع أغلب أقدارنا ، ومع أن دائرة الإيمان بالأقدار في
الدين لا تتعدى منطقة الصبر على المصائب والكوارث التي تأتي إلينا
بدون حيلة أو خيرة منا ، ومنطقة الرضا بما نحصل عليه بعد الجهاد ...
وهنا مكان استطراد إلى مشكلة الأقدار لا بأس أن نرسل فيه
بعض الحديث :

* * *

هناك أقدار نريد أن تتحقق ، وهي أقدار الخير والسعادة ، وهذه
موقفنا منها يجب أن يكون كما يأتي :

أن نسعى جهدنا للتمهيد لتحقيقها بالأخذ بأسبابها التي تهدينا تجارتنا
إلى أنها عوامل جالبات لما نسعى إليه ؛ فإن تحقق ما نبغى فذاك ، وإن
لم يتحقق — وهذا قليل نادر — علمنا أن الإرادة العليا المسيطرة على
وجودنا ، لها غاية غير غايتنا في تلك المسألة التي نسعى لتحقيقها . والإيمان
بتلك الإرادة يقضى حينئذ بالاذعان والتسليم لقدرها العالی الذي لا حيلة معه

وهناك أقدار نريد ألا تتحقق ، وهي أقدار الشر والشقاء . وهذه موقفنا منها يجب أن يكون كما يأتي :

أن نسعى جهدنا للتمهيد لدفعها بالأخذ بالأسباب التي تهدينا تبحر بنا إلى أنها عوامل دافعات لما نخشاه ونتجنبه . فإن كان ما نبغى ، فذاك ، وإن لم يكن ، كان أيضاً الإذعان والتسليم للإرادة العليا .

تلك هي مشكلة الأقدار في جانبها . وفي كلا هذين الجانبين رأينا أن على الإنسان أن يقدم جهده في التمهيد لها أو دفعها . فإذا وقف أمامها منتظراً مكتوف اليدين مشلول التفكير ، كان حرياً أن تأتي إليه أقدار الخير فلا ينتفع بها ؛ إذ لم يبذل لها جهداً من فكره وأمله ، وكان حرياً كذلك أن تنزل عليه أقدار الشر فلا يسعى لتخفيفها ، وأن يجزع منها جزع الذي يظن أنه كان في مقدوره أن يدفعها ولكنه قصر في ذلك ، فيظل ملوماً محسوراً ...

والحياة العملية ذات البراهين البريئة من الجدليات توحى إلينا ، بل تحدثنا بكلمات مقروءة مسموعة بريئة من غموض الرمز والإيماء ، أن الذي ينتظر أقداره بدون أن يسعى لجلبها أو دفعها ، لن تكون حياته إلا حياة ذلك البدوي ساكن الصحراء الذي لا يعمل عملاً لجلب الماء ، وإنما هو ينتظر سقوطه عليه من السماء . وطبيعي ألا تكون آماله بيده ، وأن يعيش حياته معرضاً لأخطار الظمأ والجفاف ، معلق القلب ، مهدد العيش ،

يتجدد قلقه كثيراً لأنه لم يمسك من أسباب الحياة إلا بحبل بعيد ، هيهات أن يكون في يده دائماً ...

وأني تكون حياة هذا البدوي من حياة بدوي آخر ، سعى حتى اهتدى إلى ضفاف نهر تمسك منابعه بحوالب السحاب ، وتجلب الماء إليه جارياً ميسوراً ليده وأفواه دوابه وقطعانه ، ثم هو بعد ذلك يقيم الخزانات ويشق السواقي والقنوات ، ليصل منها الماء إلى كل بذرة بذرها ؟
لاشك أن كليهما أخذ من مصدر واحد ، ولكن أحدهما حمل نفسه على العُسرَى ، والآخر حملها على اليُسْرَى ... وشتان ما بينهما !

فلينهض الراقدون على آذانهم في الشرق الإسلامي مستسلمين في صغار لعوامل الشقاء والحرمان ، حاسبين أن أحوالهم ضربة لازِبٍ ، حتى يأتهم آت من غير أنفسهم ، ينفخ في الصور ، فإذا الأرض حولهم جيوش وجحافل ، ومصانع ومعامل ، ومعاهد ومعابد ، وحقول وجنات وعيون ، وإذا هم — بقدرة قادر ! — آلهة في الأرض يحكمون !

لينهضوا وليحرروا أنفسهم من قيود التاريخ النفسى الذى انحدر إليهم من الجاهليات ، فهم يعيشون به فى الماضى ، وإن كانت أجسادهم تلبس أبواب القرن العشرين ...

ولتكن قوارع هذه الحرب أجراساً وأبواقاً تجمعهم وتدفعهم إلى السير مع قافلة سريعة المراكب ، متلاطمة للمواكب ، غليظة الأثقال ، حاشدة جبال الحديد والفولاذ والقوى العارمة المجنونة التى يقول قائلاًها : « أنا القدر ! أنا القدر ! يا بنى البشر ! »

هل لنا أن نزعم أن الحق وصل إلى نفوس أكثر الناس فأدركوا صدقه وجماله ثم مع ذلك رفضوه ، وحينئذ يحق لنا أن نتشائم في مستقبل الإنسان ؟

أحسب أنه لم يصل في عصر ما من عصور التاريخ إلا إلى القليل من الناس . وإلى الآن لم تقم دعوة إلى الحق الواضح في الطبيعة بدون أن توضع في طريقها أغشية وعقبات ومعوقات تحجبه وتمنع الناس من إدراكه . والآن ، وقد تيسرت أدوات الدعوة وأدوات الإقناع وأدوات التربية يجب بدء دعوة ...

وإن في الناس خيراً كثيراً جداً أعظم مما يتضح من النسبة التي نجدها فيهم الآن ...

والدليل على ذلك ، نجاح الدولة الإسلامية الأولى ونجاح أمم الشمال في أوربا خلقياً وعلمياً ، فقد أثرت فيهم التربية حتى أوشكت بلادهم أن تخلو من السجون والجرائم والخيانة ، حيث الثقة بالنفس الإنسانية وطيدة . إن أدوات صحة النظر في الحياة واتجاهاتها ، موفورة الآن لأغلب سكان الأرض ؛ ولكنهم مأخوذون عن ذلك بجزائر التاريخ . وكان من الواجب بعد العلم الغزير أن يوجد الفكر الهادي والقلب الكبير الذي نضج وطاب ؛ ولكن عباب التاريخ وسيوله لا تزال تجرف الطفولة والبدور مع الجيف والقش والغشاء ، وتلقى الجميع إلى المصب الذي تلتقي فيه الأخطا من الضلالات التي تركها أبناء الجهالة الأولون ...

فلا مفر من فصل البدور والطفولة وعزلها عن مجرى سيل التاريخ ،

وإنشائها بأيد غير ملوثة ، إنشاء يرضى به هذا الزمان وعلومه وفنونه ،
ويؤهل الانسانية لتلك الخلافة الواسعة المتعاونة في جهاد الطبيعة واستنزال
بركاتها وثمراتها .

ولا مفر من تصحيح الفكرة عن الحياة وتوجيهها إلى الإيمان بها
كرحلة ممتعة أتاحها القدر لمن يخرج من العدم ، فيجب صرفها في العمل
والفرجة والاطلاع على ما يمكن الاطلاع عليه من آفاقها .

ولا مفر من تحويل عبقرية الفكر إلى عبقرية القلب والخلق والجسم .
فالعلم والفن يجب صقل النفس بهما ، وإشراق الجسم بإيها ، وإخراجه على
مقتضاها ، بحيث لا تتخلف حياة النفس والجسم وقواه وحركاته عن المدى
الذي وصل إليه الفكر ، ويحيث لا يتخلف ما في الشارع والحقل عما
في مدارس الفنون والعلوم والتجارة والزراعة وما إليها ، حتى تكون حياة
الجماعة صورة ومظهراً صادقاً لحياة الجامعات والأندية الثقافية ، ولا يكون
في الأمة مفارقات ومناقضات بين حياة الفكر وحياة الواقع .

ولا مفر من حمل كل إنسان على أن يدرك نفسه ، ويستغرق في
التفكير في حياته وحياة الإنسانية ، ويتيقظ لتلك القوة والقدرة التي
تسلط بها الإنسانية على القوى العمياء الجبارة وتسخرها في خدمتها .

وما الإنسان بدون يقظة للمعنى الفائق والروح السامي الذي في حياته
إلا جسد يختلج ويضطرب في ذهول وبلادة ، ويحيا هكذا حياة
مغناطيسية آلية .

ولكى ندرك جرائر التاريخ على العقول ، وأثره في تدليس الحاضر وإفساده وتزوير النفوس ، سأعيد عليك حديث صورة لا تجهلها عن طرق دراسته على السنة العجائز وفي المدارس ومجالس القصص :

يتفتح عقل الناشئ منا فتلقنه عجائز بيته ، وشيوخ قومه ، ومعلمو مدرسته تاريخ قوميته ، وتاريخ الإنسانية بأغلاطه وتناقضه ، ومحاولات العصور القاصرة في فهم الحياة ، وجهاد الإنسانية في شق طريقها الأول بين الصخور والمتاهات والعقبات ؛ فما يكاد عقل الناشئ يصل إلى دور الحكم والموازنة ، حتى يكون قد تطبع بما وعى ، وأصابه ثقل التخمة ، وحيرة الامتلاء والتبلبل .

ذلك لأن التاريخ لا يدرس على أنه محاولات أولية من الإنسان ، فيها أخطاء كثيرة ، فيجب الحكم عليها حكم دور الرشد على دور القصور ، ولكنه يدرس وعليه طابع التقديس والإعجاب بالأقدمين والاعتزاز بهم في مغالاة وتضخم ، وبخاصة تاريخ القوميات والجنسيات .

وكان من كبرى نتائج ذلك ، أن عاش كثير من الماضي السيئ في الحاضر . بل وجدنا جماعات تفر من الحاضر لتعيش في الماضي وترى أنه كان الحياة . . . ! وتمدح الناس بما فعلت الجدود وقالوا إنا على آثارهم مقتدون .

فلم يفتح أبناء العصور المختلفة عيونهم على حياتهم في زمانهم ، بل فتحوها على الماضي وعاشوا به في الحاضر ، وظهر أثر ذلك في الافتتان بهوامش الحياة ؛ والعكوف على دراسة سطوحها ، وترك دراسة أصولها

وعلمها النفسية الطبيعية والتجريبية التي تبقى لها نتائج دائمة تسلم
إلى نتائج أخرى في سلم الترقى والتطور .

وقد لاقى أكثر الناس الحياة بطباع مدلسة ليست بنت زمانها ، وإنما
هي بنت الماضي السحيق ، وحملوا معهم في رحلة العصور خرافات ووثنيات
وسخافات احتفظوا بها ، حتى في القرن العشرين ، ووضعوها حواجز
وعوائق في طريق الحياة الحديثة ذات المعجزات والنبوءات الدائمة التي
لا تحتمل جدلاً أو مخارقة !

وكان من نتائج ذلك أن وجد المصلحون في كل عصر ركماً من
الغباوات والجهالات توضع في طريق دعواتهم إلى الإصلاح والعلم وفتوح
الذكاء ونور البصيرة ...

ليس قبيحاً جداً بالطفل أن يعترك مع إخوته على شيء يريد لنفسه
ويريدونه لأنفسهم ، فيمتصيحوا ويتضاربوا ويحطموا أمامهم ؛ لأن الطفل
يعيش بالغرائز ، فهو أناني ضيق التفكير ، لا يدري أن أباه يملك الكثير ،
ولا يفهم فضيلة الإيثار إلا بعد التمييز والتدريب .

ولكن ما بال الأم التي رأت خيرات الله تملأ فجاج الأرض ، تتقاتل
على البحر الزاخر والحقول الممرعة والجو الواسع ؟ إن ذلك من أخلاق
الطفولة ، وضيق آفاقها ، وتحكم الغرائز في حياتها . وهذه صفات وجدت
لها في مخلفات التاريخ مبررات وحججاً وتأريخاً !

ومن العجائب أنهم يدمرون ما يسعون إليه من الغنى والثروة حين

تشور غرائزهم ! وإن الحقد والشره والطمع لتستنفد وتهلك من مال الأمم
الأثرة الجشعة ، ومن بذها الدم الفياض ، ما لا يمكن للخير والسلام
والإحسان والتعاطف والتفاهم أن يستهلكه أو يستهلك عشر معشاره !!

ونظرة واحدة إلى النفقات اليومية للأمم المتحاربة الآن تكفي في
البرهنة على هذا ، وعلى أن الإنسانية ما دامت مصروفة عن طاعة الحق
والعدالة والحسنى ، إلى تحكيم الغرائز الدنيا والانحدار في مجرى التاريخ ،
فسوف تظل هكذا تعمّر لتدمر ، وتعلم لتجهل ، وتتقدم لتتأخر .

وكان المقصود بحياة الإنسان ، إذا استمر على هذا ، هو تحقيق مشتهيات
الغرائز ، وإظهار عبقریات النفس البشرية في التخريب بعد التكوين :
فهى طوراً تبني وتعيش في صفات البناء وأخلاقه ، وطوراً تهدم وتعيش
في أخلاق الهدم وصفاته ، لتدرك معالم الضدين المتقابلين الأبديين :
الخير والشر ...

ولسكن إن صح هذا كتعليل لحياة الشر في الماضي ، حين كانت
الحياة محتاجة إلى دوافع الغرائز لتدريب الإنسان في طفولته على ما تهيمه
له الأقدار في مستقبله ، ولحمله على الاقتحام والكشف وتفتيق الحيلة ،
وحين كانت نتائج ثورات غرائزه محدودة ضيقة لا تتعدى أضرارها إلى
هدم أصول الحياة ، وتحطيم أسس الاجتماع ومخلفات الإنسانية ذات
الحرمت والقيم التي لها اعتبارها ، كما هي الحال الآن في نتائج هذه الحرب ..
فلن يصح الآن هذا التعليل بعد أن صار قتال الإنسان كقتال الآلهة
لاخصام الأطفال !

وقتل الآلهة — لو كان هناك آلهة إلا الله — تخريب لأصول الحياة ،

وسحق لبراعمها ومناطق نموها . وهم يعلمون بالطبع طرق التسلل إليها

والإطباق عليها ؛ لأنهم — فرضاً — خالقوها وواضعو أسرارها ...

فلنوحد الإنسانية بعد أن صار لها قوة الآلهة في التخريب ، كما

وحدنا الأرباب !

وننعل بأرواحها وأفكارها عن مستوى بنات الطين والتراب ، من

كل ذات ظفر وناب !

في أصول الاجتماع والسياسة والاقتصاد

عقيدة الجنس!

قلوب الأمهات — حدود الجنس — الإحساس بالمجتمع في الذات —
في الدورة الصغرى — للدورة الكبرى — جوهر واحد في ألوان مختلفة
— منطقة التلاقى والاتفاق — سدود العامية تنهار .

يدين الله الإنسان أن يشعر في أعماق نفسه شعور الإحساس بالجنس
البشرى ، وبوحدته معه وفنائه فيه ، وخدمة أفراده ومجموعه وأهدافه العليا .
وفي ضمائر بعض الناس أغوار عميقة رحبة في حبها الإنسانية وشعورها
بها وبوحدتها معها ، كأنها قلوب الأمهات في شعورها بأبنائها ...
لا شك أن هذه القلوب تستمد من فيوض رب الرحمة والعون والحب !
ولا شك أن ضمائرهما تأخذ من ضميره تعالى وتنظر إليه دائماً ...
ولن أستطيع أن أفسر التضحية الكاملة والغيرية والإيثار العجيب ،
تلك الصفات التي نجدتها في قلوب خدام الإنسانية وآبائها ورؤادها ،
إلا إذا قلت إن يد الله تعمل في هذه القلوب ، وتتصل عن طريقها بخدمة
الحياة وحفظ لبابها ، وتعمل أعمالها العظيمة للإصلاح عن سبيلها .

وإلا فما هذا الشعور العميق عند هؤلاء بالفناء في خدمة الجنس ؟ !
إنه من عالم غير أرضي ... وإلا فما هي العدالة التي رضى البشر جميعهم
الدعوة إليها منطلقاً من تلك القلوب ، ولهجوا باسمها ، وطالبوا بإقامة الدول
والمجموعات البشرية والعلاقات الدولية على أسسها ؟ إنها إن لم تكن

مستمدة من عدالة السموات ، فما هي إلا لفظ كعلبة فارغة يملؤها كل حاكم قوى بما يهوى .

إن هذه القلوب ذات العمق والاتساع ، تشعر شعوراً أكيداً أن كل ظلم أو فساد يقع على إنسان أو مرفق من المرافق الصالحة لحياة الإنسان ، إنما هو واقع عليها بالذات ، وتحس لسعة الأفق كلما أصاب الأفراد أو المجموع ظلم أو فساد .

لا شك أن الله تعالى خلق هذا النوع من القلوب لحفظ المجتمع القاصر وإرشاده ، كما خلق غرائز الأمومة والأبوة لحفظ الطفولة وإرشادها .

ودائماً يشعر هذا الصنف من الناس أن حدوده مع الله تعالى تكون حيث حدود الآخرين ، وأن منطقة متاخمة ذاته لذواتهم يقف عليها حارس يقظ ، هو ذلك الذي يسمونه الضمير ، ومعه جرس التنبيه ، تدقه يد الله من داخل النفس ، فلا يسمع رنينه إلا حامله ... وهو حارس حريص على أن يرفع صوته دائماً ، سواء استجيب له أم لم يستجب .

وحيث تنفد أي أكثر ضمائر الإنسانية وتقابل أصواتها على شيء ما فتمَّ حدود الجنس كما أقامها الله !

والإنسان الاجتماعي ينبغي أن تكون له عقلية وشعور وآمال تغاير ما يكون للفرد الأبد المتفرد مغايرة تامة . وليس الأمر في الانتساب إلى جماعة والعيش معها ، أمر عنوان أو رابطة ظاهرية ، وإنما هو أمر عميق في النفس ، لا أمر خوف من الانتقادات ، أو قوانين العقوبات ... هو أمر إحساس بالذات في مجتمعها ، أو بالأحرى أمر إحساس بالمجتمع في

الذات ! وكل مصائب الاجتماع ناشئة من ترك أدوار النمو في الفرد بدون رقابة وتعهد رشيد يسهر على إنبات النفوس نباتاً اجتماعياً مسالماً ، لانمواً شيطانياً طاغياً . وإن حياة الجماعة يجب أن تخضع الأشواك في أعواد الأفراد ، وتجمع تلك الأعواد كما تجمع طاقة الزهر في تنسيق وتصنيف لا تحتلط معه أشواكها الحادة المُسرعة بأوراقها الرقيقة الحريرية فتمزقها تمزيقاً ، وتعكس المطلوب من جمال منظرها مجتمعةً ، إلى قبح منظرها مجتمعة ممزقة ...

أجل ، إن برائن الناس وأنيابهم في الأمم المنحطة التي لاتزال الفردية والأنانية متغلغلة فيها ، تمزق وجوههم وتقطع روابطهم ، فتبدو حياة اجتماعهم قبيحة الظواهر قبيحة البواطن ، ويشعر حينئذ الانسان الحر العاصر القلب بالمعاني السامية ، أن حياة التفرد والعزلة أجمل وأكمل وأدعى الى راحة الفكر ، وصيانة أمانات الحياة في النفس .

والناس لا يزالون في دورتهم الصغرى حول نفوسهم وذواتهم وقومياتهم . لا يزالون محكومين بأنانيتهم ورغباتهم الخاصة ، كما يحكم الأطفال بفراغهم الدنيا وحدها . أما دورتهم الكبرى كجنس عظيم يعمر الأرض ويثيرها ويسخرها مسددا الى هدف واحد ، فتلك لما يشعروا بها بعد ... مع أنها من الغايات العظمى خلقتهم .

إنني أشعر أنه يجب أن نسقط اللغة والوطنية والقومية الآن من حسابنا حين نتحدث في شأن الإيمان بالجنس ، وأن ننظر إلى الإنسانية الواحدة من أزها إلى حاضرها ، ونتخيل مستقبلها ، لنراه وحدة جامعة تسير في

دورة كبرى بخطى مطردة في طريق تعلق وتسمو .
وقد أخذت كل أمة تقريبا دورها التاريخي في حمل الشعلة على
طريقتها الخاصة ، حتى ضعفت يدها عن حملها فتسلمتها أخرى ، ثم وصلت
الحال الآن إلى أن الأمم جميعها توشك أن ترفع بأيديها مجتمعة
شعلة الحضارة .

وإننا حين نجرد الأشخاص الإنسانية من جلودها الملونة وأسنتها
المختلفة ، نجد جوهرأ واحداً في قلوبها وعقولها ؛ فالعواطف الشريفة والنوازع
الخشيسة واحدة في الجميع ، والاستجابة لحجج الحق والعدل واحدة
في عقول الجميع .

وفي كل مكان وجدنا زرعاً إنسانياً متشابهاً في طباعه واجتماعه على
المعاني الكلية التي تنظم حياته ، وفي تلميته لدواعي العلم والدين والجد
والعب والحياة والمجد . وما وجد في مقادير ذلك من تفاوت ، فهو لا يضير
وحدته ، ولا يمنع الاعتقاد بأنه من بذرة واحدة .

نعم إن الله بذر بذور النوع الإنساني في بقاع الأرض المختلفة
الطبيعة ، وجعلها تنبت متباعدة في عهد طويل ، حتى تكونت الإنسانية
الحالية منوعة الظواهر بفعل الأمكنة والتربية واختلاف اللغات ، وتنوعت
أفكارها تبعاً لذلك .

فمن أراد بعد ذلك أن يمحو آثار ذلك كله ، فهو جاهل خائب .
ولكنه يستطيع أن يجمعها على صفاتها الكلية المشتركة وجوهرها الواحد ،
ويقوم حياتها السياسية والاقتصادية على العدالة التي تدركها عقولها وضماؤها

جميعاً ، ثم يترك أمر تفرقها في الفرعيات بدون محاولات .

فالناس لا يمكن جعلهم أمة واحدة في غير العدالة والمجال السياسي والاقتصادي ، لأن غير ذلك مناقض لقوانين الفطرة في اختلاف الناس اختلافاً كبيراً في الأمزجة واللغات والألوان وسائر الفرعيات ؛ إذ أن خالقهم أراد تمايزهم وتنوعهم هكذا ليتعارفوا ، وتكثر معاني المعرفة بينهم تبعاً لكثرة التفرع والتغاير والتميز والاختلاف ، ولأنه نوعهم كما ينوع البستاني الحاذق الثمار والأزهار ، فذلك أجمل وأوقع ، وأدعى للتنشيط وكثرة المعلومات والأذواق .. أما التوحيد السياسي والاقتصادي في نطاق واسع مشترك ملحوظ فيه حق كلِّ وواجباته ، سواء أكانت «الوحدة» في ذلك النطاق الفرد أم الأمة ، فذلك ممكن ما دام مدعماً بوسائل القوة والسرعة والإخضاع للتنظيم ، واحترام السلامة الإجماعية ، واشتراك الجميع في إخضاع التأثير على نظام الجميع .

ومهما فعلت « العامية » في نفوس الساسة المتخلفين عن ادراك هذه الحقائق السامية في حياة الجنس ، والقاعدين عن الوصول إلى قمة الفكر والخلق ، الذين يابون أن يعترفوا بما توحى به حقائق العلم والإيمان وسير الزمان ، ويقيمون الحدود المصطنعة بين جوهر القلوب والأفكار التي وحدها الله ، ويجعلون الفروق السطحية موانع وعقبات كأداء لا يمكن اجتيازها — مهما كان من ذلك ، فإن السيل الجارف والتيار الدافق النابع من عالم الفكر الإنساني والضمير الواحد ، سوف يجتاح ما أقاموا من سدود ويدمر ما صنعوا « وباطلٌ ما كانوا يعملون ! » .

وقد انبثقت البشوق في تلك السدود ، واتسعت الثغرات بما قدمته
الكهرباء الساحرة ، والأثير الجامع ، والعلم ذو الطبيعة الواحدة الموضوعية
وبما قدمته الحروب القديمة والحديثة من مزج الدماء ، حتى يخرج منها لون
جديد تراه بصائر الأبناء بعد هلاك الآباء !

وان أحداث القوة والدم ، وفتوحات الروح والعلم ، هي التي تستطيع
دائماً أن تجعل دائرة الجوهر الإنساني الواحد أساساً مشتركاً لتلاقي الضمير
الواحد للأمم والأفراد ، على استنكار جرائم القوة والدم ، والاستكثار
من فتوحات الروح والعلم .

النقص والتكامل

الإنسانية الواحدة — أدوار نمو الإنسانية هي أدوار نمو الفرد — من
وحى الحرب العصرية — مقدمات الوحدة — عصر القبيلة الأسمى —
الأقدار تفصل الجسم الواحد — دفع وهم — الخيرة في أمريكا — أم
مجنونة وبنت عاقلة — من توحيد الأرباب إلى توحيد الإنسان — لا حياة
مع هذه الحرب — قيامة صناعية — سلم طويلة من حرب خاطفة —
المبضع من السيف — دم الحرب دم مخاض — معان تبقى من أم تفتى

ألمس في نفسي ، وفي كل فرد عرفته من أمتي مهما كان عظيماً ،
نقصاً أجد تكميله عند غيري وغيره . وهذا مما يؤكّد في فكري أولاً أن
الدولة جسم واحد يكمل بعضه بعضاً ، ولا يستقل عضو منه بحياته إلا ظهر
مبتوراً ناقصاً . وكاله وجماله في أن يتضامَّ إلى غيره ، ويتعاون ويصبر على
مضايقة ذلك الغير حتى يستطيع إدراك الكمال الميسور .

وكذلك ألمس في كل أمة نقصاً أجد تكميله لدى غيرها من الأمم . وهذا
مما يؤكّد في فكري ثانياً أن الأمم في المجموعة البشرية ، كالأفراد في مجموع
الأمة الواحدة ، كل منها لها ميزة تكمل غيرها ، وفيها نقص يكمله غيرها .
فالفرد الكامل الذي يستطيع أن يحيا وحده لم يخلق بعد ولن يخلق .
والأمة الكاملة التي تستطيع أن تحيا وحدها لم تخلق كذلك ولن
تخلق ...

تلك حقيقة توحى إلينا الإيمان بالإنسانية الواحدة ، وتحمم علينا أن

تتناسى مواريث الوحشية القديمة والعصبية الأولى ، وأن تفكر للحياة الواحدة المستقبلية التي يصح أن تنتظم الإنسانية جميعها ، بعد أن ذهب عنها دور الطفولة التي كانت فيها حدود الأرض ومعارفها مجهولة ، ومواردها وأرزاقها محدودة .

ويعظم في نفسى يوماً بعد يوم وجه الشبه بين سير الحياة بالفرد الواحد من طفولته إلى رشده إلى شبابه إلى كهولته ، وبين سير الحياة بالإنسانية جميعها من طفولتها إلى شبابها إلى كهولتها .

وإني أكاد أجزم أن خطوات سير الحياة بالإنسانية كلها ، هي خطوات سيرها بالفرد الواحد . وكل من يتفرس في الحياة الاجتماعية يجدها وحياة الفرد سواءً في تدرجها من الغرائز والمواطف إلى الرشد والعقل .

وكما يحصل للطفل والشاب أن يغضب كثيراً ، ويكون أنانياً فردياً في حاجاته ، ويحطم ما أمامه ولا يبالي بالنتائج ؛ كذلك الإنسانية في دور طفولتها : أنانية غضوبٌ تحطم كل شيء في سبيل منفعتها الضيقة .

ولكن كما تمنع التربية وضبط الأعصاب وفعل الزمن الرجولة من أن ترد إلى أساليب الأطفال وغرائزهم ، وتحبسها عن الغضب والتحطيم — إلا إذا امتدت فيها حياة الطفولة ، للشذوذ أو عدم تقدير النتائج — كذلك الإنسانية لا بد أن تصل إلى هذه المرحلة في يوم ما قريب أو بعيد ...

يوحى إلى ذلك ، ما أراه في الحرب الحالية من عنف التحطيم وشدة البأس ، وجنون الإنسان ، وقسوة الآلة ؛ بحيث لا يمكن مطلقاً أن تحتل

الحياة بعد هذه الحرب ، إذا لم تقم الغرائز والحماقات التي أثارتها ، وإذا لم يوضع أساس حياة مشتركة للإنسانية الواحدة التي ابتدأت وحدثها تبدو وتستعلن في هذه المجموعات الكبيرة من الأمم ، وهذه الرابطات الوثيقة بينها ، ومن اختزال المسافات والأبعاد واشتباك المصالح ، واشتراك مناهج الدراسة والثقافة العامة ، ومن معرفة كل جنس بخصائص كل جنس ، ومن الدراسات المنظمة ، والمؤتمرات الجامعة ، والجمعيات العالمية ، ومن كثرة الأسفار وامتزاج الطبائع ، واختلاط الأجناس ، وتفكير أرباب التجارات والأعمال في الأسواق العالمية ، ومن تبادل تعلم اللغات والأغاني والملاهي وأدوات الزينة ، ومن « الصندوق السحري » : الراديو الذي سيصوغ حواس الطفولة وقلوبها غير صياغة قلوب الآباء الذين نشأوا محجوزين ، محجوبا بعضهم عن بعض بالسدود والحدود والتخوم ، ومن « السبورة السحرية » : السينما التي تنقل الدنيا وناس الدنيا ، وتعرض الجميع على أنظار الجميع في حجرة ضيقة .

يصح أن نسمى عصرنا الحاضر « عصر القبيلة الأُمِّيَّة » . والإنسانية كلها الآن تمر به كما مرت كل أمة بعصر القبيلة . واشتداد التناحر بين مجموعات الأمم المختلفة في هذا العصر ، هو صورة مما كان يحدث بين القبائل في الأمة الواحدة .

ولم يحمل القبائل المتعادية في القديم على الصلح الدائم والاندماج والوحدة الشعبية ، إلا ما كان بينها من حروب وتخريب وتعطيل للحياة .

فلما رأته أنه لا حياة مع الحرية الكاملة والوحشية المطلقة ، تنازلت كل قبيلة عن بعض حقوقها وحرّياتها ، ورضوا ذلك ، إما بضغط الأقوى الأعدل ، وإما بالإدراك الصحيح للموقف ومراعاة مقتضيات الحياة .
وكذلك كان الأمر في تكوين الأباطوريات المختلفة : حروب ونزاع مستمر ، وتخريب للمالك والمملوك ، ثم اتفاق أخير ونزول من الجانبين عن بعض المصالح في سبيل المصلحة التي لا غنى عنها للجميع .
وكذلك تكون الاتحاد السوفيتي ، والولايات المتحدة الأمريكية من جنسيات وأديان ومذاهب مختلفة ، بعد حروب ونزاع دمر حياتهم في بعض مراحل تاريخهم .

وكذلك وجدت البذرة التي لا بد أن تنمو بعد هذه الحرب : وهي بذرة « عصابة الأمم » التي سيمحافظ الغالب والمغلوب في هذه الحرب على إيجادها وجوداً فعالاً مسلحاً^(١) ، لا وجوداً صورياً كالذي كان عقب الحرب الماضية .

وعندى يقين غالب ، أن الأقدار تفصل الآن بالحديد والنار جسم الإنسانية الواحدة ، ذات الحكومة الواحدة ، كما فصلت جسم كل أمبراطورية على حدة ، كما فصلت جسم كل أمة على حدة ، كما فصلت جسم كل قبيلة على حدة ، كما فصلت جسم كل أسرة على حدة ، كما فصلت

(١) نحرر هذا للطبع مصادفة في ٢٨ ابريل سنة ١٩٤٥ (بعد أن نشرناه في ٢٨ ابريل سنة ١٩٤١) ومؤتمر « سان فرانسيسكو » مجتمع لتكوين « مجلس الأمن الدولي » المستند إلى قوة عالمية . وفي قلوب الإنسانية التي دمرتها الآلام صلاة حارة أن ينجح الله هذا الأمل العظيم ، وأن يوفق الجميع للإخلاص فيه وتجنب أسباب انهياره .

كل جسم على حدة ، كما فصلت كل عضو على حدة ، كما فصلت كل خلية على حدة ... !

هو قانون واحد ينتظم الكون كله ! قانون الجزيء ، والذرة هو قانون المجاميع . . . واللقاح السياسى واللغوى والعلمى والاقتصادى فى المجموعات الكبرى والأمبراطوريات واتحاد الولايات ، هو الوسيلة إلى ذلك الأمل المنشود .

ولا يتوهمن واهم أننى أزعم أن الخلاف سيذهب من الأرض . كلا . وإنما سيبقى كما هو ، فى حدود الدولة ، بين الأحزاب والآراء والمذاهب الاجتماعية ، وكما هو بين الأسرة الواحدة ، وكما هو بين القوى المتنازعة فى الفرد الواحد : بين العقل والعاطفة والغريزة ؛ لأن الدفع قانون طبيعى كقانون الجذب ، ولكنه دفع لا يفلت من قانون القوة والقهر ، كما هو الحال فى الدولة الواحدة القوية التى لا يفلت منها من يريد الخروج عليها .

إن نفوس الأجناس وطبائعها تتغير تغيراً سريعاً من التمايز إلى الاندماج والاتحاد السياسى . فلم يبق فى الولايات المتحدة نعرات أجناس ، وإنما صارت كتلة سياسية واجتماعية واحدة بمرور جيل أو جيلين ، وبتوحيد اللغة العامة . والولايات المتحدة « خيرة » للحياة الإنسانية المقصودة . هى نموذج ناقص ، ولكنه أقرب إلى الكمال من غيره ، وكان من الواجب أن يحدو العالم القديم حدو هذا العالم الجديد السعيد ، ويترك مواريث التاريخ السيئة ، وعصبية الأجناس ونعراتها ، ويتفق على الحد الوسيط الذى يرضى

الجميع ، مع التضحية ببعض الاعتبارات والحريات .
أوروبا ولدت أمريكا . والبنت هنا أعقل من أمها وأسعد ! فلا تزال
القارة العجوز تحتفظ بأحقاها القديمة ، وموارث تاريخها السيء في عالم
الحسد والبغض والخديعة والبطش والتنازع . ولا تزال تشقى الأرض
كلها معها . بينما أمريكا تسعدنا وتجدد الحياة يوماً بعد يوم ، وتنثر
الأفراح والمباهج في كل مكان .

لقد برئت أمريكا من حب الاستعمار والتنازع عليه ، فبرئت من
السُّعارة الذي يصاحبه ، وبرئت من الصفات الذميمة التي تصاحب خلق
الافتراس . وصارت حبيبة إلى جميع أمم الأرض .

اتخذت الطريق المشروع إلى الغنى والثروة ، وهو طريق التجارة
والمنافسة المحمودة واستغلال الموارد الطبيعية ، لا طريق الغصب والغلاب ،
فأخذت تجمع من هذه الطرق المشروعة وتعيش بما تجمع ، وتوزع منه
على مؤسسات البر والعلم في بقاع الأرض ، ثم لا تُفجع فيما تجمع ، ولا تحترق
وتدمر معه كما جرى للأمم أوروبا .

وتورطها في الحرب الماضية والحالية إنما كان لتأمين هذه الطرق
المشروعة ، وللدفاع عن أقرب الناس إلى عقائدها في الحياة .

لقد خطا الإنسان بإدراكه عقيدة توحيد الله خطوته العظمى إلى
الكمال العقلي والقلبي ، حين رأى أن العالم كله يساق بيد واحدة ، وتوزن
أموره بميزان رب واحد ، فيجب أن يتجه بقلبه إليه وحده .

وسيخطو خطوته العملية والعلمية العظمى ، حين يدرك « الإنسانية الواحدة » ويؤمن بها . وكما حلت عقيدة توحيد الإله مشكلات الاعتقاد ، ووجهت الحياة وجهة واحدة ، بعد أن كانت موزعة على أرباب متفرقين . كذلك سيحل الإيمان بوحدة الإنسانية مشاكل وعقداً مستعصية ، وتوجه به الأمم وجهة واحدة ، هي وجهة الخير المشترك ، بدل الخير المتفرق الضيق الأناني ، ووجهة العلم البناني المعمر ، بدل العلم الخرب المدمر ...

لقد كان منطق الفرقة والتنازع العنيف بين الناس معقولا في الأزمنة الماضية التي كان بين الأمم فيها حواجز سميكة من الجهالة والأسفار الطويلة واللغات المجهولة ، والثقافات المختلفة إلى حد التناقض ، وانحطاط الأهداف ، وكان دور تحكيم الغرائز مقبولا لحل ذلك الإنسان الجاهل على التسابق العنيف إلى كشف بقاع الأرض المجهولة ، لا للذة العلم وسمو المعرفة ، وإنما لمنافعها المادية الضائعة ، إذ لم يكن له علم وعقل يغنيانه عن الغريزة . وكان الاختلاف الحاد بين الناس متمشيا مع منطق أحوالهم حينذاك ، لأنه لم يكن هناك أفق عقلي أو علمي أو عملي مشترك بين أمة وأمة متجاورتين ، بله المتباعدتين ، ولم تكن الظروف لتسمح بوجود ذلك الأفق المشترك إلا عن طريق الحرب التي كادت تكون الوسيلة الوحيدة للاختلاط بين المتفرقين ، والتعارف بين المتجاهلين ...

أما الآن فقد صار هذا التفرق والتنازع ضاراً للجميع ، قاطعاً للعلاقات التي تنمو في وقت السلم نمواً عظيماً غزيراً لم يكن له مثيل في العصور الأولى ، وصارت العودة إلى تحكيم الغرائز ارتداداً وانتكاساً في الحياة كانتكاس

الرجل الحليم إلى غضب الطفولة الذميم ؛ إذ قد صار في يد الإنسان من أدوات الهلاك والدمار أشياء فظيعة تهدم الحياة من أساسها ، وتسحق براعم نموها ، وتجعل العمل للحياة والسعى لها في وقت السلم ، عبثاً لا طائل تحته ، مادامت الحرب تأتي بعد ذلك لتأكل الأخضر واليابس ولا تبقى ولا تذر .

وقد ثبت الآن أن كل ما يصل إليه العلم من أدوات السيطرة والتغلب على قوى الطبيعة ، وأدوات ترف الحياة ومباهجها ، يتحول إلى أدوات دمار وإبادة إذا ما ثارت بالأمم ثورة الحرب وبراكين الحقد الدفين . فلا أمان على الحياة من شيء مع غضب الإنسان . وقد عاد شعار الجاهلية القديم الذي كان يهتف به المحاربون القدماء ، وهو تلك الصيحة : يا منصورُ أمت !

وكانت الأديان والأخلاق قد جعلت للحرب في العصور المتوسطة قوانين فيها بقيماً على مناطق نمو الحياة ، وفيها ذكرى للود القديم والدم والنسب وصلة العلم والفن والعمران ، وكانت الحرب تجدها في وقت احتدامها ما يخفف آلامها من نبيل القروسية ، ورحمة القادرين ، ووصايا القواد بالضعفاء والمرضى والشيوخ والأطفال والنساء والحرب والنسل :

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها !
أما الآن فاذا بطشوا بطشوا جبارين ! لا يذكرون طفولة ولا شيخوخة
ولا مخلفات فنون وعلوم وآثار ثمينة ، هي ملك الإنسانية جميعها .
ومن كان يظن أن الإنسان الأوروبي العالم الفنان الذي فتنته أحاسيس

الحياة وجن بها جنوناً ، فعبيدها في الزهور والرياحين والحب والألحان
والعناية بالطفولة ، واقتنى التحف والمخلفات الأثرية من الجمجم والعظام
والأحجار والخرزات ، ولم يدخر في سبيلها مالا ، وجمع مجموعات النبات
والحيوان ، وحرص على استخراج كنوز الأرض ، والتقى على صفاء في
الجامع العلمية والأدبية والملاعب الرياضية والمؤتمرات العالمية ، وتبادل تعلم
اللغات ، وسكن جميع بقاع الأرض ، وعرف آلام الأجسام والأرواح ،
وأنفق الأموال الطائلة على نبش الأرض ليستخرج منها حلقة مفقودة تنير
له تاريخ الإنسانية التي يعتز بها ... من كان يظن أن من فعل كل أولئك
يجرؤ على أن يهدم حاضر الإنسانية بكل ما حمل في طياته من الماضي ،
ولا يبالي أن يزهد الإنسان ومدنه وكل ما حمله عقله وقلبه !!

فأين عالم الدفاتر والمحابر والمنابر والمؤتمرات والجامع والمعاهد والمعابد ؟
أين عالم العقول والقلوب ؟ أين الشعر والفن والرحمة والحب والجمال والخير ؟
أين المعاني التي سجلها الدين والأدب عن الآلام ، ودارت عليها فلسفات
وقصص ومسرحيات ؟ أين مؤسسات الرفق بالحيوان ؟ أين كل « الدراما »
و « التراجيدي » التي كانوا بها يبكون في المسارح على آلام الإنسانية ؟ !
أ كانت ملاهي وملاعب لا أكثر ؟ يا لها إذاً من خديعة عبقرية !

ولكن هذه هي الحرب العصرية : صورة مصغرة من أهوال
« القيامة » . . بل القيامة ساعة ثم تنقضي الحياة ويستريح الناس بالموت
إلى حين . . ولكن الحرب العصرية « قيامات » لا عدد لها . بها يموت

الناس ويبعثون ، ثم يموتون ويبعثون ، كلما شنت عليهم غارة جوية إلى أن تضع الحرب أوزارها .

فيا بني الحياة ! أى حياة هذه !؟

إن الله أرحم بالناس من أن يجعلهم لمثل هذه الحياة . والناس أرحم بأنفسهم من أن يحيووا مثلها . إنها مرحلة لا بد منها في طريق الإنسانية الشقية إلى الاستقرار والراحة واللقاء الذى لا بد منه بعد الافتراق والتقلقل . ومن بين ظلمات هذه الحرب الخاطفة السريعة يلمع نور السلام البطيئ الطويل ..

ومن بين نيرانها وزلازلها وبراكينها يبدو برزء الحياة وثباتها واستقرارها .

ومن بين قسوة القلوب فيها ، بقسوة الآلات والمدمرات تلوح عواطف الرحمة والحب .

لقد كان من نتائج الحروب الكبرى دائماً ابتداء دورة زمنية بالإنسان وانقلاب فى أوضاع الحياة . والذين عاشوا قبل الحرب العظمى الماضية وبعدها يدركون الفرق الشاسع بين الحياتين .

هذه السرعة التى فى آلات الحرب ستكون فى آلات السلم مضاعفة . وكما استحال سيف الحرب إلى مِبْضَعٍ للطب ، ستستحيل جميع آلات الدمار إلى آلات إنتاج وتعمير ورفاهية وهدم للسود والعقبات فى طريق تعمير الحياة .

ولا شك أن تشبيه الحرب بمحادث المخاض والولادة تشبيه صحيح

من كل وجه .. فكل حرب تلد مولوداً من الطباع والأوضاع والأفكار
والآلات والمرافق .. مولوداً يجدد الحياة ويقذف في شعلتها حطباً !
ولا ضير فيما يصحب ذلك من الألم والدم والهزة والخوف ؛ فكل
هذه أعراض تصحب حادث الولادة في حياة الانسان ...

ولن تضيع سدى تلك الأرواح التي ذهبت قرابين للمعاني السامية
في قلوب الأمم المحاربة لإقرار الحرية والحق والسلام ؛ وإنما هي لبنات
في البناء الخفي للوجود الانساني .. وإنها كلها حية تنظر إلى عمراك الجماعات
في عالم الظواهر كعمراك ذرات تحملها الرياح ، أو حصى يحمله ماء السيل
حتى تبلغ مكانها المرصود في بناء الوجود ...

وسواء أوضع حجر في خفاء الأساس ، أم رفع في علانية القمة ،
فالكل بناء واحد ...

وتبلغنا أنباء انكسار أمة وانتصار أخرى فلانلتفت إلى الأفراد فيها ،
وإنما يعلو عنوانها أو ينخفض ، وهي صورة موحدة ليس فيها توزيع ،
فتفرح كلها بالانتصار ، ولو باد في سبيله كثيرون ، وتستاء كلها بالانهزام
ولو انتصر فيها كل فرد نصراً فردياً ، وأتى بأعمال البطولة المعجزة .

فهل لأصحابنا الفرديين الأنايين أن ينظروا موضع الفرد من الأمة
على ضوء نار هذه الحرب ، وموضع الأمة من مجموعة الأمم التي
تنسب إليها ، حتى يتبينوا أنه لا وجود إلا للمعاني العامة التي هي ملك
الدولة أو الإنسانية جميعها ؟

إن هذه النظرة إلى المعاني الكريمة العامة تجعل الناس يحملون السلم
بقلب عارف بها ، ويحاربون إذا كتبت عليهم الحرب بسيف كباضع
الأطباء : تقطع لتشفي ، وتقتل فتُحسن القتلة بدون مُثلة ولا نية إثم
أو جريمة ، وتجعلهم خصوماً شرفاء رحماء ، يحاربون بروح رياضية كأنهم
يلعبون ، وتجعل من السيوف ظلالاً للضعفاء والمسالين .

وتلك نظرة الريانيين المؤمنين بالله وبالإنسان : آمن ودائع الله
في الأرض !

الواحد !

البحيرة الكبيرة من المنبع الصغير — هذه الحرب من قلب واحد —
صمامات التيارات العظمى — الفرد المنشود عالم معقد — التبادل بين
الفرد الواحد والانسانية الجامعة — توزيع الدنيا على الأفراد والأفراد
على الدنيا — من جذور الشجرة الانسانية الى ثمارها — لابد لحياة الشجرة
من اعتراف كل جزء فيها بكل جزء

تظهر بوضوح قيمة الفرد البشرى الواحد ، ومبلغ آثار تصرفه ، في
تدبير تشرشل أو هتلر أو روزفلت أو إينونو أو ابن سعود أو ستالين
أو أيزنهاور أو أمثالهم ؛ فإن تصرف أحدهم يجر على أمته إما الحسنى
والفخار ، وإما السوء والدمار .

ففي أمثال هؤلاء يتبين كيف يجر فرد شعبه أو العالم وراءه فيخفضه
أو يرفعه . ومعنى هذا أن الفرد البشرى ذو قيمة كبرى في حياة الاجتماع ،
وأن وضعه هذا يحتم على الدولة وعلى العالم أن يحترسا دائماً من سوء
تصرفاته ، وما يجلبه على الاجتماع من الضر ، وأن يحفلاً دائماً بحسن
تصرفاته وما يجلبه إلى الاجتماع من النفع .

فتصرف الفرد في الحياة الاجتماعية أشبه بتصرف ماء مستبحر من
ثلم رخو على أرض منخفضة ، يبدأ ضعيفاً ، ثم لا يلبث أن يتحول سيلاً
حدوراً لا يستطيع رده .

ومهما قيل في حكم الديمقراطية المطلقة ، والشورى الفضفاضة ، فروح

الانتقال والبطولة وفتح آفاق جديدة ، تتركز غالباً في فرد واحد ،
وخصوصاً عند الأزمات الخطيرة ، ويكون هذا الفرد حينئذ كموضع ينبع
الماء في البحيرة التي يكونونها ويكون آثاره وعظمته بها : فموضع النبع
صغير ، ولكنه هو البحيرة الكبيرة في الواقع .

وكيف انبثق هذا الدمار في هذه الحرب على العالم ؟ لقد انبثق من
قلب رجل واحد ملء بالحقد والضعينة على الذين رأهم لم ينصفو أمته .
وتجمع الحقد والضعن فيه ، وانتقل منه إلى أمته ، كما يتجمع القيح
والصديد والرَّحْضُ في رأس خُراج ، فيصيب جسم صاحبه بالحُمى والرَّعدة ،
ولا يمكن سده إلا بعد التصفية النهائية .

فهل بعد هذا يحتقر بعض الأمم شئون الفرد الواحد ويتركونه مهملاً
زاعمين أنه لا وزن له إزاء الأمة أو العالم ؟ !

وهل قام الخير أو قام الشر إلا بواحد ؟ الواحد هو أساس
العدد اللانهائي .

وهكذا ، إذا أراد الله أن يتصل بالناس اتصال تغيير في نظمهم
المعاشية أو السياسية أو الدينية ، وضع يده في قلب واحد ، وسلط منه تياراً
خفياً على الجميع . فإذا كان يريد خيراً بالعالم أطلق تيار الخير من قلب
رجل الخير ، وإذا كان يريد نقمة وقصاصاً أطلق تيار الصعق والحرق
السريع أو البطيء من قلب رجل الشر .

فلنجهتهد أن نجعل قلوب الأفراد مواضع ليدالله حين يريد الخير .

والعناية والمشيئة الإلهية التي تخرج وجوه الناس ونفوسهم وعقولهم
صوراً شتى متميزة ، مهما كثرت الأعداد ، بحيث لا يتشابه وجهان ،
ولا يتماثل عقلان في كل شيء ، حتى ولو كانا لتوأمين ، ترشدنا إلى أن
نرى في كل فرد جانباً متميزاً من الإنسانية ، وأنه موضع عناية وقصد
من مخرجه إلى الوجود .

ولو فهمت الدولة قيمة القصد في الفرد الواحد ، وخطره في الحياة في
حالاتي صلاحه وفساده ، إذاً ما كانت تسمح لنفسها أن تترك فرداً دون
أن تمر عليه بمنظار مكبر يكشف عن أدوائه ومنافعه .

فالفرد إما بؤرة ظلام ونجس وفساد متنقلة تحمل الجرائم الفتاكة
معها حيث حلت . . وإما بؤرة صلاح وطهارة وإشعاع تحمل وتعكس
عوامل الحياة والجمال معها حيث حلت . وشتان ما بينهما ! فكيف تهمله
الدولة هذا الإهمال الشنيع وهو ما هو في جسمها ؟ !

لو أفلت فرد شرير شيطاني من قيادتها وحراستها ، إذاً لعاث فساداً
في حرثها ونسلها وعمرانها . ولو ضاع فرد ملكي من رعايتها وتعهدها
وتشجيعها ، إذاً لضاع عامل عظيم من عوامل نموها وارتقائها وسعادتها
ولعل فيه ما يرفع النوع كله .

ويظن أكثر الناس أنه يكفي لإنشاء « الفرد الإنساني » أن نطرح
بذرة منوية في رحم من الأرحام ، تولد بعد مدة ، فتتنمو حتى تكون ذلك
الجسم المعهود الذي يملأ أسواق الحياة . . ونسوا أنهم في إنشاء شجرهم
وغيرهم وحيوانهم يسلطون يقظتهم وعملهم وتعهدهم الدائم ، حتى يحصلوا

على ما يريدون من الأصناف المطلوبة المرغوبة ، وأنهم يسهرون لمحاربة الآفات التي تدنو من حرثهم وحيوانهم .

ألا إن الإنسان المنشود عالم معقد ، ليس الجسم الظاهر إلا وعاءه وقلبه ! أما سره ومعناه ولبابه ، كما يريد رب الحياة من « النوع » ، فأمور لا تظهر الى عالم الاجتماع إلا إذا اجتمعت لها عوامل الحياة الصالحة بنسب موزونة .

وإن الروح التي عنها يتحدثون ، هي نتيجة تفاعل الحياة الحيوانية في الجسم مع نتائج التربية والبيئة والتعليم وجميع المؤثرات . إنها كائن منفصل عن الجسم كنتيجة وجود هذه العوامل الأرضية المختلفة . وإن من أدواتها ذلك اللوح الخفي السريع التأثير ، الذي ينطبع فيه ما يقع عليه أو يتخايل أمامه من المؤثرات .

فالذين يلقون « بذور » الإنسان في الأرحام ، ولا ينتقونها قبل إلقائها ، ولا يهيئون لها الجو الصالح وهي في مستودعها ، ولا البيئة الصالحة وهي في نشأتها ، ويتركونها هكذا تتداولها العوامل الطبيعية مصادفة ؛ هؤلاء ينبغي ألا ينتظروا من الحياة أن تعطيهم تلك الوحدات الإنسانية المنشودة القريبة من الكمال في صفات نوعها .

والإنسانية ملك الفرد ، والفرد ملك الإنسانية . وما كان من المستطاع أن يحصل الفرد الإنساني ما يحصله الآن من الأفكار والمعلومات والتجارب والأرزاق والمقاع لو أنه عاش فريداً متأبداً معزلاً حياة الاجتماع

فنحن جميعاً بإزاء بحار المعاني يأخذ كل فرد منا غرفة منها يلونها في إنائه بلونه الخاص ، ثم يقدمها إلى غيره من الناس . وكلما أضيف فرد إلى المجموع ، زاد أفق من آفاق الحياة في الأرض . ولن يمكن أن يحل فرد محل آخر ؛ فإن كل ثمرة إنسانية لها سر خاص لا يرى في سواها . وإني ما جلست مجلساً مع فرد ما ، إلا رأيت فيه صورة للدنيا لست أراها مع غيره .

ومن العجيب أن كل فكر يريد أن يطبع الإنسانية على غرارِهِ هو ويحملها على حياة تصدق منطقهُ الخاص ، مع أن التوزيع والتمييز بين الوحدات الإنسانية قانون مطرد .

وينطوي فكر كل فرد على صورة للدنيا غير الصور التي في أفكار الآخرين ، فكل فرد يرى الدنيا من خلال نفسه ، وكأن الأكوان عدد العقول ..

وما أعجب أن تقراً وجوه الناس ورءوسهم ! إنها صفحات يبدو للناظر العجّال أنها سطحية سخلة ، ولكنها للناظر المتملي المتفرس ، تقذف به إلى لانهائية ذات أعماق .. والعيون هي مسالك تلك الأعماق ! هكذا يثير وجه كل فرد وعقله صورة من صور الدنيا . وكل فرد كأنه الحياة كلها مستقلة ، حتى ليخيل إليك أن الدنيا الإنسانية تنقص بموت فرد واحد ، وأن مكانه لا يملؤه غيره ، سواء علا أم سفل ، علم أم جهل . فتوزيع الدنيا على الأشخاص ، وتوزيع الأشخاص على الدنيا ، يعطى صورة فنية أو حبكة مسرحية يحشد فيها الفن الرفيع ، والإخراج البديع

ولذلك قالت التوراة والقرآن : « أنه من قتل نفساً بغير نفس
أو فسادٍ في الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحيها فكأنما
أحيا الناس جميعاً ... »

ومن هنا جاءت قداسة الحياة الفردية في الشرائع ، واستنكر الاعتداء
عليها استنكاراً إجماعياً . وقد أعطت الإنسانية الفرد حرية تخيلتها لنفسها ،
واستوحتها من إحساسها العام وضميرها المشترك .

والإنسانية كجسم شجرة واحدة : فيها جذور لا بد أن تعيش في
الطين والظلام والعفونة ، لتحلل غذاءها وتأخذه عناصر بسيطة تتركب
منه ما تشاء من اللباب والقشور والأزهار والثمار والطور ، إلى آخر
ما في عالم الأشجار .

وفيهما سيقان لا بد منها لتحمل غيرها وترفعه إلى عالم الجو
والضوء والنسمات .

وفيهما أوراق تبلغ من الكثرة حداً كبيراً يرتفع إلى مستوى الزينة
ويشترك في صميم العمل الضروري لحياة الشجرة ؛ لأنها « رئات »
يتنفس بها الشجر .

وفيهما أزهار وهبها واهب الحياة العطر والجمال ، وأخرج فيها روحاً
خاصاً يخيل للناس أنها ليست من عالم الطين والعفونة والتحلل والظلام .
وفيهما ثمرات هي صناديق أسرار الشجرة ومستودع حياتها المقبلة ،
وهي روح الشجرة ، تحمل سير نوعها من الماضي المستقبل .

ولا مفر من اعتراف كل جزء من الشجرة بكل جزء آخر لتحيا جميعها ، ولا بد أن يعلم كل جزء أنه وضع في موضعه الرفيع أو الوضيع ، ليخدم نفسه ويخدم الجميع . والسفالة في الموضع أو العلو فيه ، والعلانية أو الخفاء ، كلها نظرات اعتبارية في الظاهر . والحقيقة أن نصيب العمل واحد ، والنتيجة واحدة : هي حياة الشجرة بحياة أجزائها ، وحياة الأجزاء بحياة الأم .

وينبغي ألا ينظر جزء من الشجرة لآخر نظرة حسد أو ازدراء ، وإنما ينظر نظرة طاعة لليد التي وضعته في هذا الكل ليؤدي دوره وخدمته .

ويكفي عزاء لما أسفل واختفى أن حياته كثيراً ما تكون أثبت وأدوم مما علا . ويكفي عزاء لما علا وارتفع عن سرعة فئاته أنه أجمل وأشهر . وكلا المعنيين جدير أن يحارَ بينه وبين قسيمه الاختيار !

ألا إننا ممثلون نؤدي أدواراً يرسمها ويحملنا عليها مؤلف رواية الحياة ومخرجها ، بديع السموات والأرض ! فينبغي أن نعرف مواضعنا الحقيقية من الكون ، وأدوارنا فيه ، لنؤديها على أكمل وجه ، ثم نختفي وراء « الكواليس » إلى يوم إصدار الرواية الأخرى التي سنؤديها في المسرح الأكبر ، في الكون الواسع !

فقط ، اضمنوا لكل عامل بارع ، مهما كانت مواد عمله خسيصة أو كريمة ، مكافأة وتكريماً وتعظيماً لمواهبه ، ولا تقصروا اهتمامكم

وتمجيدكم على الأجزاء الرفيعة الملوقة المزوقة من شجرة الإنسانية : كالساسة
والحكام والأثرياء ومن إليهم ، من الذين خصهم المجتمع الجاهلي بالاحترام ،
بل امنحوا وقدموا ذلك الاهتمام والتمجيد لكل عامل بارع في عمل من
أعمال الحياة الإنسانية ؛ تتفتح لكم أبواب من سعادة الحياة ما كنتم
تتصورون أن وراءها شيئاً ذا قيمة وتأثير في حياتكم يعادل تأثير السياسة
والحكم وما إليهما .

اقضوا على تخصيص الحكم وذوى السلطان والثراء بتعظيمكم
وخشيتكم ، وانظروا لغيرهم كذلك من العمال والكناسين ومن إليهم ،
وكرّموهم كرامتهم ؛ فإن لهم في الدولة أثراً لا بد منه كآثار « أصحاب الدولة » !

اللؤاؤة والصدفة !

[رد على « ني » النازية « نيتشه » الذى كان إيمان
« هتلر » بفلسفته فى عبادة البطش والخيلاء والكبرياء
أعظم سبب فى فداحة جرائم الألمان فى هذه الحرب]

رحمة القبح والنقص — الفارون من الزحام — النقص هو مادة فن الضحك
والتهريج — الشعور بالنقص وخدمته للحياة — عبقریات الغباء ! —
فى سعي الذكاء — الحذر من جموح الذكاء — تبادل الفهم بين
العاجزين والقادرين

مات صديق المفكر المخلص ، المشوّه الخلقه ، المحروم من الجاه
والثروة ، الموهوب من الحكمة وصدق الإحساس ، فتحررت أفكاره
العظيمة من شخصه الضعيف وجاهه المغمور ، وانقطعت الصلة بين الكاتب
الضئيل والمكتوب العظيم ، وابتدأت كلماته تدب فيها الروح وتبرز
مستعلنة بهيئتها المجردة من هلهلات ملابسه وسقم جسمه ومهانة فقره !
وكان يدرك مايجول بخواطر الناس عنه حين يغشى مجالسهم ويحتك
بهم ، من الاستصغار لشأنه ونبوّ البصر عنه ؛ فكان يجتهد أن ينأى
عنهم ، ويتحرج أن يغشى مجامعهم التى يعرضون فيها أجسامهم الرشيقه
وملابسهم الأنيقه ، وأحاديثهم اللبقة التى يتحدثون فيها عن أنانيتهم
واختباراتهم فى علائق الطين والذهب ، وضجيج الخاصات والمنازعات
التى لاتتصل بصميم الحياة ولبابها ، ولا بقدس الفكر وحقائق العلم .

ولم يشأ أن يترك صورة لشخصه ، حتى لا يفتن وجهه — وكان
دميم الخلق — بأفكاره وميراثه الروحي ، فتذهب قباحة بزته وهيبته ،
بقداسة فكره ونزاهة حكمته . وقال : أتركها كلمات يتيممة محررة من
وجهي وجملة جسدي ، كما تلقيتها كلمات طليقة محررة انسربت إلى
فؤادي موجات عذراء ليس لها نسب إلا ضمير الكون !

وكان يشعر بجسمه الناقص شعوراً عميقاً عصارياً عصف بزهره
صباه وضخوة شبابه ، إذ كان مبكراً الحساسة بذاته وشذوذها عن
ذوات أترابه ولداته ؛ وضاعف من آلام شعوره بشذوذه الجسمي ما كان
يلقاه من عبث أولئك الرفاق الصغار به ، وسخريتهم من قراءته وخروج
خلقه على غير استواء .

وفي قلوب الصغار جهروت وقساوة لا ترحم الضعف أو القبح في حيوان
ولا إنسان ، إذ لم يعوّدوا أن يستقبلوا الدنيا بشيء قليل من فلسفات
رحمة النقص والقبح ، لأن القبيح أو الناقص لم يخلق نفسه ، ولم يُخَيَّر
هواه ، ولو خيّر لاختار وكان المهذب الكامل الجميل .

ولما مضت به السن من بيئة الطفولة العابثة الساخرة بألوان من
السخرية الصريحة القاسية ، وأقبلت به على بيئة الشباب الذي عرف
من ضروب الحياة ألواناً من النفاق الاجتماعي ، وعرف من آداب
الاجتماع أنواع المجاملة والمصانعة التي قد تخفي من الرحمة والرثاء أو الهُزء
المقنع والسخر المبرقع ، أقسى أنواع الإيذاء على النفس الحساسة الشاعرة
بنقصها بين الكاملين ، أيقن أنه لا قبيل له بزحمة الاجتماع ، ولا احتمال

منه لضغطه وقسوته ؛ فأخذ يرتد عن موارد الحياة الاجتماعية ، وانحاز إلى نفسه وحدها ، وانطوى عليها في صبر وسكينة وبراءة صدر من ذلك الغلّ والحقد الذي يعترى كثيراً من الناقصين ، حين يطاردهم زحام الكاملين القادرين الذين سلّحوا بالغفلة أو بالفجور أو بالافتحام أو بالثروة أو بالجاه ، فينقلب الناقصون إلى أبواق سخط و بُور تشاؤم ومصادر إجرام ، ليحصلوا مافاتهم الحصول عليه من طريق السباق الشريف والمواهب القادرة ، أو ليحطموا المتاع الذي لم يغالوا منه شيئاً ونال منه غيرهم أيّ منال !

قلت له مرة : — « يا كمال — وكان هذا اسمه ! وكأنه كان من

تمام سخرية الظروف به — إنك لاتصلح لجِدِّ الحياة وصرامتها التي أخذت بها نفسك ، لأن للجِد والصرامة أدوات مادية من السمّت والقامة والقوة تكون إطاراً لازماً لمعانيتها ، وليس لك من ذلك شيء ! وإنما أراك تصلح لعبث الحياة ومُحبُوحاتها وأصاحيكها التي تفرّج عنك ضيق ذلك الجِد الذي حبست فيه نفسك ، وتفرج عن الناس حين يرون منك الاعتراف بنقصك ، واستغفالك إياه في العبث بالحياة والناس وبنفسك ، أو يكون هذا على الأقل وسيلتك الإيجابية لإثبات وجودك في هذا المجتمع الذي يصيح فيه كل شخص لإثبات شخصه والإعلان عن ذاتيته » .

فقال : « تعلمُ عني ، منذ طفولتنا ، أنني برغم نقصي تعشقت الكمال وهمتُ به ، وأنا أعلم أنني لا أمثله ، وأن الأرواح لي وللناس أن أرسل نفسي على سبجيتها ، فأعترف بعجزها ونقصها ، وأستخدمها في فن الضحك

والتضحيك على الأقل ، وأعلم أنى حينئذ أكون قريباً إلى قلوب الناس حين أَرْضَى إحساسهم بكامل شخصياتهم بمضاهاتها بنقص شخصيتي . ولكنى من أجل عشقي للكمال وشدة شوقى إليه ، تمسكت بالسبب الوحيد الذى أتىح لى منه ، وهو هذه السكينة وهذه العزلة النفسية ، وهذا الرضا المستسلم بالواقع المقسوم لى من حظ الدنيا ، وهو الفكر المخلص الذى يرصد الحياة والناس بعين غريب عن الحياة والناس . وإنك لاتدرى ما أهتدى إليه من فجوات لايهتدى إليها المغمورون بضجة الحياة القادرون على الخوض فى زحامها . ودائماً يلقط الضعف مافات القوى ، وكثيراً ما يفوت ! فالقوى دائماً مشغول بعنف نفسه وكثرة ما يحصله من مظاهر الحياة عن الاشتغال بما تحت الظاهر . والضعف يسبب للضعيف الذكى يقظته إلى ما يفعله القوى وما يتركه ، ويجعله يظفر بالحق المغمور فى دنيا القوة . والتجربة دلت على أن الضعفاء أو الذين فيهم « مركب نقص » هم من خدام الحياة ، وموطدى الاجتماع على أساس الحق والواجب ، والرحمة والعدالة .

ثم قال : إن الحياة مدينة لنا نحن الناقصين بأعظم نصيب . . . وإن الأقوياء المدلّين بقدرتهم على الخوض فى معترك الحياة لا يدركون أن الشعور بالنقص أعظم عامل فى حمل أصحابه على الإنتاج ومتابعة خطوات الكمال الحضارى والخلقى . . . لأن الفاقد يدرك لذة الواجد وحوالها هالة من أحلام الحرمان . . . ولأن الناقص يكمل الحياة بإرهاق حسه بالفجوات التى فى حياته وحياة الناس ، ويزيد عليها ما لم يستطع أن يحققه فى نفسه .

والاستعراض التاريخي لمن كلوا الحياة من العلماء والحكماء والصالحين
يكفي أن يقيم الدليل على تلك الدعوى . فقد كان دائماً الرواد في الخلق
والسلوك والعمل والإنتاج هم من يشعرون بعدم القدرة على الخوض في
معتك مظاهر الحياة مع الأقوياء المسلحين بأدوات القدرة على الزحام .
ثم قال : من أجل ذلك تحملت العزلة والحرمان من المتاع بالناس ، لأفكر
في وضعي ووضع أمثالي ، ولأذود قسوة الجاهلين عن الضعفاء والشاذين ،
ولأحاول إحداث انقلاب في نظرة أولئك لهؤلاء حتى يروا أنهم شركاؤهم
في خدمة الحياة شركة متساوية ، وأنهم حتى ولو كان شذوذهم وضعفهم
عن غباوة وتخلف ذهن ، هم وحدات من الإنسانية لاغنى عنها ، وأن للغباوة
عبقرية كعبقرية الذكاء !! هي عبقرية الصبر والاحتمال والقيام بتوافه
الأعمال التي لاغنى للحياة عنها ، والسير في الحياة في ذهول ورضا وقدرة
على تقبل العمل الرتيب المكرور في غير سأم ولا ملال !

فلئن كان للذكي فضل السبق إلى كشف واحات جديدة في الحياة ،
وفضل إضافة ما ليس منها أو تنقيح ما يستحق التنقيح فيها ، فللغبي فضل
عظيم في احتمال واقع الحياة بدون تدمير وكفران ، وعدم تطلع إلى شيء غير
ما كان ، وفي التعبد للحياة والتعلق بها .

وله كذلك فضل الرضا بما يكلفه فيها من عمل ضروري حقير كالكنس
والكسح والخدمة وما إليها . وإني أتخيل الحياة خالية من المحدودين في
آمالهم وعقولهم ، فأراها حينئذ سعيماً محتتماً بين الأذكى القادرين الذين
يتطلعون جميعاً إلى السيطرة والسيادة ، ولديهم وسائل الخديعة والغلبة ،

وفيهم الحسد والقلق والحقد والنفاق والجرأة والافتحام . ! فالذكي دائماً منتفض على الحاضر، يحاول أن يغير ما يحيط به ، ويخلق لنفسه علماً آخر يكون هو وحده رأسه وغيره الذئابي ... وإن الذئب أذكى من الحمار والشاة ، ولكن شتان بين نفعهما الحياة ، وإضراره بها ! ولذلك أهدرت الحياة ذكاه وطارده ؛ شأنها مع كل ذكاء بارع يعتدى على قوانينها في سبيل غاية شخصية ، لأن الذي يهدم دعامة بيت ليستعملها أرجوحة مزوقة يتمتع بها ، يجب عقابه وإهداره مهما كان عظيم الصناعة بارع الافتنان . . وقد ثبت أن عالم الذكاء الإنساني يشتط كثيراً في الخروج عن نطاق الطبيعة وحدودها ، ويأتي بأشياء غريبة عنها ؛ فواجب الاحتراس منه !

وأغلب ذكاء أذكائنا القادرين وعلومهم كذكاء الثعابين والذئاب ، لارحمة معه ، ولا خلق ولا شعور بالمسؤولية الاجتماعية ، ولا بالمعانى السامية التي تحمل على العطف والتواضع ورحمة النقص وتقدير حياة الأقل ذكاء وقدرة . فكلمهم يخاتل ولا يخلص للجماعة ، لأنه لم يشعر بالجسم الاجتماعي الواحد ، ولم يؤمن بعقيدة الجنس .

إن الأولى أن نعتقد أن الحياة الاجتماعية مبادلة بين القادرين الأذكاء والعاجزين الأغبياء . فلقد أخذ الآخرون من الأولين عبقرية الفكر وانتفعوا بها ، وأخذ الأولون من الآخرين عبقرية الصبر والاحتمال والعمل وانتفعوا بها كذلك لتحقيق أفكارهم وأحلامهم . وأكثر من ذلك : أخذوا منهم غفلتهم ونقائص خلقهم وصيروها « قفشات »

وتهريجات وأضاحيك أوسعت مدى أفراحهم ومباهجهم وسلواهم جميعاً
ساخرين ومسخوراً منهم .

ثم قال : تلك هي التعزية عن حياتي وحياة أمثالي من الذين خرجوا
على غير استواء .. جنت عليهم الجهالة القديمة ، وأوشكت الثقافات
والتأملات الحديثة أن تنصفهم وتضعهم مواضعهم في خدمة الحياة مع
خدمات القادرين الكاملين .. ولولا ضعف قوتي وهواني على الناس ،
وقلة أدواتي المادية للدعاية بين الجماهير لهذه المعاني ، لصعدت بها دعوة
إلى تكريم كل كائن بشري والعناية به ، وتفهم الحكمة فيه مهما بدا به
من نقص ظاهري ؛ فليس المهم أن يكون المرء تاجاً على رأس الإنسانية ،
وإنما المهم أن يكون نافعاً ولو كان نعللاً لها !

استمعت في عجب إلى هذا الحديث الصادق الذي ملك عليّ منافذ
السمع ، ودوى في فؤادي ، ووجه فكري لبعض أسرار الإنسان ،
وجعلني وأنا من «وحدات» الإنسان العادي الذي لا يشعر بنقص أو يخيّل
إليه بذلك — أتضائل أمام هذا الذي ينبؤ عنه نظر أكثر الناس
ازدراء له وتهويناً من شأنه ، وتذكرت به لباب الإنسانية الذي ضيعه
وأخطأه الناس وراحوا يبحثون عن القشور المزوّقة ، ويقيسون المرء بعرضه
وطوله ، ولونه وثيابه ، مُعْفِلِينَ وزنه من أصغريه : قلبه ولسانه .

ثم قلت له : لقد كنت أرثي بعض الرثاء لك ولأمثالك ممن أخطأهم
حظ كمال الأجسام وأصابوا من كمال الفكر والروح .. ولعلّي الآن أرثي

لنفسى وأمثالى ممن لا يفقهون كثيراً من أسرار الحياة ، ولا يبقى منهم شيء حين يضرحُ لهم في القبور التي يستوى لديها جسم العملاق وجسم القمىء والوجه الجميل المصقول والوجه المقبوح المسوخ ، ولا يستعصى على ظلماتها إلا نور الفكر والروح اللذين ليسا مما يحمل إلى القبور ، وإنما يخلدان في الأفتدة والصحف والسطور !

فقال : لا ترثِ لأمثالى ولا ترثِ لأمثالك ... وإنما نحن جميعاً نمثل « رواية » الحياة التي لا بد فيها من اختلاف شخصيات التمثيل وأنواع الأدوار ، حتى لا تكون الرواية حديث شخص واحد ، وموقف ممثل واحد يتكرر تكرير الرقم الواحد في الملايين ...

لارئاء ... وإنما فهمٌ وتفاهمٌ وتبادل تقدير ، وتساوى نظرات من الأعلى للأدنى والأدنى للأعلى ، إن صح أن فينا أعلى وأدنى .. وذلك كله من حدود عقيدة الجنس .. »

لقد مضى « الجسم » الناقص ، وخلف هذا الكلام الكامل . ولا عجب فالنحل ، وهو ذباب ، يخلف الشهد المصفى .. وقد أحسن حين لم يترك صورة « للصدقة » الحسيمة ، حتى لا تجنى على « اللؤلؤة » النفيسة ، بل تركها دُرَّةً عذراء ، ليس لها نسبٌ إلا جيدُ الغادة الحسناء المعشوقة : الإنسانية !

الفكر والسلطة

أثر التناقض بين مافى النفس ومافى خارجها — صفات الأب الشعبي —
أرستقراطية الفكر محمودة — السياسة على قوانين الفضيلة — اللقاح بين
جرائم حب المال وجرائم حب السيطرة — دولة الأحلام في حكم
المفكرين الصديقين — أيهما أصلح للحياة ولرجال الفكر؟ — العيش
أولا ثم التفلسف — اقتراحى للإصلاح السريع — الحكم ضريبة على
المفكر الصالح

تمنيت ولا أزال أتمنى أن يكون رجال الحكم في كل أمة هم رجال
القمة في الفكر والخلق والقدرة على تربية الشعوب؛ فإن هذا هو الوضع
الصحيح للحياة الاجتماعية التي يستقيم فيها كل شيء، ويؤمن المرء فيها
بنفسه وبأتمته وبالإنسانية جميعاً؛ إذ لا يجد في الحياة تناقضاً بين المثل
العليا والقوانين المرسومة في الكتب، والواضحة في نظام الطبيعة، وبين
الوقائع العملية التي يسير بها الناس. وحيث لاتناقض بين ما فى النفس
وما فى خارج النفس، فهناك السعادة، وهناك الإيمان، وهناك
الأمل والعمل المطرد.

إن الذى يؤهل الأب لأن يكون قيماً فى الأسرة، هو بذاته الذى
يخول الحاكم والسلطان أن يكون قيماً فى مجموع الأسر. وأول صفات
الأب، الفكر والرشد الممتاز، والعدالة بين أبنائه، والحب لهم جميعاً.
والحكيم كالأبوة: وصاية وخدمة وقيام على الناس بالرعاية والإصلاح

والعدل ، لاسيادة وسلطان ، أو مكاثرة ، أو حب تسخير للناس ، أو طلب
للامتياز عليهم ، أو اتقاء لشور سلطة أخرى ، إلى آخر أسباب الحكم
التي تواضعت عليها جاهلية الناس .

وكما أن الأب في الغالب هو أكبر أهل البيت عقلا ، وأقدرهم على
الكسب والإنتاج والإصلاح ؛ كذلك يجب أن يكون «الأب الشعبي»
أى الحاكم الراعى .

وقد أغفل الناس هذه البديهية في الحكم ، ووسدوا الأمر إلى غير
أهله الطبيعيين ، وصار مالكو رقاب الناس ، وموجهو الأمم ، غير رجال
القمة في الفكر والخلق ومعرفة اتجاهات الحياة ؛ وإنما هم المحترفون
للسياسة ، والجائعون للشهرة ، والعاشقون للجاه والمناصب والبطش والخيلاء ،
والجاهلون بعلوم النفس والتربية وأرصاد القدر وسير قافلة الحياة
بالأحياء . . الذين صعدوا إلى المناصب بالمكر والخديعة والدجل السياسي
لا بالطبع الكريم ، والفكر الناضج ، والمجهود الصالح والخدمة النافعة . .
الذين نفوسهم نفوس عوام ، أو هم جعلوا همهم تمليق العوام والنزول
إليهم ، بدل أن يرفعوهم بالتربية وقسوة الآباء التي لا بد منها في
بعض الأحيان . .

و«الأرستقراطية» في الفكر ضرورية للاجتماع ، وليست يغيضة
كالأرستقراطية في المال ؛ إذ لو اتبع الحكماء أكثر الدهماء ، ماخطوا
بالإنسانية خطواتها في الترقى ، وما وصلوا بها إلى شيء من أسباب
سموها وهداها .

والحترفون للسياسة ، وعشاق المناصب ، يجعلون همهم تمليق العوام
ليركبهم إلى المناصب . أما العلماء والمجاهدون في سبيل الفكر ، فهم الذين
يحملون الناس على أكتافهم إلى واحات السلام والصلاح والانتفاع .
وقد يضر بهم الناس ويهينونهم كما يهينون الدواب التي تحمل متاعهم . .
ومع ذلك لا يتخلفون عن أداء رسالتهم في نقل الناس من سيء إلى
حسن ، ومن حسن إلى أحسن .

إن رجال الفكر المخلصين للحقيقة ، الباحثين دائماً عنها ، الحاملين
بصور الكمال ، هم وحدهم الذين لا تبطّرهم المناصب والرياسات ، ولا يسعون
لها إلا لأنها تمكنهم من تحقيق ما يحملون به من وسائل الإصلاح وإسعاد
الناس ، وهم الذين يقيمون السياسة على قوانين الفضيلة ، لا على الختل
والخداع وتصيّد المال والخيلاء بالجاه .

واعتقادي أن شقاء الإنسان السياسي ناتج من أن أكثر رجال السياسة
الآن صاروا بعيدين عن الأفكار العليا الحرة ، وصاروا تابعين لرجال
المال الذين يبعدون عنهم كل ذى فكر وأحلام ومثل عليا في الروح .

وعالم المال بؤرة للشهوات العنيفة ، والغرائز الحادة ، والمنافسة
الذميمة ، وشراهة التملك ، وتبرير الواسطة ، والخوف من التغيير والتحول .

وقد نشأ من اللقاح بين جرائم هذين الصنفين : محبي تملك الرقاب
ومحبي تملك المال ، ذلك الإنسان السياسي الفظيع الذي يخدع القطيع
ويلعب به ويحلبه ويسوقه ويدبجه حين الضرورة الشخصية على مذبح
الهوان والظلم ! ولن تتخلص الأمم من شقائها وفوضى حياتها ، إلا إذا

اختارت رجال حكمها من بين مفكريها الذين لهم روح تهيم بالكمال ،
ولهم قدرة عملية على التنظيم وفن « الإخراج » والتنفيذ ، ولهم مع هاتين
الهبتين شخصية قوية تصون المنصب وتخلع عليه من هيبتها وسيادتها الذاتية .
فعلى الأمم أن تبحث عن هذا الطراز المفكر الحالم العامل ،
القوى الشخصية بين رجالها وشبابها الناشئين ، وأن تربيته في مدارس
خاصة بتخريج الحكام ، يكون لها برامج تكفل إنضاج الفكر
الحاكم السائس المرني .

وحين يوجد الفيلسوف الحاكم يكون التناسق والتربية النفسية
وحياة الحقيقة والرضا عن الوطن و « المواطنين » .

وقد كان عهد الإنسان الكامل (محمد) وعهود خلفائه الراشدين
مثلاً عظمى في حكم المفكرين الصديقين القديسين في الزمان القديم .
وكان عهد الرئيس الدكتور (مازاريك) في « تشيكوسلوفاكيا »
مثلاً صالحاً للحكم تحت وصاية أرباب الفكر المحدثين الذين لا يخضعون
« للروتين » ولا يتحجرون في قوالب الواقع السيء .

فقد فاق « شعبه » تحت حكمه جيرانهم جميعاً ، حتى الألمان ؛
فأقروهم في التنظيم الإداري والاقتصادي والرياضي والعسكري والاجتماعي ؛
إذ أنهم كانوا تحت وصاية رجل بصير ، بآفاق الحياة ، مدرك اتجاهاتها ،
برى السيرة والسريرة من آفات محترفي السياسة الطالبين للمناصب ،
ولولم يكونوا أهلاً للوصاية للعامة ، الحاذقين « للمناورات » والمقالب
والدسائس مع الجهل بالإصلاح .

إذاً فمن الخير للأمم أن يتولى سياستها رجال الفكر وعشاق المثل العليا ، وأن يطبقوا حياتها العملية على أفكارهم النظرية السليمة .

ولكن هل من الخير لرجال الفكر أنفسهم أن يعهد إليهم أمر الناس وتديير سياستهم ومعايشهم؟ إن لذة الفكر المجرد والهدوء الذي يغمر عالمه ، والأنس به ، والأحلام فيه ، والانقطاع إليه ، شيء عظيم قد يفضله كثير من المفكرين على الاشتغال بصغائر الحياة العملية ، ومضايقات سياسة الناس وتديير أمورهم ، ولو كان مع هذا جاه ومال وسلطان وقوة وشهرة .

بل إن أكثر الذين أخلصوا للفكر والفن ، يضيقون ذرعاً بحياة الناس العملية ، ويخلقون لهم جواً خاصاً بهم يعيشون فيه وحدهم ، ولا يعدلون به سواه . ولذلك قال الجاحظ مامعناه : « مالذة الأسد بلطع الدم بأعظم من لذة العالم بعلمه » . وقال أحد الصوفية : « لو علم الملوك ما عندنا من اللذات لقاتلونا عليها » .

وقد صور « جبران خليل جبران » وجداني رجل الأدب ورجل النشب ونظرتهما للحياة حين قال : « تبادل غنى وأديب النشب والأدب ، فرأى الأديب ما بيده حفنة من تراب ، ورأى الغنى ما رأسه نفخة من ضباب ... »

فهل يلذ المفكرين أن ينزلوا عن أبراجهم العاجية الملمية بصور الكمال والجمال والهدوء إلى دنيا الواقع الملمية بالصخب والتشويش والمتاعب؟

وهل من الخير للحياة أن يظل رجال الفكر في نظرياتهم وأحلامهم يتصيدونها من آفاق بعيدة ، ويؤلفون صورها ، ويدمنون ذلك وينقطعون إليه ، حتى يكثروا أمام الناس صور الكمال ، وأن يتركوا الملوك والساسة العمليين أن يأخذوا منها الجانب الذي يروقهم ويحلو لهم تطبيقه في أساليب حكمهم ؟ أم أن من الخير للحياة أن يتولى رجال الفكر بأنفسهم تنفيذ ما فكروا فيه ووقفوا إليه ، ولو قطعهم ذلك عن إنتاج الأفكار الكثيرة الرائعة ؟

وهل من الخير للرجل أن يخلد ويذكره التاريخ على أنه مفكر أو فنان ، أو أن يذكره على أنه حاكم سديد مصلح ؟
إن النتاج العلمي والفني قد يبقى كما هو دائماً في الكتب والدواوين والآثار ، يراه الناس كما كان في عهد صاحبه ، ولكن نتاج الحكم والإصلاح مؤقت بحياة صاحبه ، فلا تدركه الأجيال التالية ، إلا بالحكاية عنه والسماع ، وليس فيه خلود ذاتي كالآثار الفكرية والفني ، وإنما خلوده بتطبيقه على الحياة العملية . وهذا طبعاً ليس مطرداً ولا كثير الوجود في جميع العصور .

فحياة الإصلاح والقوة في زمن عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز مثلاً ، انقضت بانقضائهما ، وصار الحديث عنها حديث حكاية مضي أشخاصها ، وقليل أن يقتدى بهما حاكم آخر ، ولكن حياة أي كتاب ديني أو علمي أو فني تبقى تمثل نفس صاحبها ومنتجها دائماً .

ومع هذا يجدر بنا أن نعلم أن حياة الفكر وحده لا فائدة منها
إلا لفترات « الترف العقلي » والترف العقلي كالترف المالى ، ماهو
إلا شهوة . . شهوة رقيقة .

نعم إن للعقل شهوات كشهوات الغرائز ! فالفكر أو الشاعر الذى
يتفرغ لعالمه الخاص ، ويترك العمل على إصلاح ما يحيط به ، ماهو إلا
كالمدمن المستهتر على الخمر أو القمار ؛ إذ يغيب عن حياة المجموع ، ولا يجعل
بين عقله النظرى والعقل العملى صلة .

والسؤال الذى يجب أن يقدم قبل البحث فى هذا هو : أمن الخير
للحياة أن نقدم للشعب الفقير المريض المحتاج دواء وحياة عادلة ، أم أن
نقدم له لحناً جميلاً ، أو شعراً رائعاً ، أو نظرية كمالية ؟

أعتقد بصدق الحكمة اللاتينية القديمة « عش أولاً ثم تفلسف » .
والحياة العملية هى الحكم فى هذا . وقد قلّ الجهد والفكر القديمان
الاذان كانا يدوران على الالذة القاصرة ، وأتى عصر الفكر العملى الذى
ينتج محصولاً ينفع الناس فى حل « مشكلات العيش » .

فصاحب الفكر التجريبي الآن صار صاحب الخطوة ، والخالد
الأثر عند الناس ، لأنه يشتغل فيما يعود بالنفع عليهم جميعاً .

وقد جانبت الحياة الحالية من لا ينتح شيئاً يصح انتفاع الناس
جميعاً به ، واحتضنت كل من يقدم لها المنافع ، وأغدقت عليه الجاه
والسمعة .

وينبغي أن ينصرف حديثنا هذا إلى غير العلماء الطبيعيين الذين
يكشفون عن أسرار الطبيعة . فهوأء لهم أن يتفرغوا ويعيشوا في عالمهم
وحده ، إلا إذا كانت لهم قدرة على الجمع بين حياة الحكم وحياة هذا
اللون من العلم .

أما الذين يفكرون في النظريات الأدبية ، ويدرسون الاجتماع
ويضعون فلسفته ، فيجب أن يختار منهم من يستطيع الاضطلاع بأعباء
الحكم وتطبيق النظريات على الواقع .

ويجب أن يعلموا أن المفكر الناجح هو من يلهم فكرة ، ثم يصنع
بها أمة أو جماعة .

وينخيل إلى أن كل الجهود الفكرية التي ليست داخلية في منطقة
العمل هي هوى ذاتي وترف عقلي .

إننا لانمسك ديوان شعر ، أو نسمع لحنا ، أو نقرأ قصصا أو تاريخا ،
إلا إذا فرغنا من أعمالنا المعاشية ، وأقبلنا على أوقات الفراغ نستمتع
بها ، ولن يقبل على هذه الألوان في جميع الأوقات إلا هاوٍ مستغرق ،
أو محترف مرتزق .

وقد يكون من العجيب عند بعض الناس أن يعلموا أنني أعتقد أنه
يجب للإصلاح السريع في أي بلد أن يضحى أهلها بعيشة الترف
العقلي مدة موقوتة ، تغلق فيها جميع المعاهد العالية سنة أو سنتين ، ويحشد
جميع أساتذتها وطلابها للخدمة العامة والاشترك في حركات الإصلاح
الأولى ، وتترك التفرغ للبحوث الفكرية والهوايات الفنية ، وتفرغ

لتدبير أمور الجهرة الجاهلة من الأمة حتى يعلو مستواها ويتقارب مع
مستويات الأمم التي سبقتها في التعليم والإصلاح .
قد يبدو هذا غريباً عجيباً .. ولكن هو ما أعتقد ، لأنى أرى
وجود المريض جداً بجانب الصحيح جداً ، يفقد بهجة الحياة لدى
الصحيح ، ويؤلم المريض بالحسد والنظر المحروم . وأرى أن الأولى
للعالم والمفكر ألا يوغل في علمه وفكره بينما يترك غيره جهلاء
لا يفهمونه ولا يقدرونه .

ووجود عدد من جهابذة العلماء بجانب ملايين الجهلة التعمساء المرضى
هو بذاته كوجود الميادين والشوارع الجميلة في المدن المعدودة ، بجانب
آلاف القرى التي تقام من الطين والسرجين والأحطاب والمستنقعات .
فعلى هذا ينبغي أن يعلم الأدباء والمفكرون أن عملاً صالحاً يقدمونه
في حكم صالح يسعون إليه ، أولى ألف مرة من تقديم قصيدة رائعة ،
أو مقالة بارعة ، أو فكرة عبقرية غير عملية ؛ إذ أن هذا العمل الصالح
المثمر أهناً لدى آلاف من القلوب المحرومة ، وأسرع إلى إسعادها
وأدنى إلى أسلوب الله في نفع عباده ؛ فهو يعمل لهم كثيراً في تدبير
الطبيعة ولا يتكلم ..

وإن قانوناً عادلاً يضعه لأمته حاكم رشيد ، لأنفع ألف مرة من جملة
كتب تعرض أفكاراً عالمية للترف العقلي ؛ لأن القانون العادل يضمن
ضرورات الحياة للناس جميعاً . أما كتب الترف ، فتضمن الحياة المترفة
لبعض الناس .

ولو ترك محمد (عليه الصلاة والسلام) القرآن من غير أن يترك أمة
قد قام عليها بالتربية والحكم والتوجيه والتعليم ، لظل القرآن ككتاب
من الكتب لمؤلف من المؤلفين ... ولكنه عمل وجاهد كما أمره منزل
القرآن ، حتى صنع أمة تجسدت في أشخاصها معاني هذا الكتاب ،
فأخذ يسعى بهم وصاروا هم كلمات حية تشرح آياته .

وأظن أن سعادة الرجل الذي ينجح في تطبيق مشروع يسعد الناس ،
تربو كثيراً على سعادته بإخراج أثر فكري أو فني حبيس في الورق .
فليحمل الأدباء والمفكرون نصيباً من الخدمة العملية ، وليروضوا
أنفسهم على إسعاد القلوب بالأعمال ، كما يسعدون الأذان بالأقوال ،
وليجتهدوا أن يحققوا معاني مقالاتهم في أشخاص وأعمال مجسمة ، وليسعوا
دائماً إلى أن يكون الحكماء والزعماء من رجال القمة في الفكر والخلق ،
حتى نلائم بين مافي النفس ومافي خارج النفس ، فيكون الحكم ضريبة
على من يحسنه من هؤلاء ، ولا يسند إلى غيرهم مهما كانت الظروف .

ثورة الفكر على الواقع !

أقدام تتحكم في الرؤوس ! — هل الجامعات مسارح للتمثيل؟ — الجهل يستغل العلم — لا بد للعلم من جذوة الروح — الحياة تخطو دائماً إلى الأمام — قصة الحياة هي قصة الفكر الثائر — لا استسلام للواقع الناقص — في نفوسنا أطلال ومستنقعات ! — وجوب العزل الصحي في أمراض الفكر — إصلاح الدعائم أولاً — دهن الحطب باللون الأخضر !

أما من ثورة عالمية للعلماء والمفكرين يقومون بها في إجماع ضد دجاجلة السياسة ، وسماسرة المال ، وحاملي الجاهلية ، والمرتدين عن دين الحياة بالعلم والفضيلة ؟ !

أما يؤلمهم ويحز في نفوسهم أن تخنق آراؤهم ومثلهم العليا ، وتداس أفكارهم التي لها يعيدشون وبها يأنسون ؟
أما يغيظهم أن يظلوا دائماً مجرورين في عجلات أولئك الدجالين والجهال والسماسرة ، يسحبونهم على وجوههم في تلك الطريق المعهودة من عهد الجاهلية للآن ؟

الجامعات ، لو سحت الأوضاع ، هي رؤوس الأعم التي تفكر بها ، وتتصرف في شؤون الحياة صادرة عن وحيها ، فلماذا نرى الشوارع تتحكم في الجامعات ، ولا نرى الجامعات تتحكم في الشوارع ؟ لماذا نرى الأقدام تتحكم في الرؤوس ؟ !

هل يقنع الجامعيون من الحق والعلم والفن أن يروا كلامها في إطار

من الصحف والكتب الجميلة والصور المعلقة على جدران الجامعات والمتاحف والمعارض ، وأن يتحدثوا عنها في حجرات الدراسة ، ويلبسوا لها « الروب » الجامعي ، ويهزّوا بها ذقونهم ، ويقفوا بسمتٍ ووقار ، وينطقوا بمضغ ولباقة ؟ !

مافائدة هذا التمثيل الدائم على مسارح العلم أيها الحكماء ، مادام هناك مناقضات فاحشة بين مافي البيوت والشوارع ومافي الجامعات ، ومادتم أنتم تلبسون للحياة العملية ثيابا أخرى ، وتضطرون لأن تواجهوها بوجوه أخرى ؟ !

مافائدة الجرى وراء البدوات والفروض الرياضية للحياة ، والتنقيب عن أحافير الماضي اللغوية والأثرية ، والتخمين بأحلام المستقبل المثالية ، مادامت تيارات الحاضر تفلت من أيديكم وتستعصى على توجيهكم ؟

لقد نكل الحاضر بمخلفات الماضي ومقدساته ، وبآمال المستقبل وتخميلاه تنكيلا فظيماً ، حين أطلق هذه الحرب الحطمة الطاحنة بصواعقها ونواصفها ، فإذا الأبراج العاجية والصوامع الجامعية تذروها الرياح دخانا وهباء منشوراً مع مافيها من كنوز الماضي ورصيد المستقبل . وكان ذلك كذلك لأن الجامعيين والمفكرين لم يؤمنوا طريق العلم والحضارة ، ولم يكتبوا الوحوش والغيلان المثلة في الدجالين والسماسرة والجائعين للشهرة ، والجهال الذين يفتكون بالمدنية ، ويأخذون منتجات العلم وينتفعون بها في تسخير الحياة من غير أن يأخذوا الأسس النفسية الفاضلة التي في نفوس العلماء .

وكان ذلك لأن خدام العلم لم يسلكوا في تعبيد طريقه وتأمينها مسلك خدام الدين الأولين ؛ فلم يقيموه على أساس التعصب له والثورة به والفناء في سبيله ، ولم يقيموه في نفوس الطلبة على أساس الروح ذات الجذوة الحمراء التي تنضج كل ماتقننيه وتحوله إلى كيانها ؛ وإنما أقاموه على أساس الفكر ذى الجذوة البيضاء الهادئة التي تقتنى المعلومات كما تقتنى اليد الأشياء ، وتضعها على الرفوف وفي الخزائن : فهي دائماً منفصلة لاتندمج في كيان المقتنى .

فلا بد إذاً من ثورة إجماعية للعلم تقوم على أساس التعصب له وللفضيلة ؛ فان العلم من دين الله الذى يدين به البشرية وتوحد به غاياتها ومقاصدها ، وتخضع أعناقها لمعجزاته الدائمة المتجددة .

ولا بد من السرعة في إقامة أسس الحياة على الثابت من قوانينه ، حتى لا يكثر العدد من ضحايا عهد الانتقال كما هو الحال الآن ، كما لا بد من الثقة بالفكر البشرى الهادىء المستنير ثقة كاملة .

فقد قاد الفكر القطيع البشرى ، ونقله من حياة البساطة والعجز والجهل إلى هذه الحياة المعقدة القادرة العاملة ، ولا يزال يقوده وينقله مرحلة مرحلة في طريقه إلى مستقبل مجهول .

وكما استقرت الأجسام البشرية في مرحلة ، وعاشت فيها حياة آلية رتيبة ، واطمأنت جنوبها إليها ، وقالت هنا ينتهى الطريق ويقوم الهدف ، أربها نأثر من عالم الفكر ، ودفعها إلى أفق جديد تقاوم هى الاندفاع إليه في أول الأمر ، ثم لاتلبث أن تسير مع عجلة الفلك بدافع من قوة

التطور البديعة ، وتأخذ في دور الاستقرار فيما انتقلت إليه ، إلى أن يوهض بارق ويشور نائر على الواقع ، ويلوح لها بمجديد من عالم المثال ، فقتبعه بعد جهد على رغم ماتلاقيه من عنت الانتقال وترك المؤلف .

فقصة الحياة الإنسانية هي قصة الفكر وثوراته المتتابعة على الواقع . ولولاه لظل القطيع البشري كأي قطيع حيواني مما يدرج على الأرض : لارتقاء له بذاته ، ولا قدرة له على تغيير واقعياته .

وما كان يراه الواقعيون القدماء مستحيلاً أو بعيداً عن قدرة الإنسان ، حقيقته الفكر المتطلع الثائر ، وجعله من أيدينا داني القطوف على طرف الثمام . وبعبارة أخرى : كثير من حقائق اليوم وواقعياته التي تتقلب فيها الحواس ، وتعمل فيها الأيدي ، كانت أحلاماً وبروقاً تلوح في آفاق الفكر الموهوب المدرك لما وراء صور الواقع من صور أكمل وأبدع .

والبطء الشديد في الانتقال ، بل التخلف والوقوف الطويل في مرحلة من مراحلها ، بل الارتداد الذي يحدث في كثير من الأحيان ، إنما مبعثه العناد والجود والجوح من القطيع ، والتواني والإهمال من المدركين للكمال ، القاعدين عن نداء الفكر وإهابته بهم أن يتجردوا لما استحضفوا عليه ويأخذوا الإنسانية إليه ، الطامسين لتلك الصور الجميلة التي يرسمها في صفحات ضمائرهم وتخيلاتهم القلم الأعلى الذي يعلم الإنسان ما لم يعلم ، ويدرجه في قراءة الحقائق وإدراك الكمال درساً درساً .

ومما لاشك فيه أن الحياة الاجتماعية يمكن أن تكون أحسن مما هي عليه الآن وأكمل ؛ لأن تدرج هذه الحياة من صور الاجتماع الأولى إلى

هذه الصور المعقدة العظيمة في الاجتماع الحالى ، وطواعية الفرد تحت
أحكام القوانين والنظم والتقاليد التى تحيط بكل تصرف من تصرفاته ،
أكبر دليل على إمكان الوصول إلى ما يصبو إليه ذوو الأفكار السامية
والقلوب الكبيرة التى نضجت فيها معانى الإنسانية وأسرارها .
وما يضر الإنسانية شئ ، كما يضرها الاستسلام للواقع الخاطيء
الناقص القائم على أسس فاسدة .

وقد كان يصح إلى حد ما ، اغتفار التوانى وترك المجتمع يقوم على
أسس فاسدة وأشكال ناقصة ، أيام كانت الثقافات محدودة والمعارف ضيقة
والتعليم لونا من ألوان الترف فى الحياة ، وأيام كانت حدود الأشياء وقيمها
مختلطة مشوشة ، وأيام كانت آثار هذا التوانى والإهمال ضيقة الأضرار
هيئة الجرائر والآثام ؛ وأيام كانت المعارف متقاربة يدور الناس بها
دورانا نظريا فى حيز ضيق من حياة المجتمعات ، وأيام كان انتقال الحياة
فى طريق الآليات والصناعات انتقالاً بطيئاً لاتنشأ عنه مسافات بعيدة
بين القاعد والماشى ..

أما الآن ، وقد صارت قيمة التعليم والتهذيب للفرد كقيمة الخبز ،
وحدود الأشياء واضحة مميزة ، وصارت آثار التوانى فى إقامة المجتمع على
أسس العلوم والأخلاق والفنون آثارا عميقة غليظة الجرائم والآثام ،
وصارت آفاق العلوم والمعارف متباعدة متعددة فى نطاق واسعة جداً
لاختلاط بينها ولا تشويش ، وصار كل يوم يأتى بأشياء جديدة عجيبة
من وسائل العلم والسيطرة والقوة ... فلا يجوز مطلقاً أن يتوانى مفكرو

أى مجتمع ويتركوه يقوم على الأسس الفاسدة ، ويسير على مجرى التاريخ
الذى يجرف الطفولة النَّضرة مع الجيف القذرة . . . !

إن الناس لم يرضوا أن يسيروا بأقدامهم على الطرق والدروب القديمة
في المدن والقرى ، بل مهدوها تمهيداً فيه فن وتنظيم على أحدث الأساليب ،
فكيف يرضون أن يظلوا في حياتهم الفكرية سائرين برءوسهم على
مسالك وعرة قذرة ، فيها أنقاض وخرابات من عالم بائد ؟ !

أجل ، في حياتنا الفكرية أنقاض وخرابات يسكنها ظلام وحشرات
وخفافيش وزواحف سامة تفرعنا وتفسد إحساسنا بجمال الحياة الحديثة ،
فيجب هدمها أو تجديدها ، إذا كان فيها ما يجب أن نبقى عليه ، وإلا فسنظل
فرائس للفرع والاشمزاز . !

وفي حياتنا النفسية مستنقعات آسنة تنزُّ وترشح إلى ما يجاورها من
الرياض العلمية والفنية الحديثة ، وتفرخ فيها كثير من جرائم الآفات ؛
فيجب ردمها وتحويلها للإزهار والإثمار الصالح ، وإلا فسنظل مرضى
مصروعين متناقضين ..

وإن الناس مارضوا أن يتركوا موارد الطبيعة كما هي بدون أن
يدخلوا عليها أساليب التنظيم والاستغلال والانتفاع ؛ فلماذا رضوا أن
يتركوا موارد النفس ومصادر الأخلاق ، كما هي بدون تنظيم وتعديل
كما يقضى الإدراك الصحيح ، والمنفعة العاجلة والآجلة ؟

لقد أقاموا الاستحكامات والمصافي والخزانات على المنابع والأنهار ،
ليتقوا غيظها وقيظها وأقذارها ، مما ذاقوا منه الدمار والأمراض في العهود

القديمة ، ولكنهم لم يقتنعوا بعد بأن موارد النفس ومصادر الأخلاق
وما فيها من غيظ وفيض وقدر وضعف وطغيان ، تحتاج إلى إقامة أمثال
تلك الاستحكامات ووسائل التصفية من الأكدار .

فهل يظنون مصرين على العمى عما وراء الأجسام ، سجناء الشواخص
والكثافات وحدها !؟

لقد صارت الحياة المادية بما أدخله عليها العلم والفن حياة قيمة جداً ،
تحمل على الثقة بالإنسان كعامل عظيم من عوامل التكوين والتنويع التي
في يد الله ... فيقبح جداً بالإنسان أن يترك نفسه تحت تأثير الغرائز
الضيقة ، والحماقات القديمة التي تحمله على تدمير تلك الحياة المادية القيمة ،
وتخريبها هذا التخريب الذي تمثل اليوم مأساته الدامية الشنيعة على
مسرح الأرض كلها ...

إن الفكر البشري قوة مبصرة عظيمة تتحكم في كثير من القوى
المادية العمياء ؛ فالواجب الأول أن يعنى به قبل غيره ، وأن يحافظ المجتمع
على قوانين نموه وأطراده والانتفاع به ، وصيانته من العوادي التي تعدو
عليه فتفسد حياته ثم تفسد الحياة به .

ومن العجيب أن تفزع الدولة حين ترى جسماً مريضاً مرضاً وبائياً
فتضرب بينه وبين الناس نطاقاً من العزل الصحي و « والتطعيم »
والوقاية ، ثم لا تبالي ولا تفزع حين ترى الأمراض الفكرية البائسة
تحتاج صحة القلوب والأفكار ، وهي أوعية أسرار الحياة الإنسانية
وعوامل توجيهها !

إن العناية بالمظاهر الجميلة البراقة لاتغنى عن العناية بالخفايا والأسرار
في أى شىء ، وخصوصاً في الحياة الإنسانية التي يجب أن يسبق الفكر
فيها كل عمل وكل مظهر . وإن المجتمع ليهدر قيمة الفرد الاجتماعية مهما
كان جميلاً قوى الجسم حين يرى به جنّة أو مساً من الخبال ، فيسجنه
في مستشفيات المحبولين أو سجون المجرمين ، ذلك لأن الفكر هو الشىء
الأول الأهم في الإنسان .

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان
والإخلاص للفكر والعلم يحمل على ابتداء حياة الأمم بهما وإنشاء
أوضاعها من جديد ، ومقاطعة الاشتغال بأى فرع من فروعها إلا بعد
إصلاح الدعائم والأصول التي يقوم عليها بناؤها .

و«الترف العقلي» الذي تراه الأمم المتخلفة في الأمم الراقية التي سبقتها
بأشواطٍ وأشواط ، فتفتتن به ويتوجه إليه أفراد منها منسلخون عن حياة
الشقاء التي تحياها أممهم ، ينبغى ألا يشغلها ويصرفها عن مجابهة العقدة
الأولى ، وهي إصلاح حياتها مهما لقيت من العنت والمشقة والاضطهاد
من الراضين بالحياة كما هي ، والذين لهم مصالح في الحرص على بقاء
الحياة كما هي ...

فليكن اجتهادنا في صنع القوالب الصالحة وتخطيط الاتجاهات ،
ولو كانت تلك العملية مسئمة ليس فيها زواق ورؤاء .

وليكن لغيرنا ممن يأتي بعدنا لذة الاشتغال بألوان الترف العقلي ،

وطلب الشهرة بأعمال التلوين والزواق ، مما يفتنُ العوامَ وأشباههم ، ويذيع
الشهرة بينهم .

فاذا أصررنا على تزويق الأجسام الآدمية الحديثة بطلاء رقيق من
المدنية ، تاركين النفسية القديمة كما هي ، فلن يكون ذلك أقل خداعا
من دهن الأحطاب والجذوع النخرة باللون الأخضر ... ! إيهاماً للناس
بأنها نبات صالح في أرض طيبة ...

المسألة الأفغوانية !

أم العدد والحساب — الرباطات الثلاثة — منطقة الزعازع والعواصف —
الحدود في الاقتناء والتوريث — الأسرة تنسع — خطر العقليات المادية

هلمى يا ذات الخطر والجلالة !

إلى قلمي .. كما يقبل الثعبان العظيم زاحف الرأس إلى ساحر ليحطم
تابه ويظهر لعابه !

هلمى يا بوق الشيطان ، ينفخ فيه على القلوب فتكون كالمخالي والخزائن
والجيوب ، تخزن الأجسام ذات الحجم والكثافة والثقيل ، وتمتلىء
بالخطام وهي مهبط الأسرار ومجلى الأنوار .. !

هلمى يا دين البشرية الوثنية ، وقبلة قلبها ، وكعبة طوافها وسعيها . !
يا أم الدينار ! ذى الغرة والطرة ، والبريق والرنين ، والثقيل الخفيف
والروح اللطيف ، الذى يسرى به الشيطان إلى الأقداس المغلقة فى الضمائر
فيفتح به مكان الطهر ، ويحيله إلى نجسٍ وعُهر . !

ياروح « العجل الذهبى » الذى يتشكل ويتمجد ويتمصص جسم
كل شىء ، فيترأى به ويتخايل فى صور شتى تذهل العيون عن الحق
والشرف والإيمان !

إلى قلمي أيتها الأفعى ذات الرؤوس والقرون والألسنة والذبول التى
لا عدد لها لأنها أم العدد والحساب !

أيتها « المسألة الاقتصادية » ! ياوكر الجرائم الفردية والاجتماعية
والسياسية . . . !

إننا نشعر برباطات ثلاثة تضغط على قلوبنا وتشد عليها وتربطنا
بثلاث غايات عظمى هي : « الحياة » و « ما وراء الحياة » و « المجتمع » .
فالذي يربطنا بالحياة هو « الحب » ونتيجته الاندماج في « الزواج »
والامتداد في « النسل » تعزية وتعويضاً عن « خلود الذات » وهو الأمل
الأكبر الذي لم يتحقق .

والذي يربطنا بما وراء الحياة هو « الدين » ، ونتيجته التعرف إلى الله
باريء الوجود ومفيض الحياة .

والذي يربطنا بالمجتمع هو « المال » إرضاء لجملة غرائز حادة وشهوات
عنيفة تظهر في الأنانية والأثرة والخيلاء وحب التسلط والمباهاة والافتراس
وحب الاقتناء والحيازة والتملك ، وحب « إعلاء الذات » مقرونة بغيرها
في مجموع . . .

والرباطان الأول والثاني لكل منهما منطقة تتصل بالجانب الأعلى
من الإنسان ، وتثير في قلبه أشواقاً فيها سمو ، وفيها رفق ووداعة وحنان
ونسيان « للذاتية » والأنانية ؛ فلذلك تحيا بهما النفس سعيدة مسعدة ،
منتهجة نافعة .

أما الرباط الثالث ، فلا يتصل إلا بمنطقة العواصف والزجاج من النفس ؛
إذ هي مجال الاحتكاك والمنافسة والسباق والصراع بين ذوات مختلفة
متفاوتة القوى والمواهب . . . وقد سبق الشر من هذه المنطقة إلى الحياة

وأفسدها ، ولذلك كانت محل العناية والتنظيم والتهذيب ، ومحوراً عظيماً لشرائع الأرض والسماء ، ومشار الحروب قديمها والحديث .

وبدون تسوية « المسألة الاقتصادية » ، في العالم ، وحل « مشكلة العيش » وتوزيع الموارد الاقتصادية في الأمة الواحدة وفي الأمم المتعددة في عدالة وإنصاف ، وتجرد عن الأنانية الشخصية والقومية ، لا يمكن الاطمئنان إلى مستقبل سعيد للإنسانية .

وربما كانت كبرى جرائم الحياة هي جرائم الغنى ومفاسد البطر والترف والطغيان ، نتيجة لغرور المال . نعم إن للفقر جرائم كبرى أيضاً ، ولكنها جرائم ومفاسد هي في الواقع عقوبة و « رد فعل » على جرائم الغنى وعدم التوازن الاقتصادي في المجموع .

ولذلك كان من أول الواجب على رجال الروح والفكر ، أن يجعلوا المسألة الاقتصادية وتنظيمها واعتبار أسسها العادلة ، محل عنايتهم الفائقة ، كما يعنون بالمسائل النظرية في اللاهوت والفلسفات والآداب ، وأن تكون لهم رقابة ساهرة وجهاد دائم في التدبير والتنظيم الاقتصادي ، حتى يضمنوا لكل فرد أن ينال حق العيشة بالجسد كما ينال حق الحياة بالروح ، وحتى يكفلوا لمثلهم العليا أن تحيا وتتجسد في أشخاص ، بدل أن تظل طول الحياة ميمية مدفونة في بطون الكتب ، أو مُرددة في المعاهد والمعابد وحدها . ثم يكون واجبهم الأكبر أن يمنعوا التكالب عليها ، والتطافى في رحابها ، وأن يحملوا المجتمع على السعى إليها في هودة ورفق وشرف .

وإن ماتطلبه غرائز التملك وشهوة المال لا يمكن أن يقف عند حد ينتهي إليه . وعلى هذا فواجب أن يدرك الإنسان ذلك ، ويحد من آماله

ومطامعه بما يوافق مصالحه ومصالح الآخرين ؛ وإلا انقلب كذلك الثعلب الذي ظل يأكل من فريسة حتى امتلأ وعجز عن النهوض والجرى ، فاقتنصه الصائد ..

ومع عدم شعور الجد والأب بحب الحفدة والأبناء له ، بل مع عدم وجودهم في حياته ، نجد الأجداد والآباء يغالون في الاقتناء والإثراء بدون حد للمطامع ، وبدون التفكير في أن مازاد على الكماليات في متوسط عمر الإنسان ، إنما هو حمل باهظ للنفس يرهقها ويكادها .

فينبغي أن يحد الثرى ثروته بحيث تكفي ابنه المباشر وحده . أما الحفدة والأسباط فيجب إهمال التفكير في توريثهم ، وعدم تضحية المجتمع والمروءة مع الناس من أجلهم وهم في عالم الغيب .

ولماذا يلزم الإنسان أن يعول أهله الأذنين وذريته الضعاف ، ولا يلزم بإعالة إخوته في الوطن من العجزة المحتاجين ، وهم أسرته أيضا بالمعنى الواسع ؟ لا بد من إقامة مسائل الاقتصاد والإحسان على هذا المعنى العميق

الكريم ، لاعلى التبرع والتفضل والاختيار .

لقد كثرت العقلية المادية المغالية التي تحاول أن تفسر الحياة دائماً تفسيراً مادياً آلياً . . . مغفلة ذلك المعنى الإنساني العظيم الذي يتصل بالحق ومعاني المروءة والإيثار والنبيل ، ولا يكون المرء إنساناً إلا بسيطرة ذلك المعنى على فكره وروحه .

هذه العقلية أعظم نماذجها هم اليهود . وقد انتقلت فلسفتهم المادية في غلوها إلى أغلب الأمم ؛ فهم ليسوا الآن ممثلها وحدهم .

نعم إن المادة آثاراً كبرى في الحياة الإنسانية ، ولكنها يجب ألا تكون المحور الوحيد لسياستها العليا كما هي الحال الآن .

جرائم التفاوت الفاحش

ماذا بين الإنجليزي و « المنبوذ » الهندي ! — بُثور قبيحة على وجه
الإنسانية — نقص القادرين على التمام — استواء سطوح السائل في
الأواني المتصلة — الحد الأدنى في المسألتين الاقتصادية والأدبية — التعاون
أخص صفات الإنسانية العليا — ينبغي تنبيه كل ذي حق إلى حقه —
جرائم التهاون في الكرامات — لولا من يقبل الظلم لم يوجد الظالم —
غباوة البقر والغنم — الغواني وعشاقهن

ماذا بين فكر الإنجليزي وفكر المنبوذ الهندي من آفاق صناعية ؟!
إنه ما بين العطر والبول ، أو الزهر والبعر !
إنه ما بين قصر « نائب الملك » وجُحر « المنبوذ » في الهند . .
إنه ما بين الإمبراطورية البريطانية في ذهن الإنجليزي ، وعالم
الرَّحَص والأنجاس في ذهن المنبوذ !
يفتح الطفل الإنجليزي عينيه على الحياة فيجدها مُلكاً كبيراً ومجداً
عريضاً وتاريخاً يحدّثه عن عظّمته ، وحاضراً يوحى إليه بعزّته ومجده ،
ويجد دنيا ذات أفكار وآراء وفنون وألوان علم وأدب وعمران وسياسة
وأساطيل جوية وبحرية وجيوش برية ، ويجد وجوها مشرقة وأمّوالاً
موفورة ومساكن مترفة ، إلى آخر عالم الإمبراطورية العظيمة التي لا تغيب
عنها الشمس ، ولا يغيب رجالها المنتشرون عن تلقي ماء كل سحابة ممطرة ،
وثمر كل شجرة مثمرة ، وكل فكرة أو خطرة عابرة !
ويفتح الطفل الهندي المنبوذ عينيه على عالم عجيب من القبح والظلمة

والقذر والرّحَض والمطاردة واللعنة من المجتمع . . حتى لا يستطيع أن
يقرب من « البقر المقدس » !

وكيف يستطيع القرب من هذا الحيوان « المعبود » ذى الروث
الشافى والبول المعافى والمقام الآلهى ! وهو النجس الشخص والظل ،
الملعون الروح والفكر ، المسكون بأرواح الإثم والشر ؟ !
فمن ذا وضع هذه الفروق الهائلة بين إنسانين كلاهما له رأس وعينان ،
ولسان وشفتان ، وقلب وفكر آدميان ؟

من ذا وضع هذا كله غير الشيطان وجنوده ، وهم الأوصياء
الجاهلون الظالمون !

وكيف اللقاء بين البشرية فى سلام على قدم المساواة مادامت هذه
السدود فى وجوهها ، وهذه المخاضات من الأحوال فى أرجلها ؟
إننا لنأسى ونأسف حتى على الفروق الصناعية المغتفرة بين فكر
الإنسان الذى لا يعلم من حقائق الكون إلا أن الشمس إذا طلعت يضىء
الكون وترى العين الأشياء ، وإلا أن الإنسان إذا تكلم جهراً سمعه جاره ،
وبين فكر الإنسان العالم بآخر النظريات الضوئية والصوتية . . فكيف
لا نأسى ونأسف ، بل ونثور على تلك الفروق المجحفة التى تجعل البقر
معبوداً والإنسان منبوذاً ؟ !

إن على رواد الحضارة المنشودة أن يبحثوا عن أوكار هذه الجرائم
المنكرة فى بقاع الأرض ويدسروها تدميراً ، حتى لا تنتقل منها عدوى الطغيان
والمظالم ، وحتى يبرأ وجه الإنسانية الجديدة من بثورها ومقابحها المزرية .

ولست أدري ، ما الذى حال ويحول بين الأوروبيين الراقين وبين
أن يأخذوا بأيدي الأمم والجماعات المتخلفة ؟ وما الذى يجعلهم يهملون
بل يقاومون حركة إنهاض هذه الأمم المحكومة بهم ، ويحقدون عليهم
وعلى غيرهم ، ويبغونهم سوائهم وحيوانات مُهدرة الحقوق الإنسانية ؟
أهو شعور الوصى الظالم الطامع على اليتيم القاصر ؟ شعور الذى يتمنى
امتداد طفولة اليتيم وقصور السفية لتدوم وصايته التى يملأ منها أوعيته
الشرهة ، وبطنه النهم ؟ وما يدري هؤلاء أنهم يملأون أوعيتهم وبطونهم
من النار والسعير الذى يدمر حياتهم قبل حياة الحكومين بهم . ورب
البشرية بالمرصاد !

إنهم لو فعلوا بمقتضى الروح المسيحى الحقيقى الذى ينتسبون إليه ،
وبمقتضى موجبات الوصاية والرحمة ، لسعدوا وأسعدوا ..

لو فعلوا لأنقذوا رعاياهم القاصرين وأنقذوا أنفسهم من الأمراض
والأحقاد التى تنتقل إليهم من هؤلاء لاحالة .

نظفوا الأرض من جهالاتها وآلامها أيها الأوصياء العلماء القادرون ..

فإن أفبح العيب هو نقص القادرين على التمام . !

فما لم ترفع الأمم الوصية حياة الأمم المنحطة إلى مستواها الراقى ، فلن

نظفر بالاستقرار والسلام فى هذه الحياة القصيرة .

ومن جانب آخر ، ما لم ينهض المستضعفون بأنفسهم ويكافحوا ليرفعوها

إلى مستوى الأقوياء الصالحين ، فلن يظفروا بطائل .. لأن ما يدور

بأخلاقهم وقلوبهم من الألم وإحساس الشقاء لا تتفطن إليه قلوب الأمم

اللاهية القوية البانية قوتها على ضعفهم ، وسعادتها على شقائهم ؛ إذ أن

ما يدور بخلد البقر والغنم لا يهتم الفلاح والجزار اللذين يستخدمانها ويذبحانها .
وإني لأخشى أن يكون استمرار هذا التفاوت الفاحش بين الضعفاء
والأقوياء ، إلى الحد الكبير الظاهر في حياة هؤلاء وهؤلاء ، سوف يحمل
العالم من النكبات ما يجعله دائماً في شقاء وتعاسة .

ولن يحس الأقوياء ويفزعوا من هذه الحالة إلا إذا علت إنسانيتهم
وسمت ، وصاروا أوصياء ذوى غيرة على أبناء الحياة جميعاً ، وحكوا القاصرين
ليخدموهم لا ليستغلوهم — كما يعبر الرئيس الأمريكي الجديد « ترومان » —
وسمحوا لحياتهم الراقية أن تتسرب إلى غيرهم فترفع مستواهم حتى
يستوى سطحها في أوعيتهم وأوعية غيرهم ، كاستواء سطوح السوائل في
الأواني المتصلة .

وإن أول ما تجب العناية به الآن في « المسألة الأدبية والمسألة
الاقتصادية » هو أن يضمن الأوصياء للطبقات الدنيا في العالم جميعه
مستوى من العلم والصحة والنفقة يكفل لهم حياة الكفاية في المسكن والمطعم
والمدرسة والملبس والمتاع اللازم لتخفيف السأم وإدخال المسرات .. ثم
يكون مؤقتاً لأصحاب الأموال بعد ذلك أن ينمو أموالهم كما يشاءون ،
ماداموا يؤدون واجبات الدولة والمجتمع والإنسانية .

والأمم التي تأتي حياة التعاون تعتبر أمماً بدائية لم تبرا من التوحش
والتفرد القديم ، ولو كانت على قمة الأمم مكانة في القرن العشرين ..
إذ أنه إذا فكر الإنسان أو الشعب أو المجموع من الشعوب في غايات
نفسه وحدها وأنانيته الضيقة ، لم تحدث الغايات الاجتماعية والحركات

الدولية العظيمة التي تفسح للإنسانية مجالات حيوية جديدة للمتاع والعلم .
فعلى الذين يريدون تحقيق أهداف الحياة العظمى أن يبعثوا في قلوب
الأفراد والشعوب الإيمان بوجوب خدمة غايات الحياة وأغراضها المشتركة ،
وأن يجعلوهم حراسا لا يبالون الفناء في خدمة هذه الغاية العظمى ، حتى
لا يأخذوا الحياة بشكوك تزلزل إيمانهم ، بل يأخذوها بعقيدة لا تبالى الفناء
في سبيل الحق ، بل قد تطلب الفناء لتخرج من الحياة بشرف خدمتها
وتدعيم قواعد الحق فيها .

فالإيمان بشيء عظيم ، والتعاون على تحقيقه ، والموت في سبيله ، هو
أخص صفات الإنسانية العليا والأمم العظمى .

* * *

وينبغي أن تقول الأمة أو الأمم لمن يجهل حقوقه فلا يطالب بها ،
ويجهل فرص حياته العامة فلا يعرف التمتع بشئونها : هذه حقوقك
وفرصك وامتيازاتك . تمتع بها ، واسلك ، إن شئت ، في متاعك بها الطريق
الفلانية .. لأن يستغل قصور القاصر عن إدراك حقه فيغصب منه ويسرق
ويهمل إرشاده .

والحال في أكثر بقاع العالم هكذا ، بل أكثر ظلما ؛ إذ يضطهد
من يطالب بحقه .

* * *

ومن أعظم أسباب الظلم والطغيان ، التهاون في الكرامات المقدسة
والحقوق العامة بحجة المجاملة والتسامح .

ويذم في آثار هذا ، ألا تتنازل الجماعة عن حقها في القصاص ،
حتى لو تنازل عنه المجنى عليه ؛ لأن بعض النفوس يطغىها ويغريها بالشر
ذلك التهاون ؛ ولأن بعضها ناقص الإدراك وسيء التقدير لما عند التهاونين
والمجاهلين من تسامح وسعة حلم ، فيفهم ذلك على أنه ضعف وعجز .
فعلى كل شخص ألا يتهاون في الحق والكرامة العامة ، وأن يدافع
عنهما حتى يشترك في مقاومة ما يولد عوامل الطغيان .

* * *

ولو أن الأبقار والأغنام وما إليها من الأنعام عرفت القوة العظيمة
التي في قرونها واستعملتها ، إذا لسقت أمامها الذئب والجزارين . .
ولكنها فقدت موضع الشجاعة والتدبير في نفسها فاستسلمت وخافت .
وكذلك من لا يفكر في حقه وقوته الكامنة التي يستطيع أن يقاوم
بها الطغاة ويحملهم على احترام حقه والحق العام . . يكون قد فقد موضع
الشجاعة ، وصارت له طبيعة البقر والغنم ، تساق للمذابح من قرونها وأعناقها
وهي أعظم موضع لقوتها وبأسها !

وكذلك تقاد الشعوب الضعيفة رغم أنفها من أعظم مواضع قوتها
وبأسها ، وهي قلوبها وأرواحها التي لم يجعل الله لأحد عليها سلطانا
عنها بلغت قوته .

* * *

« و بعد » فلا بد من التنبيه إلى أمر ذي خطر : وهو افتتان الضعفاء

بالأقوياء افتتاناً يحملهم على الاستسلام لهم ونسيان حقوقهم وكراماتهم
وخصوصياتهم التي أرادها الله لهم ، فيكون الأقوياء والمستضعفون
كالغواني المتاجرات وعشاقهن ...

فالغواني يفتن الرجال بظرفهن ورقهن وجمالهن ، ويخدعنهم عن
الحقوق والواجبات ، ويحطمن رجولتهم ، ويجعلنهم ينزلون عن كثير من
كرامات الرجال في سبيل هذا العشق المجنون الآثم !

إن « الرجل الأبيض » جميل ذكي ظريف عالم منظم يعشق ! يعشقه
الرجل الملون المتخلف المستضعف الذي لم ينل حظه من العلم والسمت
والظرف ... ولذلك نجد من يخالط الأوروبين من الضعفاء يفتن بهم ،
وقد ينكر دينه الحق ووطنه ومواطنيه في سبيل إرضائهم والتقرب إليهم ...
فكثير من مهرجات الهند ، مثلاً ، وسادة الأمم المحكومة ، لا يستطيعون
أن يتركوا عشرة هؤلاء الحاكين وأنسهم وكياستهم وتفتيحهم لحياة المتاع
والفخفة والتجميل ، لإرضاء مواطنيهم من القروء والجاهلين والمنبوذين !
ودواء ذلك أن يسرع العقل المتخلف في الأمم المستضعفة بقدر طاقته ،
إلى الأخذ بأسباب العلم والنظام والتدبير والفن وعلوم الجمال ، لسد النقص
الذي يستطاع سده ..

فإذا لم يسرعوا إلى ذلك سوف يظلمون على إنكار بعضهم بعضاً ،
ولعن بعضهم بعضاً .
فالأوطان هي أشخاص المواطنين قبل أن تكون هي السقوف
والجدران والمرايع ...

هذه الحرب وعبرتها^(١)

الظفرة تنتج النكسة — الديمقراطية هي مجرى التاريخ المختار — أول
خطوة هي تغيير النظم الاقتصادية الجائرة — حرب ليست للاصلاح —
لو فعلها هتلر ! — لو أدرك الانجليز والفرنسيون والأمريكان ! —
التقليد الياباني الأعمى — الحرب هي الرد الوحيد على الجاهلية — إحراق
الغابة بشعالبها وذئبها — هل اعتبرت أوروبا ؟

سيكون فشل النازية وانهيائها كنزعة متطرفة ، درسا بليغ الأثر يأخذ
العالم إلى أعظم دليل جديد على أن تحكم الفرد في أمته ، أو تحكم الأمة في
الأمم ، ومحاولة تغيير مجرى التاريخ فجأة ، لن ينتج إلا الارتداد والهبوط
والانهيار مهما بذل في إحكام الخطة من الذكاء والقدرة .

أجل ، سيعرف العالم من انهيار ألمانيا بآمالها في سيادة أوروبا أن
مجرى التاريخ كمجرى النهر المستبحر العظيم ، لا يمكن تحويله بدون عمل
عظيم بطيء يشترك فيه الناس جميعاً لا أمه واحدة ، ويقوم قبله عمل
وإرهاص وتمهيد .

والديمقراطية في الشعب الواحد ، وبين الشعوب المختلفة ، هي مجرى
التاريخ المختار ! نعم فيه أقداء وغمائم وقش منحدره من قم الماضي وأغواره ،
ولكن هذا هو سير الحياة وسنة التطور التي شاء الله أن يسير تاريخ
البشرية عليها .

(١) كتب هذا الفصل في سنة ١٩٤١ .. ولم أنصرف فيه الآن إلا تصرفاً يسيراً

والذين يريدون أن يفقدوا البشر فجأة جميع المعاني التي عاشوا بها
زمنًا هائلًا ، وتكونت عليها قلوبهم وتطبعت أعصابهم ، بحجة اكتشاف
نظرية علمية أو فرضية اجتماعية ، هم في الواقع غافلون عن آثار آلاف
السنين التي تركزت في أعصاب البشر وقلوبهم خماؤها ورؤسها .

إن هذه المعاني التي يراد من البشر التضحية بها وتقليب القلوب عنها
فجأة ، هي التي رأينا على ضوئها طريقنا الحالى وأفرغنا في قلوبها ، وقام
على أسسها بناؤنا المشترك في جميع البقاع .

وأنا أدعو دائماً إلى التحرر من مواريت التاريخ السيئة ، ولكن
طريق ذلك التحرر لا يكون بغير التدرج الطبيعى المدفوع بعوامل التربية
والسرعة العصرية ، ولا يمكن أن يكون طفرة . فذلك شرود عن سنن
الطبيعة . ويجب لذلك أن نأخذ من البشر جميعاً للبشر جميعاً شريعة وحقوقاً
وطرفاً عقلية متقاربة ترضيهم ويستطيعون أن يلتقوا عليها .

وإن هذا هو زمن إخراج هذا الشيء الواحد ، أو هو تمهيد لزمانه
فتجب المحاولة لوضع أسس لإخلاق البشرية لنفسها ، وإدراكها وضعها .
ويجب مطاردة الفساد أن يسكن جسم العالم الجديد بمطاردة خماير
السوء في النظم الاقتصادية الجائرة قبل كل شيء .

ولو أن (هتلر) وضع قوته الحربية العجيبة في موازين السلام والإصلاح
العالمى ، وعرض فكرة هذا الإصلاح بطريق التفاهم ، ودعا إلى ذلك
أمم الأرض في مؤتمر ، وأنذر الإنجليز والفرنسيين بعد أجل مضروب

أنهم إن لم يقبلوا شروطه المعقولة التي يوافق عليها ذلك المؤتمر المفروض ، فهو في حل من اللجوء إلى الحرب ، وأفهم الجميع أنه يطلب إصلاح العالم « كرسول » ولا يطلب سيادة (جرمانيا) وحدها كزعيم قومي ، وأخرجها فكرة عالمية لا فكرة جرمانية قومية تؤمن بحق ألمانيا وتكفر بحق غيرها . ولو أن الإنجليز والفرنسيين كذلك آثروا الاستجابة لنداء الحياة والحركات الانتقال السريع في نفوس الأمم الصغرى والمحكومة بهم والتابعة لهم ، وأسرعوا وسبقوا المظلومين والمحكومين إلى الترجمة عن ظلاماتهم ، وغيروا حظ كل هؤلاء ، وضمنوا لأنفسهم المكانة الكريمة بين أمم كريمة ...

ولو أن أمريكا شعرت بمسئوليتها تجاه « أمها » أوروبا والعالم أجمع ، وتدخلت في تعديل حياة السلام على أسس الحق ، كما تدخلت الآن في تعديل حياة الحرب لضمان مثلها العليا التي تعيش بها ؛ وكما نهضت للدفاع عنها بقوتها الهائلة وإيمانها الصادق وكفايتها الممتازة ...

ولو أن اليابان اتخذت طريقا لاتساع نفوذها وسلطانها غير طريق الاستعمار الغربي المبني على القوة ، وأفهمت الصينيين حسن نيتها وأشعرتهم أنها حريصة على مصالحهم وجنسياتهم القريبة من جنسيتها ، واجتهدت أن تضمهم إليها عن طريق الحب والثقة لا طريق العداوة والقوة ، واجتهدت أن تأتي للحياة السياسية بأسلوب جديد للفتح العقلي والنفعي غير أسلوب الاستعمار الغربي .

لو أن ، ولو ، ولو ... إذا لانتقل الناس إلى حياة أسعد بدون حاجة

إلى هذه « الجراحة » الفظيعة التي يجريها زعماء هذه المعسكرات لإصلاح
جسم العالم وتطبيب علمه كما يزعم كل منهم ...

إن كل زعيم يقف داعياً إلى العدالة والسلام ووقفه المسيح بن مريم . .
بعد أن ذاقوا ويلات الحرب . وما كان أحوج العالم إلى أمثال هذه
الدعوات في زمن هدوء الدم وتربّع السلام على عرشه في دولة الفكر
والوجدان . . إذا لكان هذا أوفر للمال والشباب والجهود والطفولة
والشيخوخة والمساكن المترفة والآثار العزيزة النفيسة التي أصابها الدمار ،
ولكان هذا أدعى إلى موت الأحقاد التي ربما تكون قد زادت
بهذه الحرب وما يعقبها من نزعات الانتقام وتأريث العداوة .

واني أرى الملام الأكبر على أمريكا ! لأنها كانت تستطيع أن تكون
فيصلاً وقوة عظيمة تثقل كفة الدعوة إلى الخير والحق ، وتجمع حولها أمم
الأرض المظلومة المحتاجة إلى وصي قوى ومحام بارع مؤمن يدفع عنها اعتداء
الأقوياء على حقوقها الطبيعية ، ويفهم الجميع أن ميزان الحياة لا يعتدل إلا
بترك كل أمة وشأنها من غير تدخل إلا فيما يمس النظام العالمي . إذاً لكان
هذا المال والثروات المصروفة هدرًا في إطعام جوف الشيطان بالحديد والنار
والدماء ولحوم بني الانسان ، أسرع أداة في إرضاء الأمم الفقيرة وإقامة
حياة رحيبة هائلة للجميع .

ولكن يبدو أنه ليس من الممكن أن تتنازل الأمم والجماعات — مادامت
بعقائدها الحالية — عن تقاليدها البالية ، ومواضع حياتها الجاهلية بدون
أن تصاب بمصائب الحرب التي تحطم كثيرا من أوكار الجهالة والجمود والجشع

والأنانية ، حتى يمكن لمن يخلفهم أن يتنازل عن كثير من أنانيته ووحشيته
في سبيل حياة المدنية والاستئناس وضمان المصالح العامة للمجموع .

فهذا التنازل يكاد يكون مستحيلا لولا الحرب ، فإن مصائبها هي
التي تهون على الذين فيهم كثير من آثار الفردية ولم ترتفع نفوسهم
وعقولهم إلى مستوى العلم والخلق الكريم الذي يفهم أن الإنسانية واحدة ،
فيجب أن تكون مصالحها مشتركة غير متضاربة .

ونظرة صادقة إلى كل ما أعقبته الحروب العظيمة بين الأمم أو الحروب
الصغيرة في الأمة الواحدة كافية لإدراكنا أن أغلب النظم الصالحة كان
يصيبها الاتساع والشمول والنظرة الرحبة عقب كل حرب .

ويصح أن نقول إن النتائج السياسية الواسعة كانت دائما تظهر في
المعاهدات التي كانت تعقب الحروب العظيمة .

فالْحَرْبُ دائما كانت وسيلة لتقليم الغابة البشرية من كثير من الأشواك
والشجيرات الميتة والطفيليات والشعالب والذئاب التي لا وسيلة للتخلص
منها في بعض الأحيان إلا بإشعال الحريق في الغابة كلها . .

ولولا هؤلاء الساسة والماليون الذين لا ضمير ولا فكر لديهم في وضع
الإنسانية ومستقبلها وغايتها ، وهم المسيطرون الحقيقيون على الاجتماع ، لكان
من الممكن الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أفضل عن طريق الإقناع
و « معارك السلام » .

ولكن أنانية هؤلاء وضيق آفاقهم وانتقال أساليب الجاهلية عن
طريقهم إلى الحياة ، هي التي تعوق هذا الانتقال الهين ، وتحتم الانتقال

عن طريق العنف والتحطيم .

وأحسب أن نفوس الأوروبيين الذين دمرت حياتهم بهذه الحرب والتي قبلها بربع قرن ، سوف لا يجدون في أنفسهم ، لو اتعضوا ، غضاضة من أن يتنازلوا عن شيء من حقوق قومياتهم الضيقة ، ونعرات أجناسهم ولغاتهم وعقائدهم ، وسوف يسرون نحو تقارب يكفل عدم التصادم ، وتوزيع المنافع والأقوات والمصالح .

وما كان لقوة إقناعية أخرى غير الحرب أن تحملهم على ذلك ، بعد أن شملتهم في السنوات العشر الأخيرة موجة من النعرات القومية والخيلاء العسكرية والمنافرات الجنسية ، وسرت منهم إلى الأمم التي تتصل بهم ، حتى الأمم المستضعفة الجاهلة قد أصابها ذلك الادعاء والهمتار .

فهذه الحرب كانت ردا سريعا من الأقدار ومن طبيعة الحياة الاجتماعية الحالية التي لم تعد تحتل الطيش القديم . وإن عدنا عادت بأسلوب جديد . وما أدراك ما أهوال الحرب بأسلوب جديد !

٤

نحو أساس روجي للحضارة المادية

BRITISH LIBRARY

بين الوعى والذُّهول

رحلة في حيوات الناس — صيحة في أذن الإنسان — لو، ولعل، وربما —
لا ملام على الأقدار — لم تفت الغاية — نقطة البدء في الحياة الفكرية —
الغاية الأولى — حادث عظيم — آثار من الوثنية — الوضع الأصيل
للدين — ديانة الحياة

حينما أعسُ وأندسُ إلى مجلس في حانٍ صغير أو مقهى حقير، أرقب
الحياة الإنسانية في بعض جوانبها، وأتقرّس في وجوه القوم ونواصيهم،
وأستمع إلى أحاديث دنياهم وآمالهم وأعمالهم، وأتبع نظراتهم للحياة
فأجدها لا ترتفع إلى شيء سامٍ، ولا تدور حول قضية من القضايا العليا
للحياة، ولا تفكر في مبدأ أو مصير، ولا تتساءل عن صلاح أو فساد.
وحينما أقذف بجسمي في زحمة سوق من الأسواق بين ضجيج
الحركات والأصوات والأبواق، وشفقات الأيدي الختالة على الأيدي
الختولة في العقود والمبايعات، وسائر الارتفاقات والمشاحنات ..
وحينما أرصد حياة الأفراد اليومية، فأجدها سلسلة من الغفلات
والأكلات واللذات والأعمال الآلية التي لا استحضار فيها لمعان كريمة،
ولا يقظة فيها إلى أسرارها ومآل الإنسانية بها، وإنما هي دورات رَحَوِيَّة
وسير أعمى وراء دولاب الحياة من غير سؤال: إلى أين المسير؟
حين هذا كله، أجد في نفسي كأن الإنسانية عميقة في غفلتها
وذهوها، وكأنها خلقت لهذه الغفلات، ولن تكون لغيرها، ولن تكون

لحياة أخرى وراء هذه الحياة ، وكأنها منفصلة عن حياة الطبيعة الجادة
الواعية العادلة الموزونة انفصلاً يكاد يجعلها عالماً مستقلاً ...
ذلك وحى رؤيتي لغفلات الناس وانقطاعهم عما يدور في الأكون ،
وإهمهم التفكير في مبدأ الحياة ومنتهاتها ، وفي خفايا الطبيعة وأسرارها .
وحين أجلس مجلساً تُثار فيه الأفكار عن الكون والفساد ، والحقائق
والأباطيل ، وتصول فيه العقول ، وينبرى بعضها لبعض بالاعتراض والرد
والتعليق والتشقيق والبيان الساحر والحجج اللافتة ...
أو حين أقرأ كتاباً يعرض فكرة من أمهات الأفكار ، ويسيل
به سيلها فيفيض على الفكر والفؤاد ..
أو حين أرى آلة معقدة التركيب تطير أو تسير أو تخفق بالأصوات
والبرقيات ، مما أخرج عقل مهندس ذى قدرة على الاستيعاب والتقليد
والابتكار ...
أو حين أرى شيخوخة جليلة واقفة في محراب تتلو صلوات أو ترتل
آيات في إطراق وخشية واستحضار لعظمة الكون وجلال بارئه ...
أو حين أسمع نشيداً من شاعر ذى قلب اتسع وتيقظ للأحاديث
الصامتة والناطقة في الطبيعة ، واسترق السمع للنغم الذائب في الكون
والموسيقى الأبدية في حركات نجوم السماء ونجوم الأرض ...
حين هذا وذاك وذلك أقول : هنا موضع تكريم هذا الجنس
ومؤهلات خلافته !
هنا الإنسانية التي تقنع العقل الحائر بقيمته وقيمة الطبيعة وقيمة
الخير والحق والجمال !

هنا وضوح وانكشاف لمعنى سيادته ، وملاككوت واسع يصح أن
نستند إليه في تخيل مستقبله ، وفي تبين موضعه وسط ما يعمر الكون
من المخلوقات . . .

ثم أهتف : أيها الإنسان ! تيقظ لنفسك لتفرح بها . . . تيقظ أنك
حي تسعى وترى وتفكر وتتجه أى اتجاه تريد وسط الظلام والجود
والنور والصمت والبكم والصمم والعمى . . .
أنت الذى تفقه وتدرك تلك الحياة التى لا تجد غير عينك وأذنك
وسائر حواسك . . .

تذكر أنك المقصود بكل هذا الذى يحيط بك ، وأنت خليفة على
مُقدِّرات الأرض ، وأن فى يدك قوة من قوى التعمير والإنشاء والتوجيه
والتغيير والتنويع والتفريع ، وذلك شرف عظيم !

تيقظ واهتف فى سمع الزمان والمكان : أنا أنمو وأترقى وأتكلم
وأفكر ، وليس أسمى حدود وسدود أيتها الخلائق الواقفة المحدودة . . .

واجلس بجانب الجماد والنبات والحيوان فترات ، لترى الفوارق بينك
وبينها . . . ولن يغفر خالق الإنسان لامرئ جاء إلى الحياة ولم يجلس
مجالساً بين هذه الكائنات يوازن بينها وبين نفسه ، ويحدد موضعه منها ،
ثم يرفع عينه إلى السماء ، ويخفضها إلى القبر ، حتى يرى الطريق بينهما . . .

تيقظ إلى الذى مَسَّنَا بالحياة ونحن نجهلها ونجهله ، وأخرجنا ذاهلين
إلى ضحى النهار وسواد الليل ، وأرانا مشاهد ثابتة صارمة فى السماء ، ومشاهد
مرنة متغيرة فى الأرض ، وبدأ حياتنا من نطفة ، ومطَّ أجسامنا

من مُضغَة لحم ملقاة في ظلمات الأرحام ، إلى أجنّة مكتملة التخليق ، إلى
أطفال دارجين ، إلى غلمان يافعين ، إلى مرهقين متفتحين ، إلى شبان
مشبوبين ، إلى كهول وشيوخ منتظرين لا يعلمون وراء أيامهم أياماً . . !
إلى الذي أدار الشمس أمام عيوننا دوراناً يبلى في أجسامنا نسيجاً
وينسج آخر ، ويزيد في أفكارنا صوراً وينقص أخرى ، ويطوى الأيام
تحت أقدامنا سفيراً في الزمن ، ثم يطوينا بالأيام عضواً عضواً وذكري
وراء ذكرى !

إلى الذي فتح في نفوسنا نهماً لا يشبع من أطايب الوجود وحقائق
الوجود ، ثم سجننا في سجون القبور إلى يوم النشور .

لقد أدخلنا إلى هذا الدار لتبحت عنه في عالم الفكر ، وتتنظّره
وراء الأستار ، وتقرع باب الزمان والمكان في عُمرّة كل يوم وفقاً كل
مساء ، نسائل عنه ، ومعنا عيون تقود ، وأقدام تسير ، وقلوب تتلفّت وراء
كل ورقة في كل شجرة ، وكل ذرّة في كل مدّرة ، وتنظر في الوجوه
والعيون والألسنة ، وما يزحف ، وما يمشى ، وما يطير ، وما تحمله الرياح ،
وما يحمله الماء والأثير ، وما تحمله قوة القوي : الفكر !

ويّ !! آية غفلة هذه التي تغشى الناس وتتركهم عمياً ذاهلين عن مجيء
الحياة بهم من غير اختيار إلى دار العجائب ، وعن سيرها بهم إلى دار الجهول ،
وعن سير الشمس والقمر ، وتوارد الأيام ، وسقوط الأمطار ، وأسفار
الرياح إلى مختلف النواحي !

ثم آية غفلة هذه التي تغشى عقولهم وتصرفها عن الفكر فيمن جاء

بهم وسيذهب بها . ذلك الذي استتر وأصرَّ على تكبره واختفائه !
ولو دخل الإنسان الدنيا بكامل نفسه وفكره حين يولد ، ولم يدخلها
في غيبوبة الطفولة وذهولها وتدرجها به من البسائط إلى المركبات إلى
المعقدات ، وهو في شغل عن الأسباب والمسببات ، إذاً لربما خرج منها
مجنوناً بمجرد دخوله إليها ، من شدة الفجأة ودهشة العجب !
ولعل الحياة توطئ نفسها في نفس الإنسان في زمن ذهول الطفولة
ليطبق احتمال أمانة الفكر ، وليعيش بعد ذلك في نصف شعور ، وليحتمل
ماعساه يلاقيه من الدهشة والتناقض .

والإنسان هو نتيجة انطباعات قوى الكون في ورقة حساسة هي
المنخ . . فلا بد من مرور زمان قبل الإدراك الكلي وبلوغ الأشد حتى
يتأتى للدنيا أن تدخل إلى ذلك المنخ العجيب . وبعد بلوغ الأشد يبدأ
الإدبار والانحدار ، وحينئذ يجب الحذر والبِدَار قبل النهاية الآتية .

ولعل الله الخالق المبدع شغل أكثر الناس بصغائر الحياة والنزاع عليها
وجعلهم كلقطيع الغافل المرتاح السادر في غفلته وعماه عن العلوم والمجهول
من أمور الحياة ، وأخرجهم في خطوط مرسومة وحلقات مفرغة ليعملوا
في الأرض كما تعمل الثيران في الطواحين . . تدور وهي لاتعلم أنها تدور
ولماذا تدور . . وضرِبهم بفتنة الدنيا ، فزاغت منهم الأبصار عن الحقائق
إلا في فترات الدين والصلوات . . وحتى هذه أدركوها وهم في سُخَّار المادة
وسُعار الشهوات ، إلا قليلاً منهم ، وهم العارفون المدركون لأرصاد الطبيعة
وشيء من تدبير الله فيها لعله فعل هذا ليخفف عنهم دهشة الفكر في

أعاجيب صنعه التي كلما زاد فيها الإنسان تفكيراً زاد حيرة! فهم لا يهتمون
هذه الدهشة ويصبرون عليها كما يصبر العارفون . .

وهؤلاء العارفون لو اطلعوا على الغيب لاختاروا الواقع وانصاعوا تحت
حكم الأقدار ، ولو في مُقارَفة الأضرار والأوصاب ؛ إذ قد عرفوا أنهم
لابد أن يخضعوا ليشتركوا في حبك الوسيلة التي أرادها الخالق المبدع
لأطفال الحياة الذين هم جمهور الإنسانية العاملة التي عليها عمار الأرض
بالأسلوب المادى المعروف .

وربما كانت غرائز القطيع العنيفة هي التي تنمى حركة الحياة
الدنيا وتوسع آفاقها ، كما ينمى عنف غرائز الطفل مستقبلة ويوسع من
آفاق حياته .

إذاً ، فلا ملام على الأقدار التي تدبر كل شيء وتضعه بميزان ، ولا يجوز
مطلقاً أن نتوهم أن حياة الإنسان بما فيها من أزمات ومآثم ، قد خرجت على
الأقدار ، وأنه قد فاتت على الله الغاية من خلق هذا النوع — كما توهم
بعض من أشرت إليهم سابقاً^(١) — فإن الإنسانية لا تزال في دور تفتح
المدارك وعقابيل الشباب ، والشباب فيه لَوْنَات كثيرة ، ولا بد أن تتدرج
إلى أدوار الرشد الخالص في كهولتها وشيخوختها ، وأن تحقق الغاية الكاملة
من خلقها كما أرادها ربها .

وكل مآثم الحياة الإنسانية وأزماتها قد تغتفر ويجد الفكر لها تعليلاً
إلا وجود خالق العلم أو الإشراف به !

وكذب من يريد خديعة نفسه ، وخديعة الطبيعة ، وخديعة رب الطبيعة !

(١) انظر صفحتي ٤٩ ، ٥٠ .

ذلك الذي يريد أن يفرض للحياة الفكرية الإنسانية مبدأ غير
« نقطة البدء » التي يراها الفكر أول حياته ومفتاح علمه .

ككذب وضل ضلالاً بعيداً ، وخسر خسراناً مبيئاً ، وقلب الحياة على
أم رأسها وأم رأسه !

إن نقطة البدء في الحياة الفكرية ، هي الفكر في باريء هذا
الكون الكبير الهائل الذي خلقنا الله منه وأسكننا فيه من غير اختيار
منا ... الفكر فيه حتى نعرفه ونؤمن به وندرك طرق تسميره للحياة
والطبيعة ، فنسير على خطواته وسننه .

إنه مجهول للحواس ولكنه معلوم للفكر . وقد رأينا ظلَّ يده يقع
على كل شيء ، ويضع كل شيء في موضعه .

ومن أضلُّ ممن يأخذ أطفال الحياة أول نشوئهم ، ويباعدهم عن نقطة
البدء هذه ، ويضعهم في مكان سحيق ، فيستمر أول الطريق عندهم
مجهولاً ، وآخره مجهولاً ، ووسطه مختلطاً مشوشاً !

الجناية الأولى هي إهمال الفكرة الأولى : وهي السؤال عن جاء بنا
إلى هنا ، ويمضي بنا كعابري سبيل .

ومن وراء الجناية الأولى تتلاحق أخواتها التي تجعل الحياة
أغلاطاً مسلسلية .

إن انفصال جنين إنساني من رحم أمه حادث عظيم ينبغي للإنسانية
أن تتلفت إليه وتوليه أجلّ عناية ؛ فلعل في الوليد حلقة جديدة فائقة
تحمل سرّاً جديداً من أسرار تكوين هذا النوع .

ولكن الإنسانية أو الدولة تجنى على نفسها ، إذ تهمل وصل عقل كل
ناشيء بمفتاح الحياة ، ومفيض فيضها ، ومرسل رحمتها .

وكأن الوثنية لم ترتفع بعض آثارها من الأرض للآن ... لأن من
ألواها انصرف العقل الإنساني عن الفكر في رب العالم وما يليق له من
الكالات ، وعن شكره الدائم مادامت آلاؤه وفيوضه تملأ النفس بالحياة
وتتواتر على الجسم . . ثم الركون إلى حجر أو بشر أو شيء من الأشياء
ينسى الإنسان معه رب الحياة ، ويستغرق في ذلك النسيان ، حتى يتعبد
ويُلوذ بما ركن إليه .

وهانحن أولاء نرى في هذا العصر آلهة منصوبة من المتاع والشهوات
والآلات والأعمال والصناعات ، يستغرق عقل الإنسان فيها حتى ينسى
واهب الحياة ...

قد يظن ظانٌ أني مُعالٍ في الروحية حين أدعو إلى أن يكون عقل
الإنسان دائماً مرآة لشعاع ساقط من سماء الله ...

ولكن هذا هو الوضع الأصيل الحقيقي للدين على ما أفهمه ، وعلى
ما فسرت به في مجال آخر ، من أنه الإحساس الدائم بالحياة ، والفكر
في مبدعها ؛ لتكون لذاتها وآلامها وأطرابها وأوصابها صوراً وألواناً
من العبادة .

والإسلام الذي هو دين الطبيعة ودين الحياة ، رسم لنا هذا حين سنَّ
رسوله أن يُذكر اسم رب الحياة عند الأكل والشرب والجماع وسائر

الأعمال والذات والآلام ، حتى عند ما يريد الإنسان أن يدخل المكان
الذى يخرج فيه مافى جوفه من الأذى ... !
وان يكون الدين غير هذا التذكر الدائم . . فليحمله فى نفسه من
شاء وليتركه من شاء .

ألا إنها « ديانة الحياة » التى تستحق وحدها أن يحيا الإنسان بها،
ويسعى جاهداً فى سبيلها لتحقيق غاياتها .
وغاياتها : العقيدة الثابتة التى لا تتزعزع بخالق الحياة الواحد .
وحفظ الحياة نقيية قوية متجددة كما هى فى الطبيعة .

ورصد قوانين الطبيعة التى تسيّر الحياة بنظام دقيق فى الجليل والحقير .
واستخدام تلك القوانين لصنع موجودات جديدة على النماذج والأساليب
التي فى الطبيعة .

وعدم الغفلة والذهول حتى لا نرى اليوم كأمس ؛ فلا يكون الزمان
عندنا يوماً مكرراً مملولاً ، ولا يكون إحساسنا بالحياة واحداً فى مراحل
عمر الفرد وعمر الجماعة ، فإن ذلك إحساس جسدى فقط بالحياة ، ووراءه
إحساس فكري روحى عند من لهم إخلاص الفكر فى الكون .

أولئك الذين يرون أن كل يوم جديد .. ثم يسبقون الحياة والزمن ..
ثم يموتون ليولدوا مرة ثانية من بطن الدنيا ليروا مشاهد أخرى جديدة ..
فإن العالم لا ينتهى أمده عند رؤية النفس والأرض والنجوم .
وإن الذى صنع هذا العجب الذى نراه ، لا بد قد صنع غيره لآراه ...

صوفية مادية !

تمجيد واصل إلى من له المجد ! — دنيا المهندسين — موقف لصلاة
جامعة — إلى المعتمدين على المباحث الروحية — نتائج لقانون
التسلسل والترقى — فرضية لا بد منها — إشارة قرآنية عجيبة — ضروب
من العقول — أدوار المعرفة وأدوار العلم — إنسانية الشرق المضيفة —
العلم دين — أين العصا السحرية ؟

ينبغي أن أقول لمن عساهم يخشون من مغالاتي في تقدير قيمة الإنسان
وما صنعه من الآلات التي فاقت بآلاف الأضعاف قدرة الحيوان وقدرته هو
على العمل والاحتمال والانبعاث والسرعة والدقة في الحساب والرصد
وقياس الدقائق وإبراز الخفايا وجلب المنافع والأضرار : — إنني لا أبغى
من وراء ذلك إلا لفت أنظار الغافلين إلى قدرة الفكر البشري وإلى
وجوب تمجيده عن السفساف الحقير من التصرف ، وإطلاقه يرود وينظر
ويعمل في ملكوت الطبيعة ...

ولا أقصد بتمجيد الفكر الإنساني إلا تمجيد بارئه وواضع أسرارهِ
في هذا الجسم المحدود الضئيل ... فلا يتوهمن متوهم أنني سأخرج بغلوى
في تمجيد الإنسان إلى شيء أشبه بإشراكه في الخلق والإيجاد ، فإنني قد
حددت هذا النوع في فصل سابق ، بأنه آلة في يد البارئ يتمم بها التنويع
والتفريع في خلق المادة وتصويرها .

ولا يسعني غير هذا ، بعد أن رأيت وفكرت في أعمال تلك الطائفة
المجيدة التي لم يلتفت إلى وضعها في الحياة بعد ، ولم يعرف لها خطرها في

تحقيق الغرض من خلق النوع ، ولم ينظر إليها ولم تنظر لنفسها نظراً روحياً ... وأعنى بها طائفة المهندسين ... أولئك الشعراء الصامتون الذين يرسلون قصائد مجسمة ، ويفعلون الأعاجيب من المواد المبعثرة المشوشة المختلطة الملقاة بدون نظام وتنسيق ، ويقىمون منها هذه الأشكال الموزونة المصقولة المنوعة ، التي عملت فيها آلاف العقول والأيدي بالتلوين والتزيين والإخراج الفني الغني باللفقات الذهنية ، واليقظة لألوان الشفق وأفواف الزهر ، ومزج الأضواء والظلال ...

أو يقيمون أجساماً آليّة تنبض بالنار والبخار ، وتسعى بهما أوبالكهرباء ، وتضيف إلى عالم الحركة في الأرض قوى أخرى تملأ سمع الزمان مع كل ما يدور فوق وتحت ...

أولئك الذين تسير أعينهم على مواقع يد الله ، يلتقطون أسرارها من غمار الحياة الزاخرة ، وعُباب المائع و « المتبلور » والجامد ، ثم ينظمون كل هذه الأفانين ويتخذونها أساساً لقوة التقليد وقدرة الابتكار التي في أفكارهم وأيديهم .

أولئك الذين يسرون على أسلوب الله من العمل ، ويتلقون فيوض المواد والقوى الطبيعية من يده الكريمة ، فيقسّمونها ويوزعونها ويتممون ما أراده فيها ، ويجلون ما أخفاه في أطوائها وثناياها ، ثم يضعونها في الأرض مجلّة منسقة ، متاعاً للعيون ، ومثابة للأجسام ، ومظهراً وتأويلاً لأحلام الروح في عالم الجمال .

ولن ينتهي العمل الهندسي للإنسان في الأرض إلا بعد أن يملأ

شعابها وهضابها وهواءها وماءها وسهولها وأوعارها بآثار يده وفكره؛ فإنه مخلوق برهن على أنه يصلح للعيش في اليابس والماء والهواء، وأنه لاشيء إلا وهو واجد فيه حقلاً ليده يعمل فيه ويأخذ منه .

وإني ما أسمع صوت قارئ يتلو كلام الله في تمجيد ذاته العليا في محطة الإذاعة ، فتردد صوته جميع آلات الالتقاط في جميع الأنحاء وتثبت ذلك التمجيد إلى زوايا الدنيا وأركانها وطبقات الجو، إلا أحس أن الإنسان ابتداءً يهز الأرض برسالته وعبادته، وينطق بها الجماد، ويُسمع بها على رغم الأبعاد ...

تلك روحية مادية حديثة، ينبغي أن تكون من مظاهر التدين في هذه العصور التي تسير فيها المدنية المادية بحياة الإنسان في ساعة واحدة أضعاف ما كانت تسير به مدنيت العصور السالفة في عشرات السنين .

نعم إن أصول الدين الحق واحدة ثابتة لا تتغير، ولكن ينبغي ألا نكون جامدين متحجرين في طرق العبادات، فنفهم أن عبادتنا قاصرة على الأشكال الموروثة، بل يجب أن تكون انتقالات العلوم بنا سبباً في أن نعبد الله بها، وأن يزيد فيكرنا فيه من أجلها. وتلك عبادة مطلقة من قيود الطقوس والرسوم والأشكال . . عبادة يستطيع أن يقوم بها من يسير بسرعة ألف ومائتي ميل في الساعة، ويرتفع إلى طبقات الجو العليا، وينخفض إلى أعماق البحار السفلى، ويتنفس في أقصى الشرق فتسمع

أنفاسه في أقصى الغرب .. ذلك الذي يستطيع أن يترك في كل مكان
كلمة تشهد بالله وينطق بها الأحجار والأشجار والماء والهواء ..
فهناك ، بين العلم المادى والاستغراق الروحى ، يجب أن يقف
الإنسان الحديث ، يناجى الله وفي قبضة يده مفاتيح أسرار المادة ونواميسها ،
وفي قلبه صلاة دائمة جامعة . . . !

وهذه الروحية المادية تمجد العلم المادى والعمل به ، وتخضع لدولة
الأجسام ولا تثور عليها ، ولا تعطل قواها بل تنميها ، لأنها تعرف أننا ما
خلقنا في عالم الأجسام إلا لنعلم قوانينها ونؤمن بها .

وينبغى أن نقول هنا للتاركين للعالم المادى الظاهر ، المنصرفين عنه إلى
مباحث الروح ، الذين يفرحون إذا عثروا على حادثة غريبة لا يستطيعون تفسيرها
تفسيراً مادياً ، ليتخذوها حجة على وجود قصد وعالم آخر وراء هذا العالم
المادى : إن ما تغرمون به وتنفقون حياتكم من أجله ، لا يصح أن تنصرفوا
إليه وحده في الاستدلال ؛ لأنه لا يبلغ الآن إلى عشر معشار الحجج التى
تستطيعون أن تأخذوها من ذلك العالم الظاهر الملىء بالعجائب والمعجزات
التى لا تحتاج العقول معها إلا إلى حركة ارتداد إلى مبادئ الأشياء ، وإلا
إلى اليقظة الدائمة لمراقبة كل شىء والدوران حوله ، ولأن ما بين أيدينا
وما خلفنا ملىء بالعجائب التى يراها كل فرد ويخضع للمنطق المستمد منها
كل سليم الطبيعة غير شاذ ولا شارد . « وكأني من آية في السموات
والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

فنحن نستطيع بجهد فكري قليل أن نأخذ من هذا العالم المادى
الظاهر، أدلة كثيرة على أن وراءه عالماً آخر، بل عوالم أخرى مجردة من
قيود حياتنا هذه، ولولم نر من ذلك شيئاً . . . فإن الرؤية ليست هي
الطريق الوحيد إلى التصور والحكم .

والنظرة العلمية المبنية على إدراك قانون الترقى وقوة التطور، تبين لنا
أنه ما دام قد وقف الإدراك بواسطة جسم من الأجسام عند حد الإنسان
بعد أن تدرج إليه في سائر أنواع الحيوان، فلا بد أن يكون وراء الإنسان
أفق حياة عاقلة أخرى، هي بطبيعة سلم الترقى مجردة من الأجسام . وكما
أن هذه الآثار والمشاهد البارعة التي نراها في العالم المادى نتيجة لعوامل
خفية نوعتها وشكلتها، فلا بد أن يكون في غير الأرض آثار ومشاهد
أخرى هي نتيجة لعوامل ونواميس أخرى غير التي كان من نتائجها ظهور
عالمنا الذي ندركه بحواسنا . وهذا هو اللائق باتساع الكون الذي أرضنا
فيه كذرة رمل في صحراء، فلا يصح أن نتخذ أساساً واحداً للحكم
على جميع ما فيه .

وهذا حكم نحكمه خضوعاً للفرضية الآتية التي تحل لنا هذا الإشكال
وإن أوقعنا في غيره . . . :

تخيل إنساناً خرج إلى الحياة أعمى أصم أبكم معدوم اللمس والشم ؛
فهل مثل هذا يكون لعالمنا وجود عنده؟ بالطبع، لا . ولكننا مضطرون
إلى أن نحكم أن عالمنا هذا موجود، ولولم يوجد في حواس هذا الممسوخ . .
وكذلك نحن مضطرون إلى أن نحكم أن وراء عالمنا هذا عوالم أخرى

ولولم توجد لنا حواس تدركها ؛ لأن هذا هو الذي يتلاءم مع اتساع الكون ، واتساع قدرة المسيطر عليه ، واتساع عالم الفروض والصور في بعض العقول .

وقد أشار القرآن إلى معنى عجيب يتفتح معه خيالنا ويأخذنا في عالم لا نهاية له من الفروض ، وإن كان لا طاقة لنا بإدراك ما فيه من الصور . قال : « أفرايتم ما تمنون ؟ أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون » وما تحته خط هو موضع النظر الطويل ، وباب للخيال المجدح ... ولكنه خيال مطموس الصور ، لأنه لم يجد أصباغاً وألواناً يمتزج منها ما يريد أن يؤلفه ويركبه ويفتن في تهاويله . وكيف ذلك وقد قالت الآية : « فيما لا تعلمون ... ! »

لا يصح لمن لم يدرك أن ينكر على من أدرك ؛ فان جوانب الكون واسعة ، ورسالات علم الله إلى العقول كثيرة ، وليست كل العقول قادرة على الغوص في أعماق الكون ، كما أنه ليست كل الأجسام قادرة على الغوص في أعماق الماء . فمن لم يستطع السباحة والغوص في اللجج والرجوع إلى الشاطئ ، فليزلم وليحذر ، حتى لا يغرق ويذهب في أهوال المعاني . وما في العالم « المتبلور » شيء تافه بالنسبة للعالم الذي تلتقي فيه أمواج المعاني ، ويعبُّ عباب الفروض والغيوب والرموز ، ولكن ما فيه لا يكون أساساً لأحكام الحياة الدنيا .

وعقل الإنسان كطفل الأم : ينبغي ألا تطلقه في المخاطر والمزالق إلا إذا شبَّ وكانت له قوة واقتدار .

ومن العقول نوع لا يعيش إلا في أعماق الكون ، فإذا طفا على السطح وأخذ بظاهر الحياة ، اختنق وقلَّت فيه الحياة ، كالسمك الكبير . . .

ومن العقول ما هو مسير لظاهر الحياة ، لا يتخلف عنها ولا يتقدم .

ومن العقول ما هو واقف متخلف انقطعت به الطريق ، فلم يصل إلى العالم الفكري الموجود الآن في أذهان الأمم المتحضرة ، وهذا عقل محروم فاته كثير من رسائل الله إلى الفكر الإنساني .

ومن العقول ما هو أسرع من الحياة ، بحيث يرى مشاهد آخر ساعة فيها كصور مكررة قديمة لا تثير في نفسه تطلعاً ، فلو خرج من الحياة لم يخسر شيئاً ولم يفُتْه شيء ، وهذا هو العقل الفائق السابق .

والنفس إذا عرفت قرار الحياة وأصولها ، لم تبال بما يحدث في فروعها من تلون وتبدل . وما عند هذا الصنف من صور كمال الحياة ، أرحب من الموجود وأكمل ؛ فهو يسير في مستحدثات الأيام كما يسير المرء في طريق معروفة له تردد عليها مراراً ، من كثرة تفكره في الموجود والمعدوم وما يصح أن يوجد .

وهذا قد يعمل في الحياة بجد وصبر ، ويسير كما يسير الغافلون بدفعة دولاب الحياة ، وطواعيةً لحركات سيرها بالناس ، وخضوعاً لقانونين عظيمين من قوانينها : وهما الأمل والعمل . . .

وهكذا الطبيعة ، رسالات من علم الله إلى الفكر الإنساني العام ،

يتلقاها كل عقل حسب طاقته واتساع حوزته ، ويأخذ منها ما
قُدِّرَ ويُسرَّ له .

فيمبغى لمن لم يدرك ألا ينكر على من أدرك ... ينبغي لرجل الشارع
ألا يجادل في عالم « أينشتين » أو « أديسون » أو « الغزالي » ومن إليهم
من العقول الفائقة التي أطلت على الأرض ، وكانت فيها كالثمرات التي
تلقط أسرار نوعها وتحفظ بذوره وترقيها .

وبين الإله الباريء الكبير وما عنده من عوالم المعاني والقوى المجردة
والشكالات التي لا تتناهى ، وبين عالم المواد والكشافات ، وقف الإنسان
التائه المتأمل الساعي وراء المعرفة حيناً من الدهر ، لم يتقدم فيه خطوات
كثيرة ، ثم انقسم فريقين : فريقاً استمر في التفكير المجرد في الطبيعة
وما وراءها ، وأدرك بعض اتجاهات الكون بالمحسوسات والنظرات
الشعرية الخاطفة ، وقنع بذلك حتى خرج من الحياة « عارفاً » غير « عالم »
ولا « عامل » ...

وفريقاً أعياه التفكير المجرد ، ولم يجد له محصولاً يملأ يديه ، ويشهد
له الناس بأنه أدركه وقنصه ، فانصرف إلى أنواع الحياة في الأرض
وأشكال المادة ، يعبث فيها ويدور حولها ويخرج أسرارها حتى « علم »
ثم أخذ يقلد ويبتكر .

وكما أن الأقدمين كانوا ينظرون إلى أعمال الطفولة وحب استطلاعها
الأشياء ، على أنها عبث ولعب لا طائل تحته .. كذلك نظراً أكثر الكهنة

إلى أعمال الرجال في المادة وتنويعها وملء الحياة بضجّاتها وأصواتها ، على أنها عبث ولعب لا يليق بمن يسير إلى الموت والنفاء . وكان المثل الأعلى للحياة الصالحة عندهم أن يطلق الناس أعمال الدنيا ، ويذهبوا إلى المعابد والمعاهد ، يتلون « الأوراد » ويفلسفون وينظمون الأشعار المتشائمة ، ولا يرفعون في الأرض حجراً على حجر ، فيكونون عنصراً مستهلكاً غير منتج ، يأخذون من الحياة أغذية وأعمالاً ، ولا يعطونها إلا أقوالاً وأشعاراً ، ويقفون في طريق تحقيق بعض الغايات الكبرى من خلق الإنسان .

هؤلاء لا تزال منهم بقايا كثيرة في الشرق ، وهم الذين جعلوا إنسان الشرق لا يزال أكثره كأكداس الحصيد وأهراء الغلال التي تترك في أما كنها حتى تقملها الآفات وينخر فيها السوس . . وهم بذلك يضيّعون على الإنسانية ثروات تحصل عليها من تشغيل أفكار هؤلاء الملايين وأيديهم . وهم بذلك يتركون الناس من غير تنسيق وتنظيم في الحشد والتعبئة للمعابد والمعاهد والمعامل والحقول والجيوش .

هؤلاء ينبغي أن يزيلوا عن عيونهم غشاوات القرون الأولى ، ويعدّوا أفكارهم على مقتضى ما توحىه سنن الله الدقيقة التي تجعل من تصرفات جميع قوانين الطبيعة في وقت واحد لحناً موسيقياً متسقاً يشترك في توقيعه كل شيء ، ويعلموا أن الكفر بعلوم الطبيعة والفسق عن نظمها ، كالكفر بالعقائد الصحيحة والفسق عن نظم الأخلاق .

إن الإيمان بالعلم وتنظيم الحياة الإنسانية بطرقه ، وإطلاق الأفكار فيه ، هو الأمر الواحد الذي ينظم الإنسانية جميعها ، وتلتقى عليه

بأفكارها وأيديها ، وقد جعلها تلمس عرشها المرّموق ، وتعرف دواتها
المأمولة في مستقبل الحياة .

ولكن أين « العصا السحرية » التي ستفعل في تعديل شهوات
الأمم وغرائزها وتعصباتها الذميمة ، بحيث تجتمع على خدمة العلم والحياة
بأفكارها وأيديها ؟

ذلك مايسأل عنه رجال التربية ، والمفكرون في الدين والاجتماع .
رجال التربية «فلاحو» حقول الطفولة : منطقة النمو الدائم و «عَلَب»
أسرار المستقبل .

ورجال الفكر رسامو المثل العليا ، القادرون على استدراج الناس
إليها وسجنهم فيها ذلك السجن المحبوب . .

ولكن هؤلاء وأولئك لا يزالون بعيدين عن مقاليد الحكم وتسلم
مقاود القطيع ، بينما مكانهم هناك لو صحت الأوضاع . ولا يزال محترفو
السياسة والدجاجلة بها ، المتخلفون عن بلوغ القمة في الفكر والخلق ،
هم الغالبين المتسلطين كما بينا سابقا .

وهؤلاء هم سر البلاء النازل الآن بالناس ، كما كانوا في القديم .

الباقى من صانع الحضارات الفانى !

اختزان المعانى الكبيرة — «العدسة» الخفية — التعجب مدخل
التعبد — التعبد هو الغاية

مالذى يبقى من الإنسان ابن الفناء صانع الحضارات ؟
أهو أن يصنع صوراً فكرية وحضارية ناتجة من مزاجه فكره
بالمادة ، ثم لاشيء وراء ذلك ؟
وأين محصول النفس من المعانى التى يدركها فتكون ذخيرته فى نعيم
الحياة أو جريرته فى شقاءها ؟
أمن المعانى الكبيرة التى يأنس بها الناس فى الحياة ثم يختزنونها فى
ألفاظ تُتلى وتُنشد ويصلى بها : كالإيمان . الحرية . المجد . النجاح .
السيادة . النبيل . المروءة . الحق . العدالة . الإخاء ، وهلم جرا ؟
وأين أضداد هذه المعانى الكبيرة من المعانى الحقيرة التى تلهب القلب
والضمير بسياطها الجارحة ، وتحملهما على الإدراك والعشق للحق والخير
والجمال ، والفرار من الباطل والشر والقببح ؟ فهى أيضاً عنصر يمد الحياة
بالفهم والإدراك لأسباب الفرار إلى عالم الحق والجمال .
إن المواد والمخلفات الحضارية المادية لابقاء لها ولا معنى ولا ذوق
إلا فى نفوس الخلف بعد السلف ، وهكذا ...
وحضارة أمة تزهر ثم تذوى فى يدها فتنتقل شعلتها إلى يد أمة غيرها
ثم تذوى وهكذا .

فأين المعاني العظيمة من هذه الحضارات العظيمة المتعاقبة ؟ هل فنيت
مع أهلها وانتهت ؟

وحضارة الحاضر التي بنيت على العلم الطبيعي الذي يستمد ثباته
ودوامه من ثبات الطبيعة ، ما بالها ؟ إنها قد أيقظت الإنسان للتاريخ يصنعه
ويحوطه ولا يتركه يضيع ، وأشعرته بمعان عميقة للخلود الذي يصبو إليه
ويتعلق بأسبابه ، وجعلته يفر من عوامل الفناء وأسباب الدثور ، ويرى أنها
لا تليق بهذا الجهد العظيم الرطب الذي يبذله .

وقد رأينا إمبراطورية كالبريطانية صاحبة يقظة حريصة على خلودها ،
مباعدة بينها وبين عوامل الفناء ، جالبة عوامل البقاء والنماء ، قد طال
عمرها حتى ضرب رقما قياسيا في التاريخ .

فهل يجوز أن يكون ذلك الأثر المادي الحضاري هو كل ما يبقى
من الإنسان ؟ إن هذا الأثر في عميق التفكير وحقيقة الأمر ، ما هو
إلا فقاعات على سطح محيط كبير ، حياتها وبريقها وانتفاخها وحجومها
وألوانها ما هي إلا صور من ضوء يشع برهة ثم يفنى في بحر الظلام الأبدى !
إذاً فما هذه الخديعة الكبرى التي تغشى على عين الإنسان وتجعله
يخال نفسه صورة من الكرة العالمية ، بل يخال الكرة العالمية صورة
من نفسه ؟ !

إنها في تلك « العدسة » الخفية التي في قلبه ، يزوي بها الله العالم في
ناظريه ، ويطويه بين حاجبيه !

والتفكير في هذا الشأن من حياة الإنسان يحملنا على أن نقول :

إننا نصنع هذا المتاع المادى الدقيق ، وهذا الجمال المؤقت الذى تحلم به
أرواحنا وتحققه فى المعانى والمرايع والأغاني وسائر المرتفعات واللذات ،
لكى نراه يفنى على رَغْمِنَا ، فيحملنا ذلك على التعلق بما يستطيع الله
مالك هذا الوجود أن يفعله من الجمال الدائم السرمدى الذى نشعر شعورا
خفيا عميقا أننا خلقنا له ، ونسير فى طريقه جماعة بعد جماعة ..

وما دام الإنسان استطاع أن يقيم لنفسه عوالم رائعة من الجمال المؤقت
فلا شك أن بارئه وبارىء الطبيعة يستطيع أن يبنى عوالم من الخلود
والجمال الدائم الذى يغازل أحلام الإنسان .. فإن جمجمة صغيرة ضئيلة
كالتى له ، استطاعت أن تصنع من المتاع والجمال ما يَرُوعُها ويحبب
إليها الاستمسك بهذه الحياة .. فكيف بالعقل المحيط ذى العلم الأوسع ،
والقدرة الفائقة ، والروح الأكبر ؟ !

حينئذ يسلمنا هذا الأمر إلى أن نقول : إن الجزء المعقول بقاؤه
من حياة هذا الإنسان الفانى مع ما يصنعه ، هو هذا الجانب الذى يختزن
المعاني العظيمة التى يتغنى بها ويعشقها فى حياته الدنيا — وقد يتعجل
الرحيل عن هذه الدار من أجلها ، ومن أجل شفاء نفسه من أضدادها ! —
ثم يتعجب منها ويشعر بها بعمق ولذة كريمة وأنس وإجلال . هو جانب التعبد .
وهو مفتاح الشعور بالدخول إلى رحاب الخلود فى هذا العالم الأكبر الخالد ...
وما عدا هذا الجانب فمحض له ومهين ؛ فإننا نذكر لكى نتعجب ... ونعيش
بالحس لكى نتعجب ... ونعمل فنمشى ونطير ونزحف ونصنع ، لكى نتعجب ..

نتعجب من الأسرار المودعة فينا وفي الكون الذي نعلم أننا غرباء عنه
راحلون منه بأجسامنا .. ونتعجب لكي ترسل كلمات الاستحسان والمسرة
والشكر لمن أدخلنا إلى هذا العالم العجيب .. فنقول لبارئته وبارئ
نفوسنا : ها نحن أولاء عبيدك الشاكرون المتعجبون من قدرتك وعلمك
الذين جعلنا فاهمين قادرين عالمين !

وتلك هي صفوة العبادة .

وليس ما يصنعه الله مباشرة في الطبيعة وفي النفس هو وحده الذي
يوجب التعجب والإيمان .. بل معه ما يصنعه الإنسان نفسه يضاف إلى
موجبات الإيمان .

وفناء ما صنعه بين أيدينا على رغمتنا ، باب عظيم من أبواب الإيمان ؛
فإن قدرة وعلمنا كالذين لنا لا يصح أن يفنى صاحبهما فناء إلى غير رجعة
ومصير أعظم .. كلا لا يجوز !

والدليل على ذلك هو استفتاء الشعور المرهف بالحياة والتعلق المشبوب
بها . ودع عنك البراهين الأخرى ...

فالتعبد هو ثمرة حياة الإنسان صانع الحضارات الفاني .. الخالد !

إلى العقل الغربي

من الروح الشرقي

إنسان غير مفهوم — أوروبا المعمرة المدمرة — نكسة — خديعة
ذهبت إلى جهنم — نغمات وترتيبات جديدة — في الغربي سماء غني
عن الله — العقل الغربي المغرور — تناقض بين حياة الأرواح وحياة
الأجسام — من الطبيب؟ — قانون طبيعي ينتقم لنفسه — عبقرية المادة
وعبقرية الروح — الذكاء البطر الجوح — إلى أحضان الأم الكبرى!

الغربي إنسان غير مفهوم! فقد كفر الأورو بيون بالحياة في هذه الحرب
بعد أن جنُّوا بها جنوناً في وقت السلم، وهم لم يذكروا السلم في زمن
الحرب، كما أنهم لم يذكروا الحرب في فترة السلم.

لم يتخذوا من قانوني الحياة والموت حداً وسطاً يقيمون عليه حياتهم
وما استُخلفوا عليه من حياة الآخرين، فيعيشوا على كفتي ميزان متعادلتين
آخذين حظاً صالحاً يعدل السلام ويعدّل الحرب.

هم فجروا في فترة السلم: فتشهروا، وكفروا، وعبدوا الهوى، واحتقروا
الضعيف، وشرهوا المال، وغصبوه من أفواه الآخرين بالحديد والنار،
وخانوا أمانة الاستخلاف على الأرض، وتنازعوا على الطعام الكثير كما
يتنازع الأطفال غير المهذبين!

وهم فجروا في هذه الحرب، فلم يراعوا حرمة الحياة الإنسانية التي

قدستها الأجيال : فصبوا العذاب على الأطفال والنساء والمستضعفين
والمرضى وسكان المعاهد والمعابد المسالمين ، وحرقوا الأقوات والأرزاق
والمأوى ... فحياتهم لا تحتمل ولا تستحق العمل بعد هذه الحرب إذا
أصروا على أن يلجأوا لحرب أخرى بهذه الكيفية النكراء التي تدمر ما
عمرُوا وعمرَ الناس ...

من بصدق أن أوروبا البانية العالمة المعمرة المحترمة العابدة للحياة ،
الساعية الجاهدة في سبيل الكشف والمال والاختراع ، الباحثة المنقبة عن
خبايا الأرض وركازها ، الرائدة الكاشفة عن مجاهلها ، المبشرة بالمثل
العليا بين الأقوام المتخلفة ، القاضية على تجارة الرقيق ، الحاملة للتجارات
والمعلومات ، الواصلة بين أقطاب الأرض صلة اللاسلكى والراديو
والتلفزيون ، المرسلة « المرسلين » لهداية الوثنيين ، الدارسة للأشياء
والأجناس ... هي هذه الخربة المدرة الباطشة بطش النمر والأسود ،
القاسية على النساء والأطفال والضعفاء ، المفتنة في وسائل الآلام ، الهدامة
للدور ، الحيلة عمار المدن إلى خراب القبور ؟ !

الأجسام العاجية الجميلة تذوب وتصهر وتسحق عظامها وجماجمها
تحت أثقال الحديد والجلاميد ... !
الوجوه المشرقة البيضاء ، ذات العيون الزرقاء والشعور الذهبية ،
ذهبت قرابين تأكلها النار باختيارها !
مسكينة ! طافت في جميع بقاع الأرض تجمع الذهب الأصفر « والذهب

الأسود « والحديد ، ثم أوقدت على الجميع في النار واحترقت معه !
جمعتة في أنانية وجشع واعتزاز واعتزام ... لا لئلا البطون الفارغة
وتكسو الأجسام العارية ، وتعين أبناء الحياة على نوائب الحياة ، ولكن
لئلا أفواه المدافع وبطون المقابر ... !

خلاصة الإنسانية العاملة المجاهدة المتاجرة المحاربة العاملة ، تحترق
الآن على مشهد من الزوج والإسكيمو !

الحياة تتحطم بأيدي بنائها ومقيمى صروحها العالية ، وجامعى مواد
بنائها من لحومهم وعظامهم ودمائهم وذهبهم وحديدهم ونور عيونهم في
المعامل والمعاهد !

العادة اللعوب الفاتنة ، ذات المساحيق والأصبغ والعطور والأزهار
واللؤلؤ والديباج « والمانوكير » ، تتكشف عن العجوز الشوهاء الدرداء
المریضة الرسحاء ، ساكنة الكهوف والغارات ، الضاربة على الدف
لشن الغارات !

الأم العاقلة العاملة ، تصيبها جنّة وجهالة فتأكل بناتها وبنيتها !
لندن وبرلين يصبّ عليهما الخراب والدمار صبّاً فيباد ما فيهما من
صراكن نمو الحياة و« غلب » أسرارها « وققام » أجنّتها وولاندها ! ...
والإنسانية الجاهلة الغافلة المقيمة بالأكوخ في القارة السوداء وأواسط
الثبّت ترى هذه الإنسانية العاملة المدبرة الجميلة تشن الغارة على الحياة
بالزلازل والبراكين والصواعق الصناعية ... فتحمد الله على الحياة في الغابات
مع الأسود والقروذ التي لا تلتقم منها إلا أفراداً !

الحياة تصاب بنكسة حادة يا أطباء الحياة ... فهل من دواء لها فيما
صنعتم من العقاقير والأقرباذين؟! !

كنا أو شكنا أن نعبد الدنيا ممثلة في لندن وباريس وبرلين ،
وننسى نهاية رحلتنا فيها غرباء عابري سبيل ، لانملك المكث ولا البقاء ،
ونخضع لقوانين الزوال والفتناء ، ويدور الفلك بنا دورات حتمية تُشِبُّ
الطفل وتشيب الصغير وتفنى الكبير وتلقى بنا إلى الجهول ..

وكنا أو شكنا أن نظن تلك الأجسام الأوروبية القوية الجميلة الرقيقة
الرشيقة الذكية هي الإنسان المقصود بالحياة .. وأما من عداها « فحيوانات
بشرية ! » — كما تعبر الهتارية — ومخلوقات تكملية خادمة لها ، تعيش
على هامشها ، وتسير في خدمتها ، وقبَّح اعتقادنا في أنفسنا تبعاً لذلك ،
حتى تركنا لها الأرض طوعاً وكرهاً ، وخلينا لها مكاننا من الدنيا ...

وكنا اعتقدنا أن «عناوين» النظم الأوربية ثابتة لا تتزلزل ، ونظمها
البارعة عزيزة على أصحابها ، وأن الإنسان الأوروبي مقدس لدى نفسه
وأُمَّه ، فلا تحطيم لدنياه ، ولا نسف لنظم حياته ، ولا تمثيل به ، ولا سحق
ولا نثر لأشلائه ...

وكنا أو شكنا أن نرى العالم المادى الدقيق ، الذى صار التنويع فيه
والتشكيل والتلوين والدقة والتركيب كأنه دنيا أخرى من مخلوقات الحديد
والصلب والخشب وسائر المواد الجامدة ، منفصلة عن روح الحياة فى
الإنسان ، فأخذنا نعيش بها عيشة آلية صخابة بدون وعى ووداعة وإحساس

من الروح ويقظة المصير المحتوم !

ولكن هذه الحرب أخلفت تلك الظنون الواهمة ، وصححت أفهامنا
الفاسدة ، وكشفت عن أبصارنا غطاء التمويه وسحر التخجيل ، فإذا بنا
نعود ، وإذا بالأوربيين أنفسهم يعودون معنا إلى المعاني الأزلية الخالدة
التي بزغت من قلوب أنبيائنا ، واستنزلوها من السماء بالإخلاص والبكاء لرب
الحياة الذي وضع الإنسان فيها موضعه بين الأهوال والأغاز والأسرار ...
وإذا المثل العليا يعود ذكرها إلى الألسنة والأقلام ، يرددها الساسة
وسماسرة المال ! ويخطبون فيها خطابة الأنبياء والمرسلين بين عبّاد الأوثان
بالبمان الساحر والحجج الأخاذة ، والإذاعة العريضة الواسعة .

وإذا الترتيلات بالحق والسلام والعدالة ، تنبعث من جميع بقاع
الأرض وتنطلق بها حناجر الناس جميعاً ، وتزيد كل أمة في طنبورها نعمة ...
وإذا النظم الأوروبية الظالمة الجائرة المتحجرة تذوب تحت حرارة
أنفاس الدعاة إلى السلام والحق والعدالة ، وتحت نيران هذه الحرب التي
انتقمت شر نعمة من طغيان السياسة والرأسمالية والدعوات الهدامة .

وإذا بالروح الإنسانية الوديدة الرحيمة المؤمنة بالله وبالإنسانية تعود
في جو مخضّب بالدماء ، مُنددّى بالدموع ، مطرّز بالآلام ، إلى القلوب
المهجورة القاسية الكافرة ، كما يعود طير شارّد تائه إلى عشه المهجور ،
ومكان حنينه وأشواقه ، فيراه خرباً منشور الأعواد ، عبثت به الرياح ،
وعششت فيه العناكب ... فما يزال يضمّ عوداً إلى عود وورقة إلى ورقة

ويرفرف عليه بجفاحيه ، حتى يطرد عنه أنفاس السوء وأوساخ الحشرات ،
ثم يعمره بالرحمة والحب والحنين ...

وفي هيئة أكثر الإنسان الأوروبي الحالى وسلوكه سمات غنى
عن الله ، وقسوة على عياله الضعفاء ، وتكبر على الفكر فيه ، ونسيان
ذكرة وقت الأعمال والاحتياجات ، وجحود لتدخله في الأمور . كأن
هذا الإنسان مخلوق هكذا بدون خالق ، أو كأنه خلق نفسه ، وكأن
هذه الدنيا ذات الرحاب الواسعة ، والقوى الجبارة التي ليس للإنسان فيها
من شيء ، خلقت بيده ، فهي مملوكة له ، لا تثير في نفسه تطلعا وخوفا من
القوة المسيطرة عليها !

وقد غرهم أن ذكاهم ضمن لهم تحقيق بعض الآمال والمطالب في
بيئتهم المحدودة : الأرض ، تلك الذرة الصغيرة في الكون الواسع ..
ومن العجيب أن كثيراً منهم وهم في نيران هذه الحرب وأهوالها ،
لا يذكرون الله كثيراً ، ولا يتطلعون إليه وفي أعينهم دموع ، وفي قلوبهم
قذائف ونصال !

إن كثيرين منهم جحدوا الله ونسوه ، ونسوا أننا لم نخلق إلا لنعرفه
ونعرف شئونه الكبرى العظيمة في الطبيعة ، فشغلنا عنه بأنفسنا
وشئوننا التافهة .

وإنك لتعجب كيف يأتي الغرور إلى عقول بعض العلماء من الغربيين
حين يخيل إليهم أن علمهم ميزان يزنون به علم الله .. مع أن علمهم قد أخذوه من

بعض صنع الله . . !

ولكن ذوى الروح الدينية الشرقية أيقنوا مبدئياً أن ذات الله
أعظم وأوسع مما توحيه الطبيعة وعلومها . . ثم قالوا إن الطبيعة فيض من
الله ، وإنها قاصرة عما عنده تعالى من الكمال والعلوم ، وإنه إن شاء
خلق غيرها أعجب منها .

فإدراك الله يعتمد على قوة الحكم والإدراك النفسى ، ولذلك
لا يكون خاضعاً للعالم المادى وحده فى صلب القضية ؛ وإنما فى حواشيها :
أى من ناحية زيادة الاطلاع على دقائق فعله فى الطبيعة ، فيزيد إعجابنا
بصفات علمه وقدرته .

فلنذكر دائماً حينما نكون أمام منظر ما ، أو مع إحساس نفسى من
عَلَوَات الدنيا وسفالاتها ، أن عين الله وفكره معنا ، وأنه يرى ويسمع
ما نرى وما نسمع ، وأن علمه وقدرته بما نعلم وما نقدر على أن نعلمه ، سابقان
على علمنا وقدرتنا .

لقد بنى الغربيون حياتهم على مناعة الأجسام وحدها من أمراضها ،
ولم يبحثوا عن وسائل مناعة الأرواح من آفاتها ، فأخذوا الحياة من جانباها
الضعيف ، وتركوا الجانب الآخر . وقوانين الطبيعة لا ترحم من يخالفها
ولا تحاييه ، بل تدافع عن وجودها وتهدم من يحاول هدمها .
فمن يدع ثغرة فى بناء الحياة من غير سدها ، أو شك أن يدخل منها

إلى البناء ما يأتى عليه من القواعد ، ويجعله خاوياً على عروشه .
وكان جديراً بالإنسان الأوربي الذى يعرف حجم الميكروب الصغير
وخطورة آثاره ، فيحترس منه ويقيم الأرصاد والجواسيس خشية اقتحامه
عليه ثغرة من ثغرات جسمه ، أن يعرف أن للحياة الروحية جراثيمها
الفتاكة ، فيجاهد لكفاحها وقتلها كما يفعل بأخواتها جراثيم الأجسام ،
حتى تسلم جميع قواعد بناء الحياة من أسباب الانهيار .

ولكنه لم يعرف بعد الجراثيم الروحية ، ولا يزال روحه يعيش
فى عصر التطبيب بالخرافات ، كما كان يعيش فى عصر الخرافات فى
طب الأجسام ...

ولا يزال يسخر من أطباء الأرواح وعلاجاتهم ، كما كان يسخر من
أطباء الأجسام حين يفاجئونه بكشف جديد لمرض قديم .
فالى أن يؤمن بما يصنع له طب الأرواح ويعمل به ، سيمظل شقيماً
بتلك الأمراض التى هى أشد فتكاً من الطاعون والسل والجدري وغيرها
من الأمراض التى تهدم الإنسان وحده ، ولا تهدم معه تاريخه ومبادئه
ومبانيه وأمواله .

فمن أعراض أمراض الروح ، تلك القنابل والصواعق والحرائق
التي تترك المدن التي صبت فيها جداول المدنية والعلوم ، والتقت فيها
الحضارات وثمار الجهود المشتركة ، خراباً ودماراً كأن لم تغن بالأمس .
ولكن ينبغي له قبل ذلك أن يخرج من بين أطباء الأرواح أولئك
الدجالين المشعوذين ، والأغبياء المحدودين الذين قديقتلون النفوس بالعلاج

الخاطيء ، أو يعلقونها دون رحمة الله ، أو يصيدونها بعاهات ، أو يعالجونها بالخرافات والشعوذة وأسباب الضلال ، كما فعل بأشياءهم الذين كانوا يندسّون بين أطباء الأجسام من قبل ، حتى يستقيم علاجه على أيدي الإخصائيين الذين خلقهم الله لقيادة النفوس بالسلوك والمعاملة والبيان الواضح والفكر المضيء المنير .

أولئك الأوصياء لا يلزم أن تكون منهم في الأمم كثيرة ، بل ينبغي أن يكونوا قلة ؛ حتى لا تصيبهم مصائب الزحام على الأرزاق والوظائف . ويجب ألا يرتفعوا إلى المناصب بالوساطات والشفاعات و«الشهادات» بل بأنفسهم وما فيهم من خلق الوصاية الرشيدة والسياسة الحكيمة ، والقدرة على إدراك الداء في كل نفس ، ووصف العلاج .

إن رجل الروح والاجتماع وحده هو الذي يوجه المجتمع ، فواجبه أن يأخذ بمقاليد العلوم وفنون الحياة جميعها ، ليدخل على الناس بالعضة والتذكير من آفاق كل نفس ، علماً منه أن كل نفس تأخذ منطقتها وأحكامها من الأفق الذي نشأت فيه وارتضته لحياتها .

ولذلك كانت مهمة رجال الروح والاجتماع أعظم من مهام غيرهم ، ولا عجب ؛ فهم الأوصياء على القطيع لو عرف مكانهم ... ولذلك أتمنى أن يكونوا دائماً أذكي الناس وأرحبهم قدرة وإطلاعا .

وينبغي أن يدقق في اختيارهم غاية التدقيق ، وأن تكون وسائل العلاج هي ما صلح من موارث القديم ، وأصلح الآراء في علم النفس الحديث . أي أن يكون علم النفس هو وسيلة التربية الروحية والدعوة إليها ، كما صار علم وظائف الأعضاء وعلم الأغذية أساس الطب الجسدي

الحديث . وعلم النفس أوشك أن يكون من الدقة والصحة بحيث يستطيع أن يضع الإنسان في المحابير والمسابير ، وقيس ما فيه بأرقام !
إن قوانين الروح قد غضبت وانتقمت لنفسها شر نعمة من الإنسان الذي لم يقم لها بعد وزنا . وإنه لجهل وسفه ألا يفطن الإنسان الأوربي بعد إلى أن يحمي نفسه من غضبها ونقمتها كما يحتمي من غضب قوانين صحة الأجسام .

إنه يخشى أن يمد يده في النار لئلا تحرق ، أو يلقى نفسه في الماء لئلا يغرق ، أو يقف في طريق قاطرة لئلا يسحق ... ولكنه يرضى لنفسه أن يبخل فيسرق ، وأن يشتره فيسكره ، وأن يستبد فيحارب ؛ وأن يُخَلِّ موازين العدل فتفسد حياته بفساد حياة الآخرين ، وأن يترك الناس إخوانه جاهلين مرضى الأجسام والنفوس فيمرضوه ويشتقوا حياتهم بشقائمهم ..
كلمة يجب أن تعلم وتكرر دائماً أمام الدولة وأمام الفرد ، وهي :
إن الدولة كأن عضو واحد كالجسم الواحد ذي الروح الواحد ..
فإذا سمح لشئ منه ، ولو كان ظفراً ، أو منبت شعرة ، أو خطرة نفس ، أن يدخله الفساد ، فسيلحق الجسم كله — وأنت خلية فيه — آثار ذلك الفساد وآلامه .

فاحذر أن يمرض أخوك أو خادمك ، حتى لا تنتقل عدواه إليك ،
واشترك في إطفاء الحريق في بيت جارك ، قبل أن تمتد النار إلى دارك !

الغربيون قدموا لنا عبقرية المادة ونود أن نقدم لهم عبقرية الروح ،
وأن نريح أرواحهم كما أراحوا أجسامنا .

إنهم استغنوا بذكائهم عما وراء الطبيعة ، وقد كفاهم ذكاؤهم تدبير
أمورهم كلها ، فيما يخيل إليهم ، مع أن الواقع أنهم في شَبَكَةِ الأقدار العليا
والتدبير الشامل لحياة الأرض والسكون . والرجل الذكي غني بالحيل
وتجدد الأفكار . والغني يبعث دائماً على الطغيان . ومن هنا أتى الغربيون
ودخلت عليهم نكبات الحياة لأنهم اعتمدوا على غنى ذكائهم وحده .
وحين يستغنى الطفل بذكائه وقدرته عن ندى أمه ورعايتها ، ويعلو
مستواه البدني والعقلي عن مستواها ، فذلك عهد ابتداء عقوقه إياها إذا
لم يكن ذا ذخيرة موفورة من الإدراك والحب والرحمة والأدب النفسي ،
وإذا كان ينسى أنه قطعة قُدت من جسمها وقلبها ، وأنها الوَشِيحة الوثيقة
بينه وبين أرومة الحياة والطبيعة .

وكذلك ينسى الإنسان الذكي عجزه أمام قهر رب الطبيعة ، ويستغنى
بذكائه عن الاستمداد منه والاستيحاء منها ، فيصير مخلوقاً يكاد
يكون لاصلةً بينه وبين مافي الطبيعة من موجودات تسير طائفة
بالإلهام والتوجيه .

فهل نترك الغربيين يذهبون بأرواحنا وأرواحهم في أودية بعيدة عن
الرحمة والعدالة والأشواق إلى المجهول والبحث عن الله ذي الجلال ؟!
أنتركها ونتركهم للحديد البليد القاسي يطبعها بطابعه ، ويوحى إليها
ببأسه سياسة البطش والطغيان ، ويشغلها بضجته المنكرة عن همسات
القلوب وأصوات الضمائر ؟

إننا إن تركناهم وتبعناهم على الخير والشر ، فسوف نكون فرأسهم

وجَزَرَ سيوفهم ، وطَحِين طواحينهم الحديدية الحمراء !
فلنذكّرهم بمبادئ الطبيعة أمنا وأمهم ! تلك المبادئ التي فيها
من منطق الوجدان أكثر مما فيها من الذكاء الجامح وقوة الاختيار من
غير ضابط من هدى الروح .

وإن الطبيعة لتذكر أبناءها دائماً بوصايا الحق والعدل ، كما تذكر
الأم البسيطة أبناءها الأذكى بوصاياها وعواطفها التي بنت عليها عُشها .
فهما اختلفت أفكار الناس وأخلاقهم فإنهم يتوحدون حين يقفون بين
يدى الطبيعة ، ويشعرون بشعور واحد فيه صدق الفطرة واعتدالها .

ومبادئ الأمومة ، وجوؤها ، وبساطتها ، وعدم تكلفها ، والحنين
إليها ، والشوق إلى مهدها ، يجب ألا تنسى ؛ لكي يعيش الإنسان باراً بريئاً
عامر القلب بالعواطف الشريفة ذات التأثير الكريم في خدمة الحياة .
وكما يوصف الرجل الذي يهجر أمه بالعقوق واللؤم والندالة مهما كانت
هي بسيطة جاهلة ، ومهما كان هو فائق العقل واسع العلم عريض الجاه ،
كذلك يوصف الرجل بالعقوق حين يهجر أحضان الطبيعة : تلك الأم
الكبرى ، أو حين يؤذى أو يهمل إخوته منها !

أما بعد...

٥

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY

متى النور يا ظلّمات !

مع النور الصادق — الظلام الغاسل من النور الكاذب — الفتنة بعقريات
الظلام — تفاؤل وأسبابه — ابتداء دورة زمنية — تأويلات —
الكلمات المحراء تهيج القطيع الوديع — مات الميت فليحي الحي ! —
تدريب عنيف لمستقبل مجهول — الحياة تنقل أقدامها إلى المجاهل —
لندن هدمها الإنجليز لا الألمان ! — هل وعى الإنجليز درس ؟ — هل
ينسى الأمريكان كما نسوا من قبل ؟ — رسالة الأمم الناطقة بالإنجليزية —
رسالة مدخرة للعرب أمة المستقبل

«أما بعد» فقد أطبق الظلام في هذا الحرب على جميع آفاق الأرض ...
واختفى النور الصنّاعي الذي كانت الإنسانية تتسلق عليه إلى سُبُحات الجمال
الموقوت والفن الفاني والطائفة الكاذبة ... وارتدت الأحلام السعيدة
إلى واقع الشجن والألم والانتكاس ، فعانت أشباح الكهوف والمغارات ،
وصارت قلوب بني آدم أوكاراً مخلوقات شنيعة شوهاء ، هُنَّ بنات الظلام
والغدر والخيانة والجريمة والخديعة !

ولم يبق للإنسانية غير ينابيع نور الطبيعة تستصيحُ به ... لم يبق
لعيونها غير الشمس والقمر والنجوم ... ولم يبق لقلوبها غير نور «النور»
قبل الأزمنة والدهور ... ولم يبق لأفكارها غير مبادئ الحق الواضح
في الطبيعة .

أما الفلسفات والآراء والنظريات البرّاقة التي رددتها منابر المعاهد

والجامع ومجالس الترف العقلي ، فقد اختفت مع اختفاء الأنوار الصناعية التي أوقدتها الأيدي المظلمة النجسة التي لم تتطهر بنور الله ، وقد طارت بكتبتها وسجلاتها قذائف الحديد والنار ...

تُرى : هل تكون أمواج هذا الظلام طوفاناً يغسل الأرض من ذلك النور الصناعي المدّاس المدخول الذي لم يجر من منابع الحب ويد الله ؟ وإنما من يد الشيطان الذي طمس وجه الحياة ، وجعلها في نظر الأحياء ليست أكثر من اقتناء الفحم الأسود و « الفحم الأبيض » والذهب الأصفر و « الذهب الأسود » ؛ ثم أغراهم بذلك وجعلهم وراءه يتراكمضون تراكمض الذئاب بالأظفار والأنياب في عصر العجز والقصور ، وبالقياصِل والمناصِل في بدء عصر التغلب والقدرة ، ثم بالطائرات والغائصات والبارجات والجرارات في عصر بلوغ الأشدّ واكتمال السلطان ! ؟

أم أن القلب البشري لا يزال ولن يزال يعبد الظلام ويبقى إليه ويأنس بسكانه ، ويرى في عالمه عبقریات يجب الرجوع إليها على فترات من الزمان ؟ ولن تزال وثنيات الجنس ، وخيلاء القومية وعبادة البطش وشهوات الاقتناء ، عقائد مقدسة يُفلسف لها وتصطنع في حبا ترانيم وأناشيد ، وتقدم لمذابحها قرابين من اللحوم البشرية ، ولجامرها بخور وعطور من الأموال والمقتنيات ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ؟

أما أنا فقلبي تغمره موجة من التفاؤل الأكيد حول مستقبل سعيد قريب للإنسان . وظنى أن هذه الظلمات تتمخض عن فجر أبلج وضاح ، يغمر آفاق الأرض غمراً طويلاً كما غمرت هذه الظلمات طويلاً ... لأن

قواد المعسكرين الهائلين المتحاربين لا ينفكون يرددون على أسماع الأمم
التي في أيديهم أزمته ومقاليدها؛ أنهم يحاربون في سبيل خلق عالم إنساني
عادل سعيد هانيء بعد الحرب؛ فإذا حدثت القواد نفوسهم أن يخيسوا
بمهودهم وينقضوها، فإن المجهودين المنهوكين من جنود الحرب وعمالها
ومنكوبيها - وف ينكلون بهم تنكيلاً، سواء أ كانوا منصورين
أم مخذولين، لأن الجرائم التي ارتكبت في هذه الحرب لا تغتفرها الشعوب
إلا إذا رأت أنها أسلمت الناس إلى عالم أسعد وأكمل من العالم الحالي،
ولأن الحياة الاجتماعية لا تتحمل حرباً كهذه الحرب التي تدمر الإنسان
مع ما أقامه من المدن والأعمال ومخلفات التاريخ ومقدسات العقائد والوصايا
الخلقية بالأطفال والعجزة والشيوخ والنساء... ولأن حرباً بعد هذه الحرب
لا بد أن تكون أدهى منها وأمر، بحيث تسحق «براعم» الحياة المدنية
وأصولها سحقاً لا يبقى ولا يذر، بما وصل إليه هذا الإنسان العجيب
وما سيصل إليه في فترة السلم التي تعقب هذه الحرب.

* * *

ويخطيء من يظن هذه الحرب صورة من ذلك العراك التقليدي بين
بني البشر، وأنها ثورة غرائز وحب غلبة بين مجموعة ومجموعة من أم
تحب الحرب للحرب، وتمجدها لا شيء إلا اندفاعاً وراء تلك الغرائز
والحركات التاريخية الموروثة... إن من يظن ذلك ذو نظرة متخلفة،
لاتزال تعيش في حدود النظرات الأولى للإنسان.

إن هذه الملهمة الكبرى تحول عميق أصيل عظيم في توجيه الحياة.

الحياة الخاصة للأمة الواحدة ، والحياة العامة للأمم جميعاً ... فلنتيقظ لهذا
ولنتؤمن به ، ولنعمل له .

وإن القدر يؤذن بميلاد حياة جديدة ، وابتداء دورة زمنية بعقل
الإنسان وقلبه وجسمه بعد هذه الحرب الحطمة الضروس التي
تهدم مثل العالم القديم الضيقة بمثلها وأفكارها الحرة ، كما تهدم مبانيه
ومخلفاته بالديناميت .

وهاهي ذى مواكبها ومراكبها وجراراتها العنيفة وزواحفها وطائراتها
القاذفة والمنقضة والمترنحة والشراعية والمابطة ، وصواريخها وأبواقها وأنفاسها
في الأثير ، وعيونها الكشافة ، وحشود جيوشها الآخذة من شمال الأرض
وجنوبها وشرقها وغربها في قاراتها الخمس وبحارها السبعة ، ومن وراء كل
أولئك عقول جبارتها وأساطين علمائها ، ومعاملها الساهرة ومناجمها
الحافرة ، ومحادثاتها السرية والجهرية ، ومؤامراتها والدماء والأرواح المبذولة
فيها من الجيوش البيضاء والسوداء والصفراء والحمراء ، والعروش المقوّضة
والصوالج والمقاليد الحطمة ، والحديث عنها بكل لسان ، وبين كل قبيل
من المتحضرين والهمج .

ألا إن الحياة تنقل أقدامها بهذه الحرب إلى الجاهل ، حينما رأت أن
كثيراً من بنيها لم ينهضوا بعد من سراقدهم في الكهوف والغابات لمشاهدة
مواكبها الحديثة التي دقت نواقيسها في الآفاق ، ولم يشتركوا في حمل قوائم
عرشها العظيم الذي من لم يره ويدرك أسراره ، لا يمكن أن يقال عنه إنه
ابن زمانه ، وإنه حقق الغاية المنشودة من إخراجه للحياة في زمن بعينه .

ولمآرات أن نورها في دَور السلام والاستقرار استأثر به جماعة من الأوصياء الأنانيين ، وتركوا غيرهم من القاصرين يخوضون في الظلام والجهل ، حوت ذلك النور إلى شعل ذات لهب وحريق يأكل هذه الصدور الأثرية الأنانية التي ما عرفت قصد الحياة من وضع مصابيح النور في أيديها وخانت أمانات الاستخلاف ...

فمن الذي لا يستيقظ ويتنبه بعد كل هذه الضجة الفكرة ، ويسرع إلى موكب الحياة العظيم بالجسم الخفيف القوى الصحيح ، والفكر اللطيف اللامع العالم ، والقلب المؤمن العارف الحامل لأمانات الحياة ؟ !

* * *

وإذا أعرضت الإنسانية ونسيت آلامها الحاضرة وبؤسها وشقاءها بهذه الحرب ، وتركت الأنظمة الجائرة الغاشمة المغلوطة تتحكم فيها ، فويل لهاثم ويل لها ! وويل للذين يقودونها ! وتعمساً للمكتوبين بنار الحرب من العمال والصناع والجنود إن لم يقفوا في وجه اللاعبين بالشعوب !
ما أجمل إخاء العالم الإنساني ! وما أقرب به في القلوب البريئة من أكثر الناس ! لولا الذين يُؤرثون في صدورهم نار الحرب والحقد ببعض الأناشيد وإثارة الذكريات الجاهلية ، والخيلاء العسكرية ، والألوان الدموية المهيجة !

إن الثيران تظل هادئة مستأنسة ، حتى يثيرها مثير باللون الأحمر فيحوطها إلى وحوش فاتكة .

وكذلك قطعان ابن آدم ، تريد الهدوء والاستئناس ، حتى يثيرها مثير

بالكلمات الحمراء ، والحماس الكاذب ، وحب الشهرة عن طريق الحرب
والتخريب حين لا يوجد مجال لبعض الرجال للشهرة عن طريق السلم
والعمران وإضافة شيء إلى بناء الحياة .

* * *

وما أعظم خسارة الإنسانية في أبناء السلم الذين ذهبوا في ضحايا
هذه الحرب !

إنهم إنسانية عالمة عاملة مدربة ماهرة ، كانت قد نجت من عوامل
الموت والجهل والجفوة ، وتعبت في تربيتها ثقافات السلام التي استحدثت
بعد الحرب العظمى الماضية .

إنهم ثمار كبيرة نمت في جمال وصحة ، ولكنهم الآن يموتون في جفاف
الصحارى وزمهرير الثلوج ، وعلى أذرع الموج الفاجر والهواء المخلخل ،
وتحت أثقال الحديد ، وبين صعق القذائف ! وهكذا يذهبون طعمة لوحوش
الفلوات وأسماك البحار ، وتتساقط أعضاؤهم بين ركام الثلوج ، كأنهم
عصف ما كول أو هباء منثور .

فما أعظم خسارة السلم فيهم بعد انتهاء الحرب ، حين تفتقد العناصر
العالمة العاملة الفتيمة فلا توجد إلا بعد حين !

ولكنهم قربان كان لابد من تقديمه في سبيل مطلب عظيم !
وقد مات الميت فليحي الحى !

* * *

وما أعظم ما يحتمل أعصاب البشر ! إنهم برهنوا على أن أرواحهم

أقوى من الفولاذ والديناميت ؛ إذ رضوا أن يَعدُوا ويرُوحوا على مواقع
هذا الموت الفظيع والعذاب الوجيع ، وهم مع ذلك يطيعون ويُشِدون ...
وإذ رضوا أن تهدم ديارهم وأموالهم ، وتنسف أطفالهم وحبيباتهم .
ذلك تحرر وانطلاق في سبيل العزة وصيانة العقائد .

أين صور الأهوال ووقعها في نفوس الناس قديما ؟ من كان يظن أن
يعيش فترة ينتظر فيها نزول الصواعق والنواصف كل لحظة من السماء ،
وهو مع ذلك يأكل ويُبَاعِل ويرقص ويغنى ويقتنى الأموال وينشد
الرقاء والأطفال ؟ !

من كان يظن أن يفعل الناس هذا وهم في ساحات هذه القيامة ؟ !
ما أوثق مار بط الله الإنسان بالأرض !

هذه النفس البشرية أقوى وأبقى من هذه الأهوال ؛ لأنها هي التي
صنعتها ولذلك لا تخشاها .

ألا يجوز أن يكون هذا الاحتمال الصابر الذي بدا من النفوس البشرية
تحت آلام النار والحديد ، تدريياً لها من الأقدار العليا ، وإعداداً لمستقبل
مجهول ستحتتمل فيه آلام اختراق الحجب الكثيفة التي تحول بينها وبين
علم الكثير من غيب السموات والأرض ؟ !

ألا يجوز أن يكون هذا التسابق العنيف بين الدول المتحاربة في
اختزال الأبعاد والمسافات واقتحام العقبات ، إنما هو حَبْوٌ على عتبات باب
من الانطلاق والتحرر ؟

ألا إنها الطبيعة الجامدة الميتة تلبس هذه الأجساد الحية النائرة المترعة

بالحياة المتجددة ، الآخذة من موارد علم الله وقوته وقدرته !
ألا إنها القوى التي طال سجنها وكُمُوتها في صدر الأرض ، وجدت
سبيلها إلى الانطلاق والظهور على يد الابن البكر للأرض !
ألا إنها جنٌ خفية تركب سراكبها وتدافع منطلقاً من سجونها
في التراب ! .

أطلقها يد الإنسان الذي لا يزال ذاهلاً عما يصنع ، ذهول النحل عما
تمزج ، أو دودة القز عما تنسج !

هذه الحرب عملية هدم ماعلى الأرض وما في نفس الإنسان ليحدث
الله بعد ذلك أموراً ... وقد غمرت موجتها كل البقاع . استيقظ على
قوارعها سكان خط الاستواء في مجاهل القارة السوداء ، وسكان الأراضي
الثلجية البيضاء وسكان ما بينهما ، وسكان الجزر النائية المنشورة في المحيطات ،
وامتزجت منهم جميعاً في جميع البقاع مجموعتان من الجيوش تقاتل كل منهما
في سبيل غاية واحدة .

وإن الأقدار تحررهم من التاريخ السيء و « تصفي » ميراث
الشراسة والحقد .

فهذه آثار لندن العزيزة على أهلها تهدم ، هدمها الإنجليز لا الألمان !
تحرروا من حبها وقدموها دون حُرِّيَّة نفوسهم وعقائدهم في الحياة . ولعلمهم
قد تذكروا بعد أن خَوَّتْ مدينتهم على عروشها أن النفس هي الباقية ،
أو هي الجديرة بمرص المرء على بقائها سالمة كريمة ، وما عداها ففداء
لها . وتلك حقيقة من حقائق الإيمان كان الإنجليز قد أوشكوا أن يفقدوها
حينما تدفقت عليهم سيول الأموال من بقاع الإمبراطورية قرونًا طويلة .

واعلمهم تذكروا كذلك أن حرية كل شعب خاضع لهم يجب أن تكون
أعز عليه من كل شيء بعد أن هددت حريتهم من عدو جبار، وكانوا
قد نسوا ذلك أيضاً في تلك الفترة الطويلة التي حكموا فيها أمماً ولم تحكمهم
أمة. ولعله يكون لعلمهم وتذكركم هاتين الحقيقتين من حقائق الإيمان،
أكبر الأثر في عملهم على إقامة عالم سعيد على أنقاض القديم. وإذا نسي
الإنجليز أو تناسوا تلك الحقائق بعد هذه الحرب، فيرجو العالم ألا ينسى
الأمريكان الذين كانوا بنبجوة من الحروب الحديثة وويلاتها بعد أن
تحرروا من وثنيات الأجناس والدماء المختلفة، ونعرات القوميات المفرقة،
وسُعَار الاحتكار والاستعمار.

أجل، إن الأقدار ما كانت لتترك هذه المجموعة الكبرى من الأمم
التي تتكلم الإنجليزية ومن يرتبط بها في أكثر بقاع العالم دون أن تقرّب
بينهم بأية وسيلة لتتخذ منهم خميرة لتقارب حديث بين بني البشر.
وقد خابت المساعي لتقاربهم عن طريق السلم، إذ عز على الإنجليز المحافظين
أن ينزلوا عن كثير من تقاليد إمبراطوريتهم العتيدة، وعن حقوق الغلبة
والفتح فيها، وكانوا أولى الناس باتباع ذلك بعد أن خرجوا من الحرب
الماضية منصورين، وإذا عز كذلك على الأمريكان الأحرار أن يسيروا
مع الإنجليز والفرنسيين في نظرياتهم المحافظة، فيرتدوا عن مبادئ علمهم
الجديد وثوراتهم العظيمة التي قضوا بها على أكثر خنائر الأحقاد ومواريث
التاريخ السيء في القارات القديمة، فعاشوا حياة جديدة في أرض جديدة.
فكانت هذه الحرب الحالية رداً سريعاً من الأقدار، وعقاباً للأمم

الناطقة بالانجليزية لأنها أهملت وتوانت في السعي المشترك المسلح لإقامة
عالم أسعد وأعدل ، وكانت — ولا تزال — تستطيع أن تنهض بأعباء
ذلك العالم المنشود إن أرادت ..

و «بعد» ، فإن هذه الملاحمة العظمى وعواقبها ، ينبغي أن تضعف في
قلوب العرب والمسلمين عزائم الاستعداد لانتقال عظيم يجب أن يسرعوا
فيه لإقامة الحياة العادلة السعيدة التي تخدم أهداف الإنسانية جميعاً .
وإنهم لجديرون أن يقدموا للعالم أعظم المبادئ التي تقوم عليها السلامة
الإجماعية والمساواة الفردية والدولية التي تنشدتها الأمم وتنادى بها .
ويبدو من تفاقم مشكلات السلم التي رأيناها ترفع رءوسها البغيضة ،
وتوشك أن تعود بالإنسانية إلى سيرتها الأولى ، مع أن الحرب لم تسكد تضع
نصف أوزارها ..! أن العالم الأوروبى لا يزال غير راغب الآن أن ينهض
برسالة العدالة والمساواة والأخوة كما يعرفها العرب والمسلمون .. فلعل
الله يدخر هذه الرسالة لهؤلاء في المستقبل كما شرفهم بها في الماضي !
فليسارعوا إلى حياة الحق والعدالة والجمال التي في ميراثهم بأرواحهم
وأجسامهم ومجتمعاتهم ، حتى يكونوا نماذج مجسمة لما سيقدمونه للعالم من
مبادئ وحلول للعقد والمشكلات .

وليعلموا أن هذا هو أوان التبشير والدعوة إلى مبادئ روحهم العالمى
الذى قام على أصول أديان الحق التي ارتضتها البشرية في المشرق والمغرب .
« ولقد كتبنا في الزبور من بعد ذلك أن الأرض يرثها عبادى
الصالحون » .

« كتب الله لأغلبين أنا ورسلى ! إن الله قوى عزيز »

الخطأ والصواب

الصواب	الخطأ	السطر	الصفحة
يعملوا	يعلموا	٢٠	٨
كشفت	كشف	٦	٩
لعشاق	إلى عشاق -	٨	١٨
عقله	عقلة	٧	٢٥
انطلاقه	انطلاق الإنسان	١٢	٤٩
فإن هما	فإن هناك	١٥	٥٦
صورا لها في	صورا في	١٢	٦٩
الفكرية والماضية	الفكرية المادية	١٢	٧٤
يقيسها	يقيس قوتها	٣	٧٧
.....	التحرر من التاريخ	٢	١٢٦
تجد ...	تجد لها	١٤	١٥٣
لإثبات شخصيته	لإثبات شخصه	١٦	١٦٨
أستخدما	أستخدما	٢٠	١٦٨
ثورة	بورة	١	١٨٤
الأفعوانية	الأفعوانية	١	١٩٣
هذه	هذا	١٠	٢١٤
لنبحث	لنبحث	١٠	٢١٤
سيذهب ...	سيذهب بها	١	٢١٥
انطباعات الكون	انطباعات قوى الكون	٩	٢١٥

AMERICAN UNIT COLLEGE IN OAK

I 14587774

B 12950749

DATE DUE

B
5344
K48
U4
1945

AMERICAN CITY LIBRARY IN WASHINGTON



